موسوعة
تاريخ مصر
N
نوبليس

موسوعة

التاريخ المصري

(٤)

الدكتور الفرد ج. بتلر

موسوعة

التاريخ المصري

المجلّد الرابع

فتح العرب لمصر ـ ٢ ـ

تعريب

محمد فريد أبي حديد بك

دار نوبليس

اسم الموسوعة:	موسوعة التاريخ المصري
اسم الكتــــاب:	فتح العرب لمصر ـ ٢ ـ
اسم المؤلــف:	الدكتور الفرد ج. بتلر
اسم المعّــرب:	محمد فريد أبو حديد بك
قيـاس الكتـاب:	١٧ × ٢٤
عدد الصفحات:	٢١٦
عدد صفحات الموسوعة:	٨٨٤٠
مكــان النشــر:	بيروت
دار النشر والتوزيع:	دار نوبِليس
تلفاكس:	٧٥ ٣٤ ٥٨ (١) ٩٦١
هاتــف:	٢١ ١١ ٥٨ (١) ٩٦١ ـ ٢١ ١١ ٥٨ (٣) ٩٦١
صندوق بريـد:	٧٠ ٦٩ ١٦ بيروت لبنان
بريد إلكتروني:	info@nobilis-int.com
الطبعة الأولى:	٢٠١٢

EAN 9786144031339

ISBN 978-614-403-133-9

الفصل الثالث عشر

الإضطهاد الأعظم للقبط على يد قيرس

بنيامين يدعى لولاية الدين في القبط ـ (جرج) البطريق الملكاني خليفة أندرونيكوس ـ حب الناس لبنيامين وإصلاحه ـ خروج الفرس من مصر ـ يختار (قيرس) بطريقاً للإسكندرية وهرب بنيامين ـ يصير (صفرونيوس) زعيم المعارضين من الروم لقيرس ولكنه لا يستطيع شيئاً ـ مقاومة القبط ـ لم يفهم القبط مذهب هرقل ـ عودة حكم الروم كاملاً في مصر ـ إضطهاد السنين العشر ـ حوادث شتى ـ أثرها العام في تمهيد السبيل لفتح العرب .

قد وصفنا فيما مضى ما كان من أمر الإمبراطور منذ يوم احتفاله بالنصر في بيت المقدس وقد بلغ ذروة مجده ، إلى أن ودع أنطاكية وقد أصبح ذلك العاهل الكبير ولا حول له ولا قوة ، ضعيف العقل واهي القوة ، غارق في غمرات الخيبة والحزن . ثم رأينا سحابة ترتفع على أفق فلسطين من الجنوب ، ثم تعلو شيئاً فشيئاً كما يعلو المارد في قصص العرب ، فإذا بشبح الإسلام[1] قد صار هيكلاً ضخماً يزيد على الأيام نماء ، ثم يناضل دولة الروم في الشام حتى ينضلها وتصير إليه دمشق ثم بيت المقدس . وقد ألممنا إلمامة خفيفة بالأسباب التي اجتمعت على إحداث هذا التغيير الذي عجب منه العالم . وقد كان وصفنا لهذه الحوادث قصيراً ، وكان لا بد لنا منه إذ أردنا أن نعرف حقيقة الحوادث التي كان لمصر فيها أثر كبير . ولكنْ ذلك الوصف مع ذلك قد شط بنا عن حوادث وادي النيل شططاً بعيداً ، وما أحرانا أن

(١) في الأصل « محمد » .

نعود الآن إلى تلك البلاد لنصف ما كان فيها من الحوادث منذ أول الحرب التي بقيت ثائرة مدة ست سنوات ، وكانت نهايتها موت كسرى . وليس لدينا من أخبار هذه المدة إلا النزر اليسير وهذا ما نأسف له ، والقليل الذي لدينا منها غير واضح . فنحن مضطرون إلى أن نتلمس طريقنا فيما دوننا منها ، مهتدين ما استطعنا بهدي نورها الضئيل .

كان القليل الذي نجا من التدمير من الأديرة في جوار الإسكندرية (ديرقبريوس) وكان في وسط بستان من النخيل على مقربة من شاطىء البحر في الشمال الشرقي من المدينة ، ومن الأبنية التي نهبها الفرس[1] . وكان في ذلك الدير شاب اسمه (بنيامين) ، من سلالة أسرة قبطية موسرة من قرية فرشوط في البحيرة ، وقد جاء إليه وترهب فيه على يد رئيسه الشيخ (تيوناس) ، فجد في تحصيل العلم ، وكان ذكي الفؤاد . فما كان إلا قليل حتى نبغ وبذ معلميه في العلم والتقوى . وكانت عادته أن يقوم الليل في العبادة في كنيسة الدير . ويروى في القصص أنه كان يوماً في قيامه فسمع صوتاً يناديه أنه سيكون راعي أتباع المسيح . فلما سمع (تيوناس) مقولته أمره أن يحذر الوقوع في حبائل الشيطان . ثم قال له ينصحه إن مثل هذا الأمر لم يقع له ولا لأحد من إخوانه في مدة خمسين سنة قضاها في دير (قبريوس) ، على أنه مع ذلك صحبه إلى الإسكندرية ، ومثل به بين يدي البطريق القبطي (أندرونيكوس) ، فأعجب البطريق بما كان عليه (بنيامين) من القدرة وقوة النفس ، واستبقاه في المدينة معه ، وعاد (تيوناس) إلى الدير وحده . ثم دخل بنيامين بعد ذلك في زمرة القسوس ، وبقي مع البطريق ، وكان أمينه وصاحب ثقته « وساعده في أمور الكنيسة وتصريف أحوال ولاية الدين » .

وكان دخول (بنيامين) إلى دير (قبريوس) قرب عيد الميلاد من سنة ٦٢١ ، ولم يبق في خدمة البطريق (أندرونيكوس) إلا شهوراً ثم مات

---

(١) انظر ما سبق في هامش ٣ صفحة ١١٤ وهذه القصة من كتاب (ساويرس) ترجمة حياة البطارقة (بنيامين) النسخة المخطوطة بالمتحف البريطاني صفحة ١٠٢ وما بعدها.

البطريق ، وأوصى أن يكون هو خليفته . وقيل إن (بنيامين) كان إذ ذاك شاباً ولعله كان في المنة الخامسة والثلاثين من عمره[1] ، ولكن رداء البطارقة ألقي على عاتقه في حفله المرسوم في كنيسة القديس مرقص .

وقد رأينا فيما سلف أن (أندرونيكوس) لم يخلعه فتح الفرس من ولايته في حين أن (حنا الرحوم) بطريق الملكانيين هرب عند ذلك ومات في هربه ذاك في جزيرة قبرص . وكان خليفة (حنا) على ولاية أمر المذهب الملكاني اسمه (جورج) ، ولكن سلطان الروم كان عند ذلك قد ذهب عن مصر وليس لدينا دليل كاف يدلنا على أن استخلاف (جورج) على ولاية المذهب الملكاني وقع قبل سنة ٦٢١ ، وأقل من ذلك ما لدينا من الأدلة على تعيين الوقت الذي ذهب فيه ذلك البطريق إلى الإسكندرية[2] وأنفذ فيها أمر ولايته . بل إنا نشك

---

(١) مات (بنيامين) في ٨ طوبة سنة ٦٦٢ بعد ولاية تسع وثلاثين سنة وجاء نفس التاريخ في (ساويرس) ٨ طوبة (أي ٣ يناير) لموت (أندرونيكوس) ومع أن هذا الإتفاق غير محتمل فإن موت (أندرونيكوس) قد يكون مع ذلك وقع في يوم من شهر طوبة ، وإذا اعتبرنا أن ولاية (بنيامين) من يناير سنة ٦٢٣ إلى يناير ٦٦٢ وذكرنا ما قاله عنه (ساويرس) وذلك أنه كثيراً ما كانت تعتريه أسقام الهرم في آخر أيامه خلصنا إلى أنه كان عند وفاته لا تقل سنه عن خمسة وسبعين عاماً وما كانت قوانين الكنيسة لتسمح بأن يختار بطريق إلا إذا كانت سنه على الأقل خمسة وثلاثين سنة . فلا بد أنه كان « في منتصف العمر » .

(٢) انظر الهامش ٣ في صفحة ٩٣ وقد قال (سعيد بن بطريق) إن جورج هرب في سفينته عندما بلغه أن المسلمين هزموا الروم وفتحوا فلسطين وساروا إلى مصر (Annales ed. Pococke) الجزء الثاني صفحة ٢٦٦ ، ولكن هذا الخبر ينهدم إذا نظرنا في تواريخه ولعله وهم حقيقته خبر هرب (حنا الرحوم). ولكن (حنا النقيوسي) (طبعة زوتنبرج صفحة ٥٧١) يذكر (فيليادس) أخا البطريق جورج ثم بعد ثلاث صفحات (٥٧٤) تأتي هذه الكلمات: «وقبل مجيء البطريق قيرس كان الحاكم (أنستاس) قد أكرم جورج الذي اختاره (هرقل الأصغر)، ولما كان رجلاً هرماً شمل نفوذه كل الأمور وقد ترك البطريق نفسه سلطته» وقال زوتنبرج في تعليقه على ذلك كان يجب أن يقال «هرقل الأكبر» بدل «هرقل الأصغر»، ويتفق معه في هذا الرأي الدكتور شارل. فالظاهر على ذلك أن جورج المذكور هنا هو البطريق جورج. وإذا كان الأمر كذلك كان ما يأتي: (١) لم يمت جورج ⁎

في أنه جاء إلى مصر حقيقة وحل بها ، فإنه كان لا يرجو ترحاباً لا من القبط ولا من الفرس . ولم يكن في مجيئه إلى مصر من فائدة إلا إذا عاد جيش الروم إليها فأرجع فيها أمر الدولة وأقر فيها مذهب الملكانية . ثم دارت الدائرة وجلا الفرس عن مصر في أول سنة ٦٢٧ وذلك عندما أزمتهم الهزائم على يد هرقل . وقد ذكر في التاريخ أن حكم الروم عاد إلى مصر في تلك الفترة التي بين ذلك التاريخ وبين الوقت الذي وليّ فيه (قيرس) على مصر ، فمن الجائز أن يكون البطريق (جورج) قد دخل الإسكندرية في ذلك العام سنة ٦٢٧ وبقي بها كما يظهر من كتاب (حنا النقيوسي) حتى حل محله (قيرس) نفسه ، وصار بطريقاً بدله . ولكن أغلب الظن في رأينا أن دخول (جورج) إلى الإسكندرية لم يكن عند ذلك بل كان بعده بزمن ، وذلك لأنه لما وقفت رحى القتال بين الروم والفرس فرغت بعض كتائب الروم شيئاً فشيئاً من مشاغلها ، واستطاع الروم أن يعيدوا الجند إلى مصر ، ولكن من البعيد أن يكون وقوع ذلك قبل سنة ٦٢٩ بزمن طويل . ولعل جورج لم يبلغ الإسكندرية إلا في ذلك العام ، ولعله لم يبق في ولايته إلا سنة أو سنتين ، لأنه مات بعد ذلك أو عزل. فإذا كان الأمر كذلك سهل علينا أن ندرك السبب الذي من أجله كان ذكره فيما تخلف من أخبار الكنيسة غير واضح وكانت أحواله غير جلية[1] .

عندما مات (أندرونيكوس) كبير أساقفة القبط في أواخر سنة ٦٢٢ أو

= في سنة ٦٣٠ ولا في سنة ٦٣١ بل حل محله قيرس. (٢) إنه كان يعيش في الإسكندرية في مدة ولاية قيرس. (٣) أنه كان مع تخليه عن الولاية ذا نفوذ شخصي عظيم. (٤) إنه كان على وفاق مع قيرس وقام وكيلاً عنه في أثناء غيبته أو منفاه من مصر. وكل هذا جديد وجدير بالذكر ولكن من الصعب أن لا نصدق ذلك التأويل الذي أولنا به لغة حنا أو أن نرد شهادته.

(١) لا يشك (ربنودوه) في الخبر السائر عن موت جورج ولكن قلمه زل فكتب Post Gregorii) بدل (Post Georgii mortem) (تاريخ بطارقة الإسكندرية صفحة ١٦١). ويرى (جوتشمت) أن موت جورج ربما كان في يونيه سنة ٦٣١ (الجزء الثاني صفحة ٤٧٥ من (Kleine Shriften).

أوائل سنة ٦٢٣ كان حكم الفرس في مصر غير مزعزع لا يخشى عليه من شيء لا من قبل هرقل ولا من كرة الدولة الرومانية على يديه . حقاً لا يشك إلا قليلاً في أن ذلك البطريق قد سمع قبل موته أنباء سفر هرقل في رحلته الأولى في البحر ، ومروره بـرودس ذاهباً إلى (قليقيا) ، وأكبر الظن كذلك أن أهل الإسكندرية كانوا عند ذلك يرددون فيما بينهم ما سمعوه من قوافل العرب عن ظهور النبي في مكة . ولكن ما كان لأحد أن يذهب به الظن ويحمله الخيال ـ ولو كان ظناناً بعيد الخيال ـ إلى أنه لن تمر عشرون سنة حتى يكون الفرس قد أخرجوا من مصر إذ يجليهم الروم عنها ، ثم يعود الروم بعد ذلك فيقهر سلطانهم وتخبو نيرانه وينمحي أثرهم على يد الكتائب الشعثاء من جنود الإسلام .

وقد وافق اختيار (بنيامين) لولاية الدين هوى في قوب الناس فإننا إن شككنا في حكمته وحسن رأيه في آخر أمره ، لا يمكن أن ننكر أنه كان حبيباً إلى الناس عزيزاً عليهم ، وأنه قد بقي على محبة الناس له وإجلالهم إياه لم ينقص من ذلك شيء على تغير الأحوال وتقلب الصروف . وكانت مدة ولايته أكثر عهد في تاريخ القبط تقلباً وأعظمه حوادث . لكنه لم يتساهل في أمر الدين ولم يغض عن رذيلة في الخلق ، فشرع منذ أول أمره يأخذ قسوسه بالشدة إذا هم جازوا حدود الحمى في حياتهم ، وما كان أكثر من يفعل ذلك منهم ، ثم جعل يقضي على السوء الذي حل في مواضع كثيرة ولم يستطع الأساقفة أن يتلافوه إذ منعتهم من ذلك ضجة الحرب ومشاغلها . وقد زار بابليون[1] مرة قبل ولايته فلما ولي البطرقة أرسل كتاباً إلى أساقفته قال لهم فيه :

« لقد رأيتُ في مقامي في حلوان وبابليون جماعة من أهل العناد والكبر وكانوا قسوساً أو شمامسة ، وما أشد ما كرهت نفسي أفعالهم . وإني باعث بكتابي هذا إلى الأساقفة جميعاً آمرهم أن ينظروا مرة في كل شهر في أمر كل من

---

(١) وهذه بلا شك بابليون مصر في الجهة التي يطلق عليها خطأ اسم « Old Cairo » .

(٢) وقلنا مرة غير هذه إن الخطأ واقع في الاسم الإنجليزي ولكن التسمية العربية لا خطأ فيها فهي «مصر القديمة». (المعرِّب) .

عندهم ممن لم تمض عليه عشر سنوات في زمرة أهل الدين » . قال صاحب الديوان[٣] : (وقد دل بخطابه هذا على أنه كان كبير الأساقفة حقاً) ، ثم ظهر أمره بعد ذلك ظهوراً أجلى وأوضح عندما نفى من الدين جماعة من رجال الكنيسة في إقليم بابليون وقد أعقب كتابه بزيارة ، وجاء في الأخبار أنه في أثناء زيارته تلك سار راجلاً من بابليون « يصحبه (أبامينا) أسقف حصن بابليون و (بليهيو) أسقف حلوان وجمع كثير من الناس » وذهب إلى رجل اشتهر بالعصيان ليحاسبه على ما أجرم ، ودعا عليه فأرسل الله على داره ناراً من السماء . وكان الناس يتلقونه أفواجاً أينما سار لينالوا من بركته .

وبقي على حاله هذه يطهر الكنيسة ويجزي المسيء من أهلها فعرف الناس في كل البلاد أن دونهم رجلاً يعتد به . ولا شك في أنه عمل على إعادة وحدة الكنيسة القبطية وعلى أن يعيد إليها إطمئنانها واستقرارها بعد أن زعزعتها حوادث السياسة في ذلك الوقت ، أو كادت تهدمها . وقضى بنيامين أربع سنين أو خمساً[٢] في سلام تحت ظل الفرس في الإسكندرية ، وهناك رأى (شاهين) وقد دعاه سيده (كسرى) ليعمل إذا استطاع على مداركة أمره ، ثم رأى بعد ذلك جنود الفرس تجلو عن مصر عندما غلب هرقل ملكهم وقهره ، ولسنا ندري كيف كان نظره إلى هؤلاء الكفرة وقد رآهم يحملون الرماح ويتنكبون القسيّ وهم خارجون من الباب الشرقي للمدينة العظمى ، ولا نعرف ما دار بنفسه وهو يتوقع عودة الروم بعد ذلك .

---

(١) انظر النسخة القبطية المخطوطة في مكتبة Bodlein (Clar. Press. b. 5) وترجمة (أميلنو) المسماة « قطع قبطية لخدمة تاريخ فتح مصر » في الجريدة الأسيوية سنة ١٨٨٨ وإنه من سوء الحظ ألا يبقى من هذه الترجمة القديمة القبطية لتاريخ حياة بنيامين إلّا قطعة صغيرة كهذه .

(٢) يقول (ساويرس) على وجه البت إن الفرس أقاموا في مصر مدة ست سنوات بعد اختيار (بنيامين) وذلك يجعل تاريخ مقامهم في مصر إلى سنة ٦٢٨. ولكنا نرى أنه من المستحيل قبول مثل هذا الرأي، فإن كل شيء يدل على أن خروج الجيش الفارسي الأكبر كان في أوائل سنة ٦٢٧.

وأكبر الظن أن أكثر الفرس خرجوا من مصر في أول سنة ٦٢٧ ، وأن البعض القليل منهم قد بقي في مسالح متفرّقة إلى سنة ٦٢٨ ، وخرجوا بعد ذلك عندما تم الصلح مع هرقل . وعاد في ذلك الوقت سجناء المصريين إلى ديارهم قافلين من (دستجرد) وما إليها من مدائن آسيا ، ولعل هرقل قد أرسل جيشاً بعد أن دخل القسطنطينية ظافراً منصوراً ـ أرسله في البحر في شتاء (سنة ٦٢٨ ـ ٦٢٩) ليحتل مصر ويعيد أمر الدولة الرومانية من فلسطين إلى بلاد (بنطابوليس).

وإنا لا يسعنا إلا أن نقرّ بأن هرقل إنما كان من أحسن الناس قصداً عندما بعث قيرس الذي كان أسقف (فاسيس) في بلاد القوقاز ، وولاه رياسة الدين في الإسكندرية . ولكن عمله هذا كان خطأً كبيراً وكان له أسوأ العواقب . فقد كان المسيحيون جميعاً قد اتفقوا إتفاقاً عجيباً عندما رأوا حرب هرقل وجهاده مع الفرس ذلك الجهاد المدهش ، وكانوا يرقبونه وأنفاسهم خاشعة في الصدور من عظم ما كان في نفوسهم . فلما أن هزم الكفار وخلص بيت المقدس منهم وعلا أمر الصليب فرح المسيحيون بالنصر على اختلاف نحلهم من قبط وملكانيين ، وكذلك أظهروا سرورهم جميعاً بما حل باليهود من النقمة واشتركوا كلهم فيما أمرهم به زعماؤهم من التوبة تكفيراً عن ذنبهم هذا ، فكانت تلك الساعة فرصة من ذهب لو اغتنموها لأدّت إلى وفاق دائم ووئام حق . وقد فطن هرقل إلى هذا وكان يعرف تعلق أهل ذلك العصر بأن يكون لهم شعار يحفظونه ومقولة يقولونها، غير أنه لم يفطن إلى أن مذهبه الذي حاول به التوفيق قد يأباه أهل مصر ، ولم يعرف أن أهل مصر إذا أبوا ذلك المذهب كان شر الطرق إلى ضمهم إلى الجماعة أن يرغمهم عليه ويقذف به في حلوقهم إذ قد كرهوا مرارة مذاقه منذ ذاقوه . وعلى أي حال قد كانت هذه خطته في مصر والشام ، وكان من رأى ذلك العصر أن أمور الدين والعقيدة مما ينبغي للدولة أن تقوم عليه ويصدر الناس فيه عن أمرها . ولم يكن الإمبراطور في هذا الشأن أحكم رأياً من أهل عصره ، فعقد النية على أن يظهر المذهب الذي ابتدعه رؤساء الدين الثلاثة في دولته على كل ما عداه من المذاهب المخالفة له ، متوسلاً إلى غرضه هذا بكل الوسائل حسنها وقبيحها .

ولكنه مع عزمه هذا كان كمن يسعى إلى المصائب سعياً . وذلك أنه اختار (قيرس) دون سواه إذ كان ذلك الرجل نحساً أنكد النقيبة ، أخفق الإمبراطور بشؤمه في سعيه لتوحيد المذاهب في مصر ، ثم عسف في الحكم حتى صار اسمه مفزعاً للقبط كريهاً عندهم مدّة عشر سنين أمعن فيها ما استطاع في اضطهاد مذهبهم ، حتى استحال بعد أن يبقى في القبط ولاء لدولة الروم . وكان ظالماً أساء في حكمه حتى كره الناس دولته ، ومهد السبيل بذلك إلى فتح العرب للبلاد . وكان فوق كل ذلك خائناً فإذا ما اشتد الكرب وجد الجدّ أسلم البلاد إلى أعدائها . كان هذا هو الرجل الذي ذاع سوؤُه وقبح ذكره ، وهو المعروف فيما بعد في تاريخ مصر باسم (المقوقس) . وقد بقي ذلك الحاكم في التاريخ سراً خفياً استعصى على المؤرخين أن يعرفوا اسمه أو قومه ، ولكن قد أصبح اليوم من الثابت أنه هو قيرس دون سواه[1] .

والظاهر أن (بنيامين) لم يستشره أحد في رأي القبط وما ينتظر منهم أن يفعلوا لقاء ما يراد إدخاله من البدعة الجديدة عليهم . وكان خطأً فاحشاً ألا يستشيره أحد في ذلك فإن المذهب الجديد كان محتوماً عليه ألا يلقى في مصر نجاحاً . فما هو إلا أن جاء (قيرس) إلى الإسكندرية في خريف سنة ٦٣١ حتى هرب البطريق القبطي [2] . وقد جاء في إحدى القصص أن ملكاً أتى (بنيامين) في نومه فأنذره أن يهرب مما هو لا بُدَّ واقع من العسف ، وهذا يدل على الأقل على أن ذلك البطريق كان قد عقد النية على أن يرفض ما جاء به (قيرس) قبل أن يفضي به إليه ، وعرف ما سيكون وراء ذلك من الآثار . وكان عزمه ذاك غير مزعزع سواء أكان عارفاً بحقيقة ما جاء به (قيرس) أم كان غير

---

(١) وإذا أراد القارىء أن يرى البرهان على هذه العبارة فإنا مرشدوه إلى ما كتبناه في ذيل الكتاب تعليقاً على هذا الأمر.

(٢) قد جاءت عبارة عجيبة في هامش ١ صفحة ٢١٥ من الجزء الثاني من كتاب الأستاذ (Bury) «Later Rom. Emp.» وذلك أن (بنيامين) هرب من الفرس ومن ثم وصل إلى نتيجة أن «القبط المنوفيسيين لم يكونوا جميعاً راضين عن الحكم الفارسي» فإن العبارة مخطئة وكذلك النتيجة التي استنتجت منها. فإن (بنيامين) لم يهرب من مصر إلا بعد =

عارف بها . ففي الحق قد رأى القبط في مقدم (قيرس) إيذاناً لهم بحرب يثيرها الروم على عقيدتهم . وقد دبر (بنيامين) أمور الكنيسة قبل أن يغادر ولايتها ، وجمع جمعاً من القسوس والرعية وألقى فيهم خطاباً « يحضهم فيه على أن يثبتوا على عقيدتهم حتى يوافيهم الموت » ثم كتب إلى أساقفته جميعاً يأمرهم بالهجرة إلى الجبال والصحاري ليتواروا فيها حتى يرفع الله عنهم غضبه . وأنبأهم أن البلاد سيحل بها وبال وأنهم سيلقون العسف والظلم عشر سنين ثم يرفع ذلك عنهم .

هذا ما بعث به في خطابه إليهم ولما أنفذه سافر من الإسكندرية خفية تحت جنح الليل لا يصحبه إلا رفيقان . وخرج من المدينة من الباب الغربي وسار يمشي إلى مريوط ، ومن ثم ذهب إلى (المنى)[1] وهي قرية في واحة عند مفترق الطريقين طريق الإسكندرية ووادي النطرون وطريق الطرانة وبرقة . ولا بد قد كانت تلك القرية عند ذلك مدينة عظيمة فإنها بقيت إلى ما بعد ذلك بقرون، وكان المسافر في الصحراء والقفار إذا طلع عليها عجب من عظيم كنائسها وفخم بنيانها[2] . ولا شك أن البطريق دخل يصلي في الكنيسة

= جلاء الفرس عنها بنحو ثلاث سنوات أو أربع بعد مقامهم بها طويلاً (انظر الديوان الشرقي)، وكتاب (رينودوه تاريخ بطارقة الإسكندرية الفصل الأول) وكتاب (أبي صالح صفحة ٢٣٠ هامش ٢) وكتاب مكين (صفحة ٣٠ و ٤٠)، وكلها تدل دلالة واضحة على أن هرب (بنيامين) قبل وفاة هرقل بعشر سنوات وإذا أردت مراجعة استنتاج الأستاذ (Bury) فارجع إلى ما كتبناه قبل ذلك في الصفحات (٦٤ ـ ٦٨) حيث أظهرنا أن الرأي الذي يعزو إلى القبط عطفاً على الفرس رأي غير حقيقي .

(١) هذه هي الصورة التي يوردها (ساويرس) ولكن (كاترمير) يرى فيما نظن أن المدينة كلها كان اسمها (مينا) باسم القديس الذي سميت الكنيسة الكبرى هناك (Mem. Geog. et Hist.) الجزء الأول صفحة ٤٨٨ وقد ورد هذا الاسم واضحاً في النسخة الخطية بالقاهرة هكذا «منى» وليس (مينا).

(٢) توجد في باريس نسخة مخطوطة من كتاب لجغرافي عربي مجهول (نقل عنها كاترمير في الفصل الأول) وفيها تفاصيل عجيبة عن (المنى) أو (مينا) يجدر بنا ذكرها. «بعد =

العظمى بها كنيسة (القديس مينا) ، واستراح قليلاً بها ثم مضى في سبيله إلى جبل اسمه برنوج[٢] ، وأصبح عند ذلك قريباً من أديرة وادي النطرون . ولكنه رآها مقفرة لا يكاد يكون فيها أحد ، فإن تلك الأديرة لم تعد إلى ما كانت عليه

= الخروج من الطرانة على طريق برقة يمر الإنسان بالمينا وهي عبارة عن ثلاث مدائن مهجورة في وسط صحراء رملية ولا يزال بناؤها قائماً ويكمن العرب فيها للمسافرين، وفيها يرى الإنسان قصوراً عالية حسنة البناء وأكثرها قائم على عقود فوق أعمدة ويعيش الرهبان في بعضها وبها بعض الآبار ولكن ماءها قليل ويرى الإنسان فيها كنيسة (القديس مينا) وهي بناء عظيم فيه عدد كبير من التماثيل والصور المتقنة الصنع وتوقد بها الشموع ليلاً ونهاراً، وفي نهاية البناء مقبرة كبيرة عليها تمثالان لجملين من المرمر فوقهما تمثال رجل من المرمر وقد جعل رجلاً فوق كل منهما وإحدى يديه مبسوطة والأخرى مقبوضة ويقال إن هذا تمثال (القديس مينا). وعلى يمين الداخل إلى الكنيسة ترى عموداً عظيماً من الرخام نقش عليه مشهد به صورة (المسيح) و (حنا) و (زكريا) وقد أقفل باب المشهد ويرى بها كذلك صورة للعذراء (مريم) عليها ستاران وكذلك صور الأنبياء . وفي خارج الكنيسة صور لأنواع الحيوان وللناس في أعمالهم من كل صنف ، ومن بينها صورة تاجر رقيق في يده كيس نقود مفتوح . وفوق وسط الكنيسة قبة تحتها ثمانية تماثيل قيل إنها تماثيل الملائكة ، وعلى مقربة من فلك الكنيسة مسجد يصلي فيه المسلمون والأرض التي حولها ذات زرع من أشجار الفاكهة والكروم، وفي كل عام ترسل مدينة الفسطاط ألف دينار للانفاق على هذه الكنيسة» وقد أورد كاترمير في كل المواضع التي استعملنا فيها لفظ «صورة» لفظاً آخر وهو «تمثال» والتماثيل المنحوتة كانت ولا تزال محرمة وأنا على يقين من أنه يقصد أنها صور لا تماثيل على الأقل حيث يكون المقصود صور القديسين أو الملائكة، ولا يمكن أن ننفي وجود التمثال القائم على جملين ولعله بقية من آثار الإغريق هو والقصور والأعمدة. وقد يكون القبط قالوا عنه فيما بعد إنه القديس مينا ولكن وصف هذه المدينة جميعه شائق وموضعها اليوم مجهول ولعله في الشمال الغربي من بحيرات النطرون وإلى الجنوب من مريوط مباشرة، (والمدينة الأخيرة موضعها الآن أطلال فتكون على ذلك واقعة على الطريق الذي كان اسمه «طريق الحاج» الآتي من شمال أفريقيا) .

(١) انظر أملينو (Geog. copte) صفحة ٣١٩ - ٢١ ويقتبس المؤلف من نسخة مخطوطة عربية في باريس ١٣٩ مجموعة ٩٧ في وصف وصول (بنيامين) إلى ذلك الموضع .

بعدما حل بها من التخريب منذ ثلاثين عاماً[1] ، وكان البدو لا يبيحون لأحد أن يعيد بناء كنائسها ولا أن يقيم بها عدد كبير ، فلم يكن فيها مقام للبطريق . وكان يحس فوق ذلك أنه ما زال على مقربة من العاصمة فلا هو بآمن على نفسه ، ولا هو مقيم بين ظهراني قومه ليدفع عنهم وينصرهم . فرأى أن يسير إلى الأهرام ، ثم تركها وصعد إلى صعيد مصر سائراً على جانب الصحراء ، وما زال حتى بلغ مدينة قوص[2] ولاذ هناك بدير صغير بالصحراء غير بعيد عن تلك المدينة . وقد ظل هذا الدير مشهوراً بمقامه فيه مدة قرون بعد ذلك .

وكان هرب (بنيامين) في نفس الوقت الذي جاء فيه (قيرس) إلى الإسكندرية أو قريباً منه . ولم نجد كلمة واحدة في خبر من الأخبار تدل على أن (قيرس) سعى مرة إلى أن يتقرب إلى بطريق القبط أو يتفق معه ، فالظاهر أن مجيئه إلى مصر قد شرد قسوس القبط فزعين . وقد صار بطريقاً من قبل الدولة الرومانية في الإسكندرية ، وزاد سلطانه بأن صار والياً الى حكومة مصر من قبل الإمبراطور[3] ، ولا شك أن قبض (قيرس) على رياسة سلطتي الدنيا والدين معاً هو الذي زعزع أمر بنيامين ، فإن ذلك جعله يوشك أن يكون ذا سلطان مطلق . ولما قدم قيرس في أول الأمر تظاهر بأنه إنما جاء مسالماً ، وجعل يبين للناس كنه المذهب الجديد (المونوثيلي) وهو المذهب الذي كان الإمبراطور يطمع أن يزيل به ما أحدثه مجلس خلقيدونية من الشقاق بين الناس . فكان عليه

---

(١) في زمن البطريق (دميانوس) وقد أعيدت هذه الأديرة بعد الفتح العربي واحتفل بنيامين نفسه بافتتاح كنيسة القديس مكاريوس احتفالاً عظيماً كما جاء في ساويرس .

(٢) انظر ما كتبه كاترمير عن قوص (Mem. Geog. et Hist.) الجزء الأول الصفحات ١٩٢ و ٢١٦) وفيها تعليق مفيد يشرح موقع المدينة ويذكر بعض قصص عجيبة عن السحر وتعاويذ الأفاعي المتصلة بالمدينة وقد جاء في كتاب أبي صالح (صفحة ٢٣٠) ذكر الدير الذي لجأ إليه بنيامين ولكنه لا يسميه .

(٣) أوردنا بعض الدليل على اجتماع سلطان الدنيا والدين لقيرس في ذيل الكتاب، وليس ثمة مجال للشك في هذا الأمر.

أن يستميل إلى المذهب الجديد أقباط مصر أولاً وأتباع المذهب الملكاني ثانياً . ولكن الظاهر أن مذهبه لم يلق منذ أول أمره توفيقاً ، فقد أساء هو بيانه وإيضاحه ، وأساء الناس فهمه وتلقوه لقاء سيئاً . فأما أتباع المذهب الملكاني فقد رأى كثير منهم أن المذهب الجديد نقض تام لمذهب خلقيدونية ، وأما القبط فإن من سمع منهم بالبدعة الجديدة قال إن المذهب الجديد ما دام قد سلم بأن الله له إرادة واحدة وفعل واحد ، فإنه لا بد له أن يسلم بأن له كذلك طبيعة واحدة ، وعلى ذلك فإن (قيرس) إنما جاء في الحقيقة مسلماً بالمذهب (المونوفيسي) .

ولما أراد قيرس أن يزيل ما علق بالأفهام من الخطأ جمع مجلساً في الإسكندرية وطرح عليه الأمر ليتناظر المجتمعون فيه وليتناقشوا في مسائله . وفي ذلك المجلس جاء صاحبنا (صفرونيوس) وكان قد عاد إلى مصر وصار زعيم المعارضين من الملكانيين ، واجتهد جهده أن يثني (قيرس) عما عزم عليه من البدعة ، تارة بالحجة وطوراً بالتوسل والرجاء . وقيل إن (قيرس) أجابه جواباً ليناً[1] وطلب إليه أن يرجع إلى البطريق الأكبر (سرجيوس) بالقسطنطينية ، ليزيل ما في نفسه من الشكوك . ولكن (صفرونيوس) لم يتثن وانتهى المجلس إلى إقرار البدعة ، ووسم من لا يقبلها بتسع سمات شائنة . والظاهر أن (قيرس) لم يكن أثناء ذلك على ما ينبغي أن يكون عليه والي السلطان من الكياسة والرحمة ، وقد جاء يدعو إلى السلم والوفاق ، فإنه كان لا يلقى من

---

(١) جاء فيما كتبه الدكتور (Nurdock) تعليقاً على (Mosheim) (الطبعة الحادية عشرة صفحة ٢٥٦ هامش ١) أن صفرونيوس كان كثير التواضع إذ ركع وجعل يتوسل إلى قيرس ألا يغالي في الأمر وأن قيرس كان معه كثير التساهل. وإنا نشك في هذا فقد كان صفرونيوس شديد الغيرة في سيرته أبياً عن المهانة «فقد صاح صيحة عالية أظهر فيها ألمه الشديد وانفجر الدمع من عينيه ورمى بنفسه إلى أقدام قيرس يتوسل إليه ويرجوه ألا يعلن ما أراد إعلانه من الأسباب التسعة للعن، ولكن قيرس لم يعر سمعه لتوسله (انظر منسى الجزء العاشر المجموعة ٦٩١).

يقاومه إلا بقوة من العزيمة تدعمها قوة السلطان ، في حين أن مثل تلك المشكلات الدينية في مصر لم يكن لها أن تحل إلا بالدهاء وحسن الإحتيال . على أن الذنب في الإخفاق كان ذنب كلا الفريقين ، فقد كان (قيرس) عاتياً متكبراً ، في حين كان القبط على شيء من العناد وقلة البصر ، وذلك إذا نحن سلمنا بأن (قيرس) قد أوضح لهم المذهب الجديد وبين كنهه لهم . فإنه لم يكن ثم فرق كبير بين مذهب القبط (المونوفيسي) والمذهب الجديد (المونوثيلي) ، لو طرح كلاهما أمام أعين عامة الناس . حقاً يجب علينا ألا ننسى أنه لا تزال إلى اليوم بين المسيحيين فرق وشيع ؛ وكثيراً ما يكون بينها شديد العداوة وكبير الخلاف مع انعدام ما يوجب ذلك في حقيقة الأمر . ولكن القبط في ذلك الوقت قد إرتكبوا خطأ كبيراً برفضهم ما عرض عليهم من أمر توحيد المذاهب ، وكان خطؤهم ذاك سبباً في مصائب عظيمة تحل بهم .

وقد يرى البعض أن المذهب الجديد كان بدعة وضلالة ، ولم يكن من المتيسر نشره ، ولكن مهما يكن حكمنا على هذا المذهب الذي إبتدعه هرقل وبطارقته الشرقيون الثلاثة ، ومهما تكن صورته التي أطلع القبط عليها ، وسواء كانوا على الحق أو على الباطل ، فإنهم تلقوه بكراهة شديدة بادىء ذي بدء . فلم يطيقوا أن يخطر ببال أحد منهم أن يغير ذرة من أصول عقيدته أو لفظاً من شعار مذهبه ، وعدّوا ذلك خيانة لدينهم واستقلالهم بأمره ، وقد كان استقلالهم في أمور الدين أكبر ما تتعلق به نفوسهم ، فإنهم لم يعرفوا الاستقلال القومي قط[1] ، ولعلهم لم يحلموا يوماً بمثل ذلك الأمل . وأما الاستقلال في أمر الدين فقد ناضلوا من أجله ، وجاهدوا في سبيله ، لم يثنوا عن ذلك في وقت من الأوقات منذ مجلس خلقيدونية . وكانوا حريصين على بلوغ ذلك الغرض لا تغفل عنه قلوبهم ، ولا يحجمون عن بذل كل شيء في سبيله مهما عظم . ذلك هو سر حوادث تاريخهم جميعاً .

---

(١) لا بد أن المؤلف يقصد قبط مصر في عهد المسيحية ولا يتعدى ذلك إلى العصور الفرعونية القديمة. (المعرّب).

ولما رأى (قيرس) أنـه لم يستطع أن يستميـل القبط بالخـداع ، ولا أن يحملهم على ما أراد برميهم بالكفر واللعنة ، لجأ إلى ما هو أشد من ذلك . ولا نقدر أن ننكر أن هرقل كان شريكه فيما لجأ إليه من العسف ، ولكن الإمبراطور حاول مرة أخـرى بعد ذلـك أن يصل إلى غـرضه من تـوحيد المـذاهب ، فإن سرجيوس لما رأى أن الناس لم يقبلوا المذهب القائل بأن الله إرادة واحدة وفعلاً واحداً ينفذها به إقتـرح أن يقر النـاس بأن الله لـه إرادة واحدة ، وأمـا المسألـة الأخرى وهي نفاذ تلك الإرادة بالفعل وهل ذلك الفعل واحد أو مزدوج فيرجىء القول فيها ويمنع الناس أن يخوضوا في مناظراتها . ثم أرسل إلى البابا في رومة وهو (هونوريوس) فأخذ منه إقراراً لهذا الحل، وإن شئت فقل إنه لم يكن حلاً ولكنه كان هروباً وتخلصاً من المشكلة . ثم جعل ذلك في رسالة رسمية وبعث بها إلـى جميع جهات العالم الشرقي وتقدم إلى الناس أن يعتقدوه ويتبعوه ، وأمر البطريق سرجيوس حنا قائد الشـرطة أن يحمـل صورة من الأمـر إلى (قيرس) وأرسل معه هدية[1] صليباً له قدر عظيم من القداسة . ولكن أثر تلك الرسالة لم يكن سوى أن زاد المعارضة والرفض ، ورأى الإمبراطور أن (صفرونيوس) عدو لسعيه[2] لا يفل حده ولا تخور همته ، وقد كـان حاول من قبـل أن يستميله أو يسكت لسانه بأن اختاره بطريق بيت المقدس ، فلم يغنه ذلك شيئاً . وأما القبط فقد وجدوا أن الصيغة الثانية للمذهب الجديد إذا كان فيها مـا يخالف الصيغـة الأولى فهي أشدّ منها وأكره مذاقاً .

---

(١) ورد ذكر هذه الصيغة الأولى للمذهب الجديد في كتاب (Harduin) وهو «Concilia Eccles. His.» الجـزء الثالث صفحـة ٧٩١ انظر كـذلك كتـاب (Mesheim) صفحـة ٢٥٦ (الطبعة الحادية عشرة) وقد أفاض قيرس عند إرسال الرد بوصولها إليـه، وجاء ذكـر هذا الرد في (Drapeyron) صفحة ٣٨٩ وهو يذكر اسم الرسـول الذي حمله. وقـد ورد ذكر الصليب في ديـوان (حنا النقيـوسي) صفحة ٥٧٤، ولعله كـان يدخله جـزء ممـا يسمى (الصليب الحقيقي).

(٢) قال قيدرينوس عند ذكر موت صفرونيوس إن البطريق مات بعـد أن حارب هـرقل حـرباً عظيمة وبعد أن ناضل سرجيوس والمونوثيليين .

وإنه لمن أبعد الأمور أن تكون الصيغة الأولى للمذهب ، أو الرسالة التي بعثت فيها الصيغة الثانية له ، قد بلغت أقباط مصر في غير الإسكندرية . فإن ما تخلف من أخبار القبط لا أثر فيه لذكر صيغة المذهب الجديد ، أو أن شيئاً مثل ذلك عرض عليهم . ولعل هذا أدعى ما في الأمر للحزن والأسى ، إذ لايذكر في ذلك العصر كله في أثناء الإضطهاد إلا شيء واحد وهو أن الروم كانوا يخيرون الناس بين قبول مذهب خلقيدونية بنصه ـ وهو كتاب (ليو) ـ وبين الجلد أو الموت ، ولم يكن في عقول مؤرّخي القبط إلا هذا الإعتقاد يدوّنونه في دواوينهم . فيلوح من ذلك أن قيرس أحس بإخفاقه في سعيه من مبدأ الأمر وكان يودّ أن يحمل القبط على المذهب الذي تقرّر مهما تكلف في سبيل ذلك ، فلم يعبأ بعد بما أدخله الإمبراطور على هذا المذهب من التهذيب ، بل كان يعرض على الناس أحد أمرين لا تعقيد فيهما ، وهما قبول الدخول في الجماعة أو الإضطهاد .

وكانت البلاد كلها عند ذلك تحت يد (قيرس) المقوقس يصرفها كيف شاء وكان جيش الرومان مرة أخرى يملك مصر . فكانت طرق الإسكندرية البراقة تتجاوب جوانبها بأصداء الكتائب البيزنطية إذ تسير فيها ، وعادت جنود الروم إلى الأسوار العظيمة أسوار المدينة وآطامها ووضعت عليها آلات حربها وبعثت المسالح إلى مدينة الفرما (بلوز) وهي ثغر الطريق الآتية من فلسطين إلى مصر ، وإلى بلاد مصر السفلى مثل أثريب ونقيوس ، وكذلك إلى الحصن العظيم حصن (بابليون) بقرب ممفيس ، ومن ثم عاد سلطان الروم فانتشر على بلاد الفيوم ووادي النيل حتى بلغ الحدود من الجنوب عند أسوان في أسفل الجنادل . وكانت كل تلك الجنود والكتائب عند أمر (قيرس) ماثلة لإنفاذ أمره إذا ما دعاها . ولم يتحرّك القبط بطبيعة الحال عندما عاد جند الروم إلى البلاد ، ولكنهم وجدوا بعد قليل أن حكم الفرس إن لم يكن مما يحب ويرغب فيه فإن حكم الروم الجديد لم يكن حدثاً يحمدونه ويفرحون من أجله . فقد وجدوا فيه أنواع العقاب وصنوف العذاب ، فكأنهم وقد خرجوا من حكم الفرس إلى حكم الروم قد رفع عنهم التعذيب بالسياط ليحل بهم تعذيب آخر من لسع العقارب .

إذ بينا كان غزاة الفرس بعد أن استقرّ بهم الأمر في البلاد لا يحولون على الأقل بين القبط وبين التدين بما يشاءون من الدين ، جاء (قيرس) المقوقس وصمم على أن يحرمهم تلك الميزة الكبرى وينزعها من أيديهم .

وابتدأ الإضطهاد الأعظم عند ذلك . ويتفق المؤرخون جميعاً على أنه بقي مدة عشر سنوات ، أي أنه بقي كل مدة ولاية قيرس رياسة الدين . فإن أكبر الظن أن مجمع الإسكندرية كان في شهر أكتوبر من سنة ٦٣١ ، وقد بدأ عهد الإضطهاد بعد ذلك بشهر واحد أو بشهرين . ولا يشك أحد في فظاعة ذلك الإضطهاد وشناعته ، فقد جاء في كتاب (ساويرس) « لقد كانت هذه السنين هي المدة التي حكم فيها هرقل والمقوقس بلاد مصر ، ففُتن في أثنائها كثير من الناس لما نالهم من عسف الإضطهاد والظلم ، ومن شدة العذاب الذي كان يوقعه هرقل بهم ، لكي يحولهم على رغمهم عن مذهبهم إلى مذهب خلقيدونية . فكان يعذب بعضهم ويعد البعض أحسن الجزاء ، ويمكر بالبعض ويخدعهم » . وقد جاء في ترجمة حياة البطريق القبطي (إسحق)[1] ، وكانت كتابتها سنة ٦٩٥ ، أنه في شبابه لقي قساً اسمه يوسف كان ممن شهروا بين يدي (قيرس) وجلد جلداً كثيراً لأنه شهد شهادة الحق . وكذلك كان أخو (بنيامين) ممن عذبوا ثم قتل غرقاً . وكان تعذيبه بأن أوقدت المشاعل وسلطت نيرانها على جسمه ، فأخذ يحترق « حتى سال دهنه جنبيه إلى الأرض »[2] . ولكنه لم يتزعزع عن إيمانه ، فخلعت أسنانه ثم وضع في كيس به رمل وحمل في البحر حتى صار على قيد سبع غلوات من الشاطىء ، ثم عرضوا عليه الحياة إذا هو

---

(١) تاريخ البطريق القبطي اسحق (صفحة ١٢) تأليف اميلنو. وترجمة اميلنو لا تظهر الفعل في قوة دلالته على الزمن الماضي التام (كما يقول المستر كروم) وذلك الزمن الماضي التام (Pluperfect tense) له دلالة كبرى في تعيين التاريخ فإنه عندما حدث الاجتماع كان الاعتراف أمام قيرس قد حدث من قبل ومات اسحق في سنة ٦٩٣ كما بينا في الذيل (ف).

(٢) هذا الخبر عن (ساويرس) (النسخة المخطوطة بالمتحف البريطاني صفحة ١٠٤ الكتاب العاشر) وتتفق نسخة القاهرة معها في ذلك الخبر.

آمن بما أقرّه مجلس (خلقيدونية) ، فعلوا ذلك ثلاثاً وهو يرفض في كل مرة ، فرموا به في البحر فمات غرقاً . وقال الكاتب الذي كتب ترجمة حياة بنيامين « ولكنهم بفعلهم هذا لم يقهروا (ميناس) الذي مات شهيداً بل قد غلبهم هو بصبر الإيمان المسيحي » .

وإليك دليلاً آخر جاء في ترجمة حياة صمويل (القلموني)[1] وقد كتبت تلك الترجمة في أيام (قيرس) ، وجاء فيها وصف جلي لما فعله (قيرس) نفسه من الأفاعيل في هذا الإضطهاد ، ولهذا كان لنا العذر إذا نحن نقلنا هنا بعض ما جاء فيها في شيء من الإفاضة . تصف القصة أن البطريق (قيرس) جاء إلى الدير فوجده خلاء ممن فيه إلا من خازنه ، فقبض عليه وجلده وأخذ يسأله ، فقال له الخازن : « لقد جمع صمويل الزاهد رهبان الدير وخطب فيهم فأطال ووصفك بالكفر وبأنك يهودي من أتباع (خلقيدونية) ، ولا تؤمن بالله ، وبأنك لست أهلاً لأن تقيم الصلاة ولا أن يعاملك المؤمنون . فلما سمع الرهبان قوله هذا هربوا قبل مقدمك » فلما سمع الكفار الفاسق ما قاله الخازن ثار ثائره وعض شفتيه من الغيظ وسب الخازن والدير ورهبانه ، ومضى عنه . قال كاتب الترجمة : « ولم يعد للدير بعد ذلك إلى يومنا هذا »[2] . فلما ذهب رجع

(١) نشر هذه الترجمة (اميلنو) في «Mon. pour servir à l'his. de l'Eg. Chret. aux IVe-VIIe Siècles» (Mem. Misc. Arch. Franç. au Caire) الجزء الرابع وصفحة ٧٧٤ وما بعدها، وأما عن التاريخ فانظر التعليق التالي.

(٢) هذا القول يدل على أن النسخة الأصلية المخطوطة قد كتبت قبل موت قيرس في سنة ٦٤٢ فقد مات صمويل في قلمون بعد أن تنبأ بقدوم العرب وانتهاء غزوتهم بنصر المسيحيين (الجريدة الآسيوية ١٨٨٨ صفحة ٣٨٤) ومن هذا نستنتج أن تاريخ حياته كتب في أول الفتح وقبل أن يظهر انتصار العرب أي أنه كتب في أوائل سنة ٦٤٠. وكانت تواريخ الحياة تكتب عادة وتلقى بصفتها مديحاً بعد موت قديس عظيم أو رجل كبير من أهل الدين، فلنا أن نقول إن صمويل مات سنة ٦٣٩ ويقول (Pereira) إنه قيل إن صمويل لقي في قلمون رجلاً اسمه جريجور أسقف قيس وإن ساويرس يذكر مقابلة بين رجل اسمه جريجور أسقف قيس وبين البطريق حنا السمنودي (سنة ٦٨٠ - ٩).

وإن البطريق اسحق بعد اختياره وإقرار عبد العزيز له دخل الإسكندرية في سنة ٦٨٥ =

الإخوان إلى ديرهم آمنين ، وأما الكاوخيوس (المقوقس) ذلك البطريق الدعيّ فقد ذهب إلى الفيوم والغيظ يأكل قلبه ، ودعا هناك أصحابه وأتباعه وأمرهم أن يأتوا له بالعابد (الأبا صمويل) مكتوف اليدين من خلاف ، وأن يضعوا في عنقه طوقاً من الحديد ، وأن يدفعوا به كما يدفع باللصوص . فذهبوا إلى الدير الذي كان فيه وقبضوا عليه .

وذهب صمويل مستبشراً في صحبة الله وهو يقول : « سأمنح إن شاء الله اليوم الشهادة بأن يسفك دمي في سبيل المسيح » ، ثم جعل يسب المقوقس لا يخشى شيئاً . وأدخله الجنود عليه ، فلما رأى المقوقس ذلك الولي أمر جنده أن يضربوه حتى سال دمه كما يسيل الماء ثم قال له : « صمويل أيها الزاهد الشقي . من ذا أقامك رئيساً للدير وأمرك أن تعلم الرهبان أن يسبوني ومذهبي » ؟ . فقال له العابد (الأبا صمويل) : « إن البر في طاعة الله وطاعة وليه البطريق (بنيامين) وليس في طاعتك والدخول في مذهبك الشيطاني - يا سلالة الطاغوت ويا أيها المسيخ الدجال ». فأمر (قيرس) جنده أن يضربوه على فمه وقال : « لقد غرك يا صمويل أن رهبانك يجلونك ويعلون من شأن زهدك ، ولهذا تجرأت وقويت نفسك . ولكني سأشعرك أثر سبابك للعظماء إذ سولت له نفسك ألا تؤدي لي ما يجب عليك أن تؤديه لعظيم رجال الدين وكبير جباة المال في أرض مصر » فأجابه صمويل : « لقد كان إبليس من قبل كبيراً

= وكان معه عند ذلك رجل اسمه (جريجور) أسقف قيس، وهذا التاريخ الأخير يجب أن يكون سنة ٦٩٠ بدل سنة ٦٨٥، ولكن هذا التصحيح يقوي حجة (بريبرا) وهي أن هؤلاء الأشخاص الثلاثة الذين اسمهم (جريجور) إذا كانوا شخصاً واحداً كما تدل عليه الأدلة وإذا كان صمويل قد مات سنة ٦٣٩ وجب علينا أن نقول إن جريجور بقي على الأسقفية أكثر من خمسين سنة، وليس هذا بمستحيل بالطبع. ولكنا بدل أن نقول إن موت صمويل كان بعد هذا التاريخ نقول إنه من الجائز أن يكون بمصر في ذلك الوقت رجلان اسمهما جريجور كما قد كانت عند ذلك مدينتان كل منهما اسمها قيس واحدة منهما في الشمال على ساحل البحر والأخرى عند البهنسا في الجنوب.

انظر كتاب كاترمير «Mem. Geog. et His.» (صفحة ١٤١ و٣٣٧ من الجزء الأول) وقال أبو صالح إن جريجور أسقف قيس أنشأ كنيسة في حلوان (صفحة ١٥٦).

على الملائكة ولكن كبره وكفره فسقا به عن أمر ربه . وهكذا أنت أيها الخادع (الخلقيدوني) فإن مذهبك مذموم وإنك أشد لعنة من الشيطان وجنوده » . فلما سمع المقوقس ذلك امتلأ قلبه بالغيظ على ذلك الولي وأومأ إلى الجند أن يقتلوه . وقصارى القول إن ذلك الكفار أراد أن يقتل الولي ، ولكن حاكم الفيوم خلصه من يديه فلما رأى قيرس أن صمويل نجا منه أمر به أن يطرد من جبل نكلون[1] .

وقد جاء مثل هذا الخبر في الترجمة الأثيوبية لحياة (الأبا صمويل) وقد جاء فيها ذكر رجل اسمه (مكسميانوس) وأنه أتى إلى دير صمويل في الصحراء ومعه مائتا جندي وأنه أعطاه كتاباً يؤمر فيه بالإيمان بمذهب خلقيدونية[2] فمزقه صمويل ورمى به من باب الكنيسة وهو يقول : « ليس لنا من رئيس إلا بنيامين ولعنة الله على ذلك الكتاب الكفار الذي جاء من الإمبراطور الروماني ، ولعنة الله على مجمع خلقيدونية وكل من آمن بما أقره » فضرب صمويل حتى ظن أنه

---

(١) كانت نكلون وهي بالعربية (النقلون) في حوار قلمون على ساعتين إلى الجنوب الغربي من مدينة الفيوم، وأما الدير المسمى دير الخشب فقد وصفه أبو صالح (صفحة ٢٠٥ ـ ٢٠٦) وذكره متصلاً بدير القلمون، وقد وصفه كذلك المقريزي (انظر الكتاب صفحة ٣١٣ ـ ٣١٤). ولكن الظاهر أنه اندثر من زمن (انظر كذلك كاترمير (Mem. Geog. et Hist.) (الجزء الأول صفحة ٤١١ و٤٧٣)، وكتاب أميلنو (Goeg. Copte) (صفحة ٢٧٣)، والجريدة الأسيوية نوفمبر سنة ١٨٨٨ صفحة ٣٩٨، وكتاب (Pereira) «حياة الأنبا شنودة» (صفحة ٣٦ ـ ٤٠) وقد أخطأ (Pereira) في أنه جعل القلمون على مسيرة ١٥ ميلاً (أو ٢٩ كيلومتراً) من الإسكندرية آخذاً ذلك عن كتاب «Vitae Partum lib. X.C. 162» (Rosweyde) فإما أن نقول إنه قصد ١١٥ ميلاً بدلاً من ١٥ وإما أن القلمون الذي يقصده هو دير آخر وليس الدير الذي بالفيوم. وقد جاء في (Bulletin de l'Institut Franç. d'Arch. Gr.) (الجزء الأول صفحة ٧٢) أن دير النقلون في الجبل شرق كوم بشا وأن دير القلمون عند سفح الجبل في مدخل الفيوم وأنه كان فيه اثنتا عشرة كنيسة.

(٢) انظر (Pereira) صفحة ١٤٢.

مات ثم غودر ولكنه عاد إلى نفسه وسار إلى القلمون حيث عاد لمحادثته لقيرس وما أعقبها كما أسلفنا وصفه[1] .

وإذا كان مثل هذا العسف يجري في الصحاري فما بالنا بما كان يحدث للقبط في بلاد مصر السفلى والصعيد ـ فلقد كان حظ من يأبى منهم أن يتخلى عن عقيدته أو ينازع قيرس في أمره أن يجلد ويعذب أو يلقى به في السجن أو يلقي الموت . فكانت تقام أساقفة للملكانية في كل بلد من مصر حتى أنصنا[2] من بلاد الصعيد ، في حين كان قسوس القبط يقتلون أو يشردون في أنحاء الأرض يلتمسون فيها ملاذاً . وكان السعي حثيثاً غير منقطع وراء بنيامين ، ولكن لم يعثر عليه في مكان . وقد جاء في كتاب (ساويرس) أنه كان يتنقل من دير محصن إلى آخر . وجاء في ترجمة حياة شنوده[3] ما يفهم منه أن بنيامين لجأ

(١) الكتاب نفسه صفحة ١٤٦ ولم يسم قيرس صراحة ولكنه سمى الحاكم وكانت له سلطة الدين وسلطة الدنيا على مصر كلها، فليس من شك في أنه كان قيرس. ويجدر بنا أن نذكر هنا أن الديوان القبطي الذي نقلت عنه تلك الحادثة قد جاءت فيه هذه الكلمات «لما أتت الأنباء إلى المقوقس عن طريقة معاملته لكتاب ليو دبّر له مكيدة وقبض عليه وضربه ضرباً شديداً وقال له: «اعترف إن مجلس خلقيدونية كان على الحق حتى أطلق سراحك» انظر الجريدة الأسيوية نوفمبر سنة ١٨٨٨ صفحة ٣٩٧).

(٢) كانت (انصنا) وهي (أنتنويه) عند ذلك عاصمة (التيبائيد) وكانت تجاه هرموبولس مجنا إلى الشمال من لاكوبولس (وهي سيوط) فالظاهر أن سلطان قيرس لم يكن عظيماً في جنوب سيوط.

(٣) هذه الترجمة باللغة العربية وقد نشرت مع ترجمة لها في (Mem. Miss. Arch. Franc.) (الجزء الرابع (١) صفحة ٣٤٠) وجاء ذكر ما وقع بين بنيامين وقيرس على صورة نبوءة، ويجدر بنا أن نذكر ذلك هنا «سيخرج الفرس من مصر ثم سيقوم «الدجال» (وهو الاسم المعتاد للمسيخ المفسد) وسيذهب أمام إمبراطور الروم بعد أن يحصل منه على الرياستين رياسة الدنيا ورياسة الدين وسيدخل مصر ويملك أرضها وملحقاتها وسيحفر الخنادق ويبني الأسوار حول المدن في الصحراء، وسيخرب الشرق والغرب وسيخرب الراعي أكبر أساقفة الإسكندرية والوالي على دين المسيحيين في أرض مصر، وسيهرب منه ذلك الراعي إلى أرض (تيمان) حتى يعود إلى ديرك وهو حزين متألم وعندما يعود إلى هناك سأعيده إلى حاله وأرجعه إلى عرشه». =

إلى دير الأنباء شنوده وهو الدير العظيم المعروف بالدير الأبيض ، على أن هذه الرواية تختلف عما تواتر من الأخبار عن أنه إنما لاذ بدير في الصحراء قريب من (قوص) . ولعل الدير الأبيض كان مع قوة حصونه ومنعة أسواره العظيمة غير كفيل بحماية بنيامين مدة طويلة لقربه من النيل ، في حين أنه كان يستطيع أن يجد ملاذاً آمناً لا تصل إليه أيدي أعدائه في جبال صحراء قوص ، وما بها من المغاور الكثيرة والكنائس المنقورة في الصخور .

وليس من العجيب أن يفتتن كثيرون ممن لم يستطيعوا الهجرة والهرب وأن يخضعوا لما شاء قيرس منهم ، فقد كان حكمه حكم إرهاب . وإذا كان القبط لم تخمد نفوسهم فما كان لشعب بأجمعه أن يستشهد في سبيل الدين . فدخل جماعة من الأساقفة في المذهب الجديد مذهب عدوهم ، ومن هؤلاء أسقف (نقيوس)[1] واسمه (قيرس) وأسقف الفيوم (فكتور) ، ولا شك أن عدواهم انتقلت إلى سواهم . أما من لم يستطع الهرب من الناس والخروج إلى الصحراء وكان مع ذلك غير راضٍ عن ترك مذهبه فقد لجأ إلى التقية ، وأظهر غير ما يبطن حتى لقد بقيت في الإسكندرية ذاتها بقية من القبط في سني الاضطهاد العشر ، مع أنهم لم يكن لهم بها إمام من مذهبهم اللهمَّ إلاَّ قس واحد من أهل مريوط اسمه (أجاثو) وكان كل يوم يخاطر بحياته في سبيل دينه . فكان يخفي نفسه في لباس نجار ويسير في أنحاء المدينة في النهار يحمل على ظهره كيساً قد وضع فيه آلاته وعدته ، فإذا ما جاء الليل ذهب إلى الكنيسة كي

= وانظر ما قيل في الدير الأبيض في كتابنا (Anc. Copt. Ch.) الجزء الأول صفحة ٣٥١ وانظر الكتاب الجليل كتاب المرحوم (و. دي بوك) وهو (Materiaux pour servir à l'arch. de l'Eg. Chret.) صفحة ٣٩ وما بعدها. ولعل دير شنوده الذي ذكر هو الذي في قوص وذكره أبو صالح ولكن ذلك الكاتب يفرق بينه وبين الدير الذي لجأ إليه بنيامين تفريقاً واضحاً.

(١) تذكر النسخة المخطوطة في المتحف البريطاني لكتاب (ساويرس) «قيرس أسقف (سفنوس) » ولكن نسخة القاهرة المخطوطة تذكر (نقيوس) وهذا حق، وأما المقريزي فإنه يذكر بطرس بدل (قيرس).

يقيم شعائر العبادة لإخوانه القبط . وقد صار هذا القس فيما بعد أكبر أصدقاء بنيامين وخلفه بعد موته على ولاية الدين .

وروي أن دير (مطره) ويسمى بدير (السقونية) نجح في مقاومة (قيرس) ، وكان ذلك الدير في الإسكندرية أو قريباً منها ، وكان السبب في أنه بقي على عهده لم يتغير أن كل رهبانه كانوا مصريين خلصاً ليس فيهم غريب واحد[1] .

والظاهر أن المصريين سعوا مرة إلى التخلص من (قيرس) مع ما كانوا عليه من الصبر والإحتمال الطويل ، فقد أثار حفيظتهم ما رأوه من فعله ، إذ تارة ينهب أواني كنائسهم الثمينة لا يرقب فيها إلاً ولا ذمة ، وتارة يضربهم أو يسجنهم . فاجتمع أتباع الطريقة (الجايانية) في كنيسة (دفاشير) بقرب مريوط ، وتآمروا على قتل ذلك الظالم . ولكن سمع بهذا الاجتماع (ضابط) روماني اسمه (أودوقيانوس) وهو أخو (دومنتيانوس) ، وكان عدواً شديد العداوة للقبط ، فأرسل جنداً وأمرهم أن يذهبوا إلى المتآمرين فيقتلوهم . فكان ذلك وقتل الجنود بعضهم وجرحوا منهم البعض بسهامهم ، وقطعوا أيدي طائفة منهم بغير أن يسمعوا منهم شهادة أو يقوموا معهم بشيء يشبه القضاء ، وبذلك قضى على المكيدة ونجا قيرس من الخطر[2] .

وقد أوردنا هذه القصص جميعها لكي ندل بها دلالة واضحة على شدة الإضطهاد وعنفه . وإنه ليخيل إلى الإنسان أنه من المستبعد أن يبقى مثل هذا الإضطهاد عشر سنوات ، ولكن هذا هو الحق الذي لا مراء فيه . فقد جاء في

---

(١) ساويرس نسخة المتحف البريطاني المخطوطة صفحة ١٠٧ (الكتاب ١١).

(٢) حنا النقيوسي صفحة ٥٦٦ ويقول زوتنبرج بحق إن الفقرة التي بها هذا الخبر خارجة عن موضعها، فإن هذه الحادثة كانت قبل غزوة المسلمين. انظر ما قاله أميلنو في (دفاشير) (Geog. Copte) صفحة ١٢٢ ، وقد سبق ذكرنا لهذا الموضوع (صفحة ٧٠) عند ذكر ثورة نيقيتاس.

ديوان (حنا النقيوسي) ما يأتي : « وظل قيرس إلى ما بعد موت هرقل عندما عاد إلى مصر » (وذلك في سنة ٦٤١ بعد نفيه من البلاد أو غيابه عنها فترة) ، « لم يذهب عنه حقده على عباد الله ولم يمتنع عن إضطهادهم بل زاد قسوة على قسوة » . وقد جاء مثل هذا القول في كتاب (ساويرس) إذ قال : « فكان هرقل كأنما هو ذئب ضار يفتك بالقطيع ولا يشبع نهمه ، وما كان ذلك القطيع إلا طائفة (التيودوسيين)[1] » . ولكن ما كان الإضطهاد إلا ليزيد من استطاعوا مقاومته إيماناً على إيمانهم ، بدل أن يفتنهم عنه ويقضي عليه . فكانت الشدائد تتوالى بمذهب القبط والمصائب تفتك بأصحابه ، ولكنه ظل قوياً لم تلن قناته ، وبقي أكثر الناس على إيمانهم ثابتين أقوياء . ولكن حد ذلك البطش كان قد بلغ نفوسهم فثلمها وجعل الداء ينخر في جراحهم مدة ظلم تلك السنوات العشر وظلامها ، فكان ذلك سبباً في ضياع كل أمل في عودة السلام والوفاق بين الطائفتين المتنازعتين ، إذا استفحل الأمر واستمر مرير العداوة والكراهة لسلطان الدولة البيزنطية ودينها جميعاً .

وليت شعري ماذا كان يدور بنفوس أهل مصر إذ ذاك ، وبأي عين كانوا ينظرون إلى تلك الحركة العظيمة التي ثارت في بلاد العرب ، فما زالت حتى قرعت بلاد الشام وهزت مدائنها هزاً . إنا نقول ، وإن قولنا لمما يشرف القبط ، إننا لا نجد أقل دليل يبعثنا على الظن إنهم نظروا إلى تلك الحركة نظرة الميل والرضى . على أنهم لا بد قد بلغهم أن المسلمين يدعون للمسيحيين أمور دينهم ، وفعلهم قد خطر بقلوبهم عند ذلك أن الخضوع للمسلمين قد يخفف

---

(١) هذا القول عجيب وهو يدل على أنه في أيام (ساويرس) كان القبط لا يزالون يسمون أنفسهم (التيودوسيين) وأن لفظ «القبط» في الحقيقة كان مرادفاً للفظ «تيودوسيين» وكان «الجيانيون» طائفة صغيرة في وقت قيرس (انظر هامش صفحة ٢٥) ومع ذلك فالأستاذ (Bury) عندما ذكر تولية قيرس يقول إن «أول عمل قام به هو أن يستميل إليه الطائفة الكبرى طائفة التيودوسيين أو (الفطار تولاتربين) انظر كتابه (Later Rom. Emp) (الجزء الثاني صفحة ٢٥١).

من الآلام التي نغصت عليهم حياتهم ، وأن نير المسلمين قد يكون أخف حملاً من نير الملك الأصيل في دين المسيح وهو هرقل . لا شك في أنهم قد كرهوا دين الإسلام ، وتدل على ذلك كل صفحة من صفحات تاريخهم ، ولكن سيف (قيرس) قطع آخر ما كان يربطهم إلى الدولة الرومانية من أسباب الولاء ، وذلك لكثرة ما لاقوه في مدة السنوات العشر من الظلم الذي نزل بهم إلى حضيض من الشقاء لا أمل معه . فرأوا في مجيء المسلمين نازلة أرسلها الله لينتقم لهم بها من ظالميهم .

وهكذا دفع سوء الحكم خير بلاد الدولة الإمبراطورية إلى مأزق ما أضيفه ، ولسنا نستطيع أن نعرف جناية من هذه ، أهي جناية هرقل وقد أطاعه المقوقس فيما أمر به من الشر ، أم هي جناية المقوقس وقد عصى سيده وخان أمانته . فمن الجلي أن هرقل كان يقصد في مبدأ أمره إلى قصد نبيل ، فما كان أعظم أن يخلع على الكنيسة من السلام مثل ما خلع على الدولة ، ولكنه لم يعرف ثبات الناس على أديانهم وحرصهم عليها ، ولم يعرف أن الدين كان متغلغلاً في أعمق فجاج الدولة ، وأنه إذا شاء أن ينتزعه منها بالقوة كان في ذلك أشد الخطر على حياتها . وكذلك كان اختياره لمن ينفذ له أغراضه غير موفق ، فقد أرسل إلى مصر رجلاً ليعيد السلام فإذا به ظالم عاتٍ ، وأرسل كلمة يقصد بها نشر السلام فلم يؤدها الرسول أو لم يسمع بها الناس . وأما الإضطهاد فلا شك في أنه قد وافق عليه وأقره ، ولكنه قد يكون أقره بعد أن لم يجد عنه محيصاً ، في حين أن قيرس لجأ إلى العسف بادىء ذي بدء ولم يلجأ إلى وسيلة سواه . ومهما يكن من شيء فقد كان رأى الإمبراطور في القضاء على اختلاف المذاهب بأمر يأمر به ، رأياً بعث به الخيال والوهم . فقد ظن أنه يستطيع بكلمة سحر يقولها أن يهدىء العواصف الثائرة من الخلاف في المذاهب ، فما كان منه إلا أن زاد العاصفة شدة ، ولم يستطع الصبر على الخيبة ولم يرض أن يدع الأمور إلى الزمن ويلزم جانب الإعتدال ، فعزم على أن يسعى للسلام بخوض حرب دينية في مصر والشام ، فكان بعمله هذا يمهد السبيل في القطرين لمطلع جنود الإسلام .

الفصل الرابع عشر

مسير العرب إلى مصر

عمرو بن العاص يفضي إلى الخليفة برأيه في فتح مصر ـ تردد عمر في السماح له ـ الكتب التي بعثت يطلب بها رجوعه وفتحها عند العريش ـ إقامة يوم الأضحى هناك ـ خلق القائد العربي ـ طوله وصفة جسمه ـ دحض ما قيل من وصفه بأنه تمتام ـ تاريخ حياته ـ دخوله في الإسلام وبعث النبي به على سرية من سراياه ـ قصص عدة تبين صفاته .

الظاهر أنه بعد أن سلم البطريق (صفرونيوس) الشيخ مدينة بيت المقدس سار عمر بن الخطاب الخليفة وعمرو بن العاص القائد وذهبا كلاهما نحو الشمال . وقد أرسل عمرو مدداً للعرب المحاصرين لقيصرية[1] ، وأما عمر فقد أقام في دمشق. ولعلّ عمراً قد أفضى إليه برأيه في فتح مصر منذ كانا في بيت المقدس ، ولكن الخليفة رأى أن وقت ذلك الفتح لم يحن بعد . فلما ظهر العرب وانتهت الحرب أو كادت عاد عمرو إلى عرض رأيه ، وجعل يبين للخليفة ما كانت عليه مصر من الغنى وما كان عليه فتحها من السهولة ، وقال له إنه ليس في البلاد ما هو أقل منها قوة[2] ولا أعظم منها غنى وثروة ، ثم قال إن

(١) انظر كتاب « Conquête de la Syrie» De Geoje صفحة ١٣٠ ، وقد جاء في ابن خلدون وابن الأثير أنه «لما أخذ عمر بيت المقدس سار عمرو إلى مصر» ولكن البلاذري وهو أسبق منهما وأثبت يقول إن مسير عمرو كان عند حصار قيصرية، وهو يروي رواية يفهم منها أن عمراً سار بغير علم عمر، وروى رواية أخرى أن عمراً كان في مسيره مؤتمراً بأمر الخليفة، ويروي المقريزي الروايتين معاً.

(٢) أخذنا هذا عن معجم البلدان لياقوت (الجزء الثالث صفحة ٨٩٣).

(أريطون) حاكم الروم على بيت المقدس ـ وكان قد هرب من المدينة قبل تسليمها إليهم ـ قد لاذ بمصر ، وإنه كان يجمع فيها جنود الدولة ، وإن على العرب ألا يضيعوا الوقت ، بل أن يوقعوا به قبل أن يستفحل أمره[1] ، وإن مصر بعد ذلك تكون قوة للمسلمين إذا هم ملكوها . وكان اجتماع القائد بالخليفة في (الجابية)[2] بقرب دمشق وذلك في خريف سنة ٦٣٠ للميلاد ؛ وكان العرب لا يزالون على حصار مدينة قيصرية .

وقد رأى عمر أن فتح مصر فيه خير للمسلمين ، ولكنه ظن أن عمراً يقلل من شأن ما يلقاه من الصعوبة في فتحها ، وكان في ذلك الوقت لا يستطيع أن يضعف جند الشام بأن يبعث منهم جيشاً كافياً لفتح مصر . فلما طلب منه عمرو أن يسير إلى مصر بجيش من ٣٥٠٠ أو ٤٠٠٠ رجل وعده أمير المؤمنين أن يفكر في الأمر ، فإنه كان لم يستقر على رأي في ذلك . ثم عاد عمرو بن العاص إلى قيصرية وكان قسطنطين بن هرقل قائد الجند بها . فبعث الخليفة وراءه بكتاب مع (شريك بن عبده)[3] يقول له فيه إنه قد رضي بغزو مصر ، وتقدم إليه أن يجعل الأمر سراً وأن يسير بجنده إلى الجنوب سيراً هيناً . فسار عمرو بن العاص في الليل في جيش صغير من الخيل ولم يحدث له حدث حتى صار عند الحدود بين مصر وفلسطين ، وسار بعد ذلك حتى صار عند رفح[4] وهي على مرحلة واحدة من العريش بأرض مصر فأتت عند ذلك رسل تحت المطي تحمل رسالة من الخليفة .

---

(١) الطبري نشرة زوتنبرج الجزء الثالث صفحة ٤١١ .

(٢) المقريزي نقلاً عن ابن عبد الحكم ولعل هذا أقرب مما قاله سعيد بن بطريق أن عمر كان قد عاد إلى المدينة وهناك كتب إلى عمرو يأمره بالسير إلى مصر.

(٣) جاء اسمه ذلك في المقريزي إذ قال: «ويقال إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب إلى عمرو بن العاص بعدما فتح الشام أن اندب الناس إلى المسير معك إلى مصر فمن خفَّ معك فسر به ويعث به مع شريك بن عبده». وفي الأصل الإنجليزي تحريف مطبعي لاسمه فقد ورد فيه هكذا (Sharikh. b. 'Ah dâb) . (المعرِّب).

(٤) انظر وصف هذه الأماكن فيما كتب في طبعة (Hamaker) الواقدي صفحة ١٥ وانظر كتاب =

ففطن عمرو إلى ما فيها وظن أن الخليفة لا بد قد عاد إلى شكه في الأمر خاشياً من الإقدام والمضي فيما عزم عليه ، وقد كان الخليفة كلم عثمان وأفضى إليه بما يرى من المخاطر في تلك الغزاة ، فأجابه عثمان قائلاً إن تلك الغزاة كانت عظيمة الخطر ، وزاد على ذلك أن قال إن عمرو بن العاص فيه جرأة وتهور ، وإنه لا بد يقتحم بالناس المخاطر ويرمي بهم إلى الهلكة . فخشى كانت عظيمة الخطر، وزاد على ذلك أن قال إن عمرو بن العاص فيه جرأة وتهور، وإنه لا بد يقتحم بالناس المخاطر ويرمي بهم إلى الهلكة. فخشي عمر بن الخطاب خشية عظيمة وعزم على أن يأمر ابن العاص بالرجوع إذا كان ذلك ممكنا . ولكنه أحس أن جيش العرب إذا دخل مصر كانت عودته عنها خذلاناً وسبة للمسلمين إذ يكون ذلك بمثابة الفرار من العدو ، وعلى ذلك أرسل كتابه وتقدم فيه إلى عمرو ابن العاص أن يعود إذا كان بعد في فلسطين ، فإذا كان قد دخل أرض مصر فليسر على بركة الله ، ووعده أن يدعو الله له بالنصر وأن يرسل الأمداد[1] . أما عمرو

= كاترمير «Mem. Geog. et Hist.» الجزء الأول صفحة ٥٣ وكتاب (شمبليون) «L'Eg. sous les Pharaons» الجزء الثاني صفحة ٣٠٤ وأميلنو «Geog. Copte» صفحة ٤٠٤ وكتاب أبي صالح صفحة ٧٠ وقد جاء في النص العربي للواقدي أن عمراً «ترك الصحراء وجعل الحصون التي في طريقه إلى مصر عن يمينه وهي رفح والعريش والعداد والبقارة والفرما» (صفحة ٨) ولكن هذه العبارة غير محتملة في ذاتها ولا توافقها الكتب الأخرى، وقد جاء في ابن الأثير أن عمراً عندما كان في هليوبولس أرسل أحد قواده لحصار الفرما وآخر لحصار الإسكندرية ولكن ما ذكره عن فتح مصر كله مضطرب مختلط.

(١) لعل هذه خير رواية لهذا الحادث الذي خلط فيه المؤرخون العرب خلطاً شنيعاً وقد اخترتها من بين روايات المقريزي. وأما ابن عبد الحكم ومن أخذ عنه من المؤرخين فيقولون إن عمر وافق على سير عمرو إلى مصر ثم قال له: «سأرسل إليك بعد قليل كتاباً فإذا أمرتك فيه بالرجوع فارجع إلا إذا كنت قد دخلت في أرض مصر فإذا كنت قد دخلت فيها فسر على بركة الله». وإذا صح هذا كان منهجاً من مناهج الحمقى، ولكن عمر ليس ممن يوصفون بهذا الوصف. والحقيقة بغير شك هي أن عمر وافق وهو متردد على سير عمرو إلى مصر ثم ندم على ذلك فأرسل وراءه يأمره بالرجوع إذا كان ذلك مستطاعاً بغير ضرر لاسم العرب. وقد روى ابن بطريق ثلاث روايات لهذه القصة ويمكن أن نشبهها بما رواه المقريزي.

فقد كان بدأ أمره ولم يكن بالرجل الذي ينقض ما بدأ فيه ، وعرف أن ذلك الكتاب الذي لحق به لم يأته بالرضا عما هو فيه ، ولهذا لم يأخذه من الرسول حتى عبر مهبط السيل الذي ربما كان الحد بين أرض مصر وفلسطين ، وبلغ بسيره الوادي الصغير الذي عند العريش . وهناك أتى له بالكتاب فقرأه ، ثم سأل من حوله : « أنحن في مصر أم في الشام » فقيل له : « نحن في مصر » فقرأ على الناس كتاب الخليفة ثم قال : « إذن نسير في سبيلنا كما يأمرنا أمير المؤمنين »[1] .

ولا شك في أن عمراً لقي من الناس الجواب الذي كان يرغب فيه .

ولنا هنا ملاحظة غريبة وهي أن العريش وإن كانت تعدّ عادة من بلاد مصر لا يخلو أمرها من الشك[2] ، غير أن سياق القول يدل على أنها كانت خلواً من جيش الروم مع أنها كانت مدينة ذات حصون ، وكانت أسوارها لا تزال منها بقية ماثلة بإزاء البحر إلى القرن الثالث عشر ، وكذلك كانت أطلال الكنيستين العظيمتين القديمتين . وكان يقال في ذلك الوقت إن أجود أنواع المرمر وأعظم العمد التي في القاهرة كانت تأتي من العريش[3] وما أعجب هذا ! وقد روى بعض المؤرّخين أن سور مصر العظيم كان يبدأ من هناك ويتجه إلى القلزم

---

(١) جاء في المقريزي : «قال عمرو فإن أمير المؤمنين عهد إليّ وأمرني إن لحقني كتابه ولم أدخل أرض مصر أن أرجع وإن لم يلحقني كتابه حتى دخلنا أرض مصر فسيروا وامضوا على بركة الله» . وقد أورد المقريزي روايات أخرى يصدق بعضها ما ذهب إليه المؤلف . (المعرّب) .

(٢) قد بيّن كاترمير في الفصل الأول أن الحدود كانت (الواردة) وضبطها كذلك وجاء في كتاب البلدان لليعقوبي (المتوفى سنة ٩٠٠) (Bibl. Geog. Arabe ed. de Goeje) (الجزء الثامن صفحة ٣٣٠) «يذهب الآتي من فلسطين إلى مصر أولاً إلى الشجرتين عند الحدود ثم إلى العريش في إقليم الحدود ثم إلى (البقارة) (هكذا) ثم إلى (الواردة) بين كثبان الرمل ثم إلى (الفرما) وهي أول مدينة مصرية وبعدها مدينة (جرجير) ثم فاقوس ثم مدينة (غيفة) حتى يبلغ الفسطاط .

(٣) انظر كتاب أبي صالح صفحة ١٦٧ .

(وهي السويس) ، ثم يتجه مع شاطىء النيل الشرقي إلى الجنوب حتى الجنادل الأولى . ويقال إن من بنى ذلك السور هو (سيزوستريس) وقد سماه العرب (سور العجوز) ؛ ولكنه كان قد تهدم منذ زمن طويل حتى إنه لم يعق سير الجند في القرن السابع . وقد بقيت من أطلاله إلى اليوم قطع عند جبل الطير وفي مواضع أخرى في مصر[١] .

وقد أقام جيش العرب الصغير عيد الأضحى في العاشر من ذي الحجة من عام ١٨ للهجرة وهو اليوم الثاني عشر من ديسمبر سنة ٦٣٩[٢] للميلاد ، وهو عيد القربان وعيد الحج عند المسلمين ، وكان الإحتفال غير خال من الجدّ والرونق بين هؤلاء العرب الذين كانوا يسيرون مع زعيمهم العظيم تربطهم به روابط النسب والولاء ، وذلك مع ما كانوا عليه من قلة ـ إذ كانوا لا يعدون أن يكونوا كتيبة من جند الصحراء ـ ومع عظيم ما جاءوا له إذ جاءوا لفتح بلاد الفراعنة . وكان أكثر من مع عمرو من الجند من قبيلة (عك) وإن كان الكندي يقول إن ثلث الناس كانوا من (غافق)[٣] . ويروي ابن دقماق أنه قد كان مع جيش العرب جماعة ممن أسلم من الروم وقد سماهم في كتابه ، وقال أيضاً إنه قد كان مع جيش العرب جماعة ممن أسلم من الفرس الذين كانوا باليمن ، ولعل هؤلاء جاءوا فيما بعد مع الأمداد التي بعث بها الخليفة إلى مصر[٤] .

والآن فلننصرف إلى عمرو نفسه ـ فأي رجل كان هو بين الرجال : لقد

---

(١) أبو صالح صفحة ٥٩ هامش ٤ وقد ذكر فيه (ديودور وسعيد بن بطريق وبعض كتاب العرب.

(٢) هذا التاريخ أورده ابن عبد الحكم وهو يتفق مع التواريخ الأخرى المعروفة فيمكن أن نعتبره ثابتاً وتجنباً للتكرار الذي لا حاجة إليه يجب علينا أن ندل القارىء على مقالة «عن تاريخ الفتح العربي» في آخر هذا الكتاب.

(٣) ياقوت، الجزء الأول.

(٤) ابن دقماق الجزء الرابع صفحة ٤ ـ ٥ ويقول عن هؤلاء الفرس إنهم بقية الجيش الذي كان كسرى أرسله إلى اليمن بقيادة (بازان) أو (هورزاد) انظر ما سبق ذكره في صفحة ١٧٨ هامش ٤ .

جاء في الأخبار كثير من أقواله وذكر صفاته ، وإذا نحن أردنا أن نكتب تاريخ فتح العرب لمصر كان لزاماً علينا أن نكتب شيئاً عن قائد ذلك الفتح . كان عمرو بن العاص في نحو الخامسة والأربعين من عمره في وقت غزو مصر[1] . وكان قصير القامة ، وقوي البنية ، مرن الأعضاء تعود جسمه احتمال المشقة . وقد ساعده ذلك على أن يبرز في أفانين الفروسية والضرب بالسيف ، وهي الفنون التي اعتاد أهل الفروسية في الغرب أن يقرنوها باسم العرب[2] . وكان عريض الصدر بعيد ما بين المنكبين ، له عينان سوداوان ثاقبتان سريعتا التأثر سواء أكان ذلك في حال الغضب أم في حال السرور ، وفوقهما حاجبان غزيران ، ودون ذلك فم واسع . وكان وجهه ينم عن القوة في غير شدة ، وتلوح عليه لائحة البشر والأنس ، وكان يخضب لحيته بالسواد . هذا كل ما رواه لنا المؤرخون من وصف مظهره . ولعل وصفه بأنه تمتام كان وصفاً غير صحيح . حقاً إن أبا المحاسن روى[3] عن عمرو ذلك العيب ، وقال إنه العيب الوحيد فيه . ولكنه كان معروفاً بسرعة ردّه وحدّة ذهنه في الإجابة المسكتة ، كما كان معروفاً بطول خطبه وبلاغتها فالظاهر من ذلك أن من وصفه بأنه تمتام كان واهماً ، ولعل ذلك الوهم كان أثر خلط وسوء فهم . فقد روي[4] عن عمر بن الخطاب أنه سمع مرة

---

(١) لعل هذا خير رواية عن هذا الأمر كما حاولت أن أبين في الذيل الخامس ناقضاً في ذلك قول بعض المؤرخين الذين يقولون إنه كان أكبر سناً من ذلك.

(٢) ابن قتيبة وابن خلكان وأبو المحاسن هم الذين نقلنا عنهم ذلك وكتابا المؤلفين الأولين عبارة عن قاموسي تراجم للحياة وقد ترجم ما جاء عن عمرو في كتاب ابن خلكان ترجمة (De Slane) ويصف أبو صالح (صفحة ٧٨) وصفاً آخر أو وصفين لعمرو بن العاص ولعله أخذهما عن ابن عبد الحكم.

(٣) من العجيب أننا عدنا إلى النسخة المطبوعة في دار الكتب المصرية لكتاب أبي المحاسن «النجوم الزاهرة» فلم نجد ذكراً لهذا العيب ثم وجدنا فيه وصفاً حسناً لعمرو في ترجمته في الكتاب الأول صفحة ٦٢ وما بعدها. وكل ما رويَ عنه يدل على الفصاحة والبلاغة. وقد ذكرت كلمة عمر «أشهد أن خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد» ولكنها ذكرت هناك على سبيل الدلالة على فصاحة عمرو. (المعرّب).

(٤) هذه القصة مأخوذة عن ابن حجر ولو أنه بغير شك نقلها عن كتب قبله.

رجلاً يتلجلج في الكلام فقال : « أشهد أن خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد » . وليس معنى هذا أن عمراً كان تمتاماً بل يقصد بذلك القول أن الله تعالى خلق الأبكم والمفصح كليهما . وذلك مثل ما روى عن عمرو بن العاص نفسه إذ أحرج صدره أحد الجهلاء يوماً فقال يعرض به « إنه كذلك من مخلوقات الله تعالى » . ولكن قول عمر بن الخطاب قد أخرجه جماعة من كتاب العرب عن معناه وأوّلوه بأن المقصود منه أن عمراً كان يتلجلج في كلامه . ولو قصد عمر بن الخطاب ذلك لكان قوله لا معنى له ، وفيه اعتداء على عمرو ، وذلك لا يتفق مع مكانة عمرو في قومه وما عرف عنه من الفصاحة في الكلام . ولو كان متصفاً بذلك العيب لما اختاره النبي عليه الصلاة والسلام من أول إسلامه وجعله من كبار قواده بل وما استطاع أن يكون يوماً ما زعيماً عظيماً بين الناس . وبعد ، فإن عمراً كان فوق ذلك كله إماماً يؤم الناس في صلاتهم ، وظل كذلك إلى آخر أيامه . وإن الشرع الإسلامي ينص على أنه لا يصح للتمتام أن يصلي بالناس[1] . وعلى ذلك يكون ما روي من أن عمراً كان متصفاً بذلك العيب خبراً غير جدير بالتصديق .

وأما سائر صفاته فقد جاء من أخباره وأقواله ما يدل عليها وعلى حوادث حياته . فقد كان من قريش ، ونسبه معروف[2] . وكان إسلامه في السنة السابعة أو الثامنة للهجرة . ويروى عن إسلامه خبر أو اثنان ، فقد سئل مرة[3] : « ما عاقك عن الإسلام تلك المدة الطويلة مع رجحان عقلك » ، فأجاب : إنه كان

---

(١) قد قتل خارجة بن حذافة بينما كان يصلي بالناس نائباً عن عمرو لمرضه. انظر ما جاء بعد في فصل الخاتمة وانظر ما كتبه الماوردي في الشريعة الإسلامية في كتاب الأحكام السلطانية. الباب التاسع «باب إمامة الصلاة» صفحة ١٧١ وما بعدها.

(٢) جاء نسبه في كتاب ابن قتية هكذا: عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سهم بن هصيص بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، ويضيف أبو المحاسن إلى ذلك «أبو عبدالله القرشي السهمي الصحابي».

(٣) ابن حجر.

في أول أمره يخشى سوء رأي مشيخته ، فلما كبر وميز أخذ نفسه بالهوادة في معارضة النبي . وقد أرسلت إليه قريش واحداً من قومها يسأله عن إسلامه فجعل عمرو يسائل من جاء يسأله فقال له : « أي الناس على دين الحق ـ أهم العرب أم الفرس أم الروم ؟ » فقيل له « بل العرب » فقال : « أنحن أكثر منهم مالاً أم هم أكثر منا ؟ » فقيل له : « بل هم » فقال له : « فأي فضل إذن للعرب على الفرس والروم إذا لم تكن ثم حياة في الآخرة . فإنهم قد ذهبوا بخير هذه الحياة الدنيا جميعاً » ثم قال عمرو إنه قد أسلم وآمن بالنبي واليوم الآخر وبالعقاب والثواب بعد الموت وعزم على ترك الباطل أي دين العرب القديم . وقيل إن عمراً أسلم منذ كان في الحبشة وإن إسلامه كان على يدي جعفر بن أبي طالب .

وروي في الخبر أن عمراً قال مرة للنبي : « يا رسول الله إني أبايعك على أن يغفر لي ما مضى من ذنبي » فقال له النبي : « إن الإسلام والهجرة[1] يجبان ما كان قبلهما » فكان عمرو لا يرفع عينه من وجه النبي عرفاناً منه لصنيعه وكان يقول : « والله ما كنت أملأ عيني منه أو أنظر إلى وجهة ما أردت ، إلا رأيت الحياء في وجهه »[2] .

وكان النبي عليه الصلاة والسلام يرى في عمرو رأياً حسناً ، وقد قال فيه

---

(١) ليس معنى هذا أن عمراً كان ممن هاجر، فإنه إذا كان معناها هذا كانت القصة مشكوكاً فيها.

(٢) قول المؤلف هنا مضطرب ولسنا نعرف مصدر روايته هذه. ولعله لم يحسن فهم النص العربي الذي يدل على حياء عمرو من النبي وليس حياء النبي منه. فقد جاء في كتاب «النجوم الزاهرة» لأبي المحاسن ما يلي: جاء. . . «أن عمرو بن العاص قال: يا رسول الله أبايعك على أن يغفر لي ما تقدّم من ذنبي» قال: «إن الإسلام والهجرة يجبان ما كان قبلهما» قال عمرو: «فوالله ما ملأت عيني منه ولا راجعته بما أريد حق لحق بالله (حياء منه) ». ولعل المؤلف قد رأى ترجمة لهذا القول أساء مترجمه فهمه. ويعزز هذا ما جاء في الطبقات الكبرى لابن سعد في نهاية هذا الحديث وهو قوله: «ولو سئلت أن أنعته ما أطقت لأني لم أكن أطيق أن أملأ عيني منه إجلالاً له». (المعرّب).

يـوماً : إنـه من خيـر المسلمين وأكثـرهـم ثقـة[1] ، وقـال فيـه أيضـاً : إنـه من « صالحي قريش » ، وكان يحبه لحسن رأيه ولشجاعته . وكان لعمرو أخ من أبيه اسمه هشام قتل يوم اليرموك ، وقد سئل عمرو عنه فقال : « حسبكم أن أقول إن أمـه أم حرملة عمـة عمر بن الخـطاب وأمي عنزيـة ، وكان أحب إلى أبي مني وبصر الوالد بولده ما قد علمتم ، وأسلم قبلي واستبقنا إلى الله فـاستشهد يـوم اليرموك وبقيت بعده »[2] .

وكان أكبر ما امتاز به عمرو أن النبي نفسه عقد لـه على بعض سرايـاه ، وقال له عند ذلك إنه قد أمره على الناس ودعا له بالسلامة والغنيمة . فقال عمرو عند ذلك إنـه لم يسلم للمال بـل أسلم لوجـه الله . فقال لـه النبي : إن المال الحـلال خير ما يرزأ المؤمن . وأكبر الظن أن عمـرو بـن العاص لم ينس تلك الحكمة فيما بعد . وكان على قيادة كتيبة من الكتائب في يوم السلاسل ، فأرسل يستمد النبي فأرسل إليه مائتي رجل فيهم أبو بكر وعمـر وعليهم أبو عبيـدة بـن الجراح ، فلما أقبلوا عليه قال عمرو : « أنا أميركم وأنتم لي مدد » . فقال أبـو عبيدة : « لا . بل أنا أمير على من معي وأنت أمير على من معك » . فأبى عمرو هذا فقال أبو عبيدة : « لقد قال لي رسول الله ﷺ لا تختلفا وإنـك إن عصيتني أطعتك » فقال عمرو : « فإني آبى أن أطيعك » فسلم عليه أبو عبيدة عنـد ذلك بالإمارة ووقف وراءه في الصلاة .

---

(١) جاء هذا الخبـر عن عقبة بن عـامر رواه أبـو المحاسن والنـواوي وبينهما اختـلاف قليل (المؤلف).

(٢) لعل المؤلف يشير إلى ما روي عن عقبة بن عـامر إذ قـال: قال رسـول الله ﷺ: «أسلم النـاس وآمن الناس عمـرو بن العـاص» رواه التـرمـذي. ويفهم من ذلـك الحـديث أن المقصود بآمن الناس إنما هو الإيمان لا الثقة. وقد جـاء في الأصل الإنجليـزي (Most trustworthy of men) وهو غير المقصود من الحديث على ما يظهر. (المعرّب).

(٢) هذا النص أخذناه من نسخة من كتـاب «المعارف» لابن قتيبة بدار الكتب المصـرية. (المعرّب).

وقد عقد النبي لعمرو بعد وقعة السلاسل على عمان فظل عليها حتى لحق النبي بربه . وبعد سنة أو سنتين من ذلك جعله أبو بكر أحد القواد الذين سيرهم إلى الشام ، وفي تلك الحرب نما أمره وذاع اسمه في معرفته بمكيدة الحرب والشجاعة . وقد آلمه تقديم أبي عبيدة عليه إذ أمره عمر في أول خلافته . ولكن لعل أجلى ما جاء في وصفه ما قاله هو عن نفسه دفاعاً عندما سمع أن بعض الناس يعذل معاوية على تقديمه إياه[1] .

اجتمعت بنو أمية عند معاوية بن أبي سفيان فعاتبوه في تفضيل عمرو بن العاص، وادعاء زياد بن أبيه، فتكلم معاوية ثم حرك عمراً على الكلام فقال عمرو في بعض كلامه:

أنا الذي أقول في يوم صفين:

إذا تخاذرت وما بي من خذر ثم كسرت العين من غير عور
ألفيتني ألوي بَعيد المستمر أحمل ما حملت من خير وشر
كالحية الصماء في أصل الشجر

أما والله ما أنا بالواني ولا العاني ، وإني أنا الحية الصماء التي لا يسلم سليمها، ولا ينام كليمها، وإني أنا المرء إن همزت كسرت، وإن كويت أنضجت. فمن شاء فليشاور، ومن شاء فليؤامر؛ مع أنهم والله لو عاينوا من يوم الهرير ما عاينت أو لو ولولا ما وليت لضاق عليهم المخرج، ولتعاظم بهم المنهج ، إذ شد علينا أبو الحسن وعن يمينه وشماله المباشرون من أهل البصائر وكرائم العشائر. . . فهناك والله شخصت الأبصار. . . إلخ .

فلا يسمع يومئذ إلا التغمغم من الرجال والتحمحم من الجيل الجياد، ووقع السيوف على الهام كأنه دق غاسل بخشبته على منصته. . . إلخ .

---

(1) هشام بن الكلبي هو المؤلف الذي أخذنا عنه هذه القصة. ولا شك أن هذا الحادث قد وقع في عصر متأخر من حياة عمرو وبعد فتح مصر (المؤلف).

(2) ابن خلكان س ٢٥٨ ـ ٢٥٩ الجزء الثاني طبعة ثانية (بولاق).

(وقد علمتم) أني أحسن بلاء وأعظم غناء وأصبر على اللأواء، وأني وإياكم كما قال الشاعر:

وأغضي على أشياء لو شئت قلتها ... ولو قلتها لم أبق للصلح موضعاً
وإن كان عودي من نضار فإنني ... لأكرمه من أن أخاطر خروعاً[1]

وإن مثل هذا القول ليظهر الرجل في اعتداده بنفسه ومعرفته لمقدارها. ولا شك في أن عمراً قد أظهر شيئاً من قلة التعفف في الخلاف الذي أعقب يوم صفين. فقد روى الذهبي أنه هتك ما كان معاوية يتستر به من النفاق والادعاء في أيام وقعة صفين، إذ قال: «يا معاوية أحرقت قلبي بقصصك. أترى أننا خالفنا علياً لفضل منا عليه؟ لا والله إن هي إلا الدنيا نتكالب عليها. وأيم الله لتقطعن لي قطعة من دنياك أو لأنابذنك» ولا يسع المطلع على ما كان منه في أمر التحكيم إلا أن يرى في عمله خيانة وخدعة لأبي موسى، فكان أبو موسى كلما صلى قرن دعاءه بلعن عمرو، وقد قال له مرة: «ما مثلك يا عمرو إلا كمثل الكلب، إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث» فقال له عمرو: «وما مثلك أنت إلا كمثل الحمار يحمل أسفاراً »[2].

وقال ابن حجر إن أحد أصحاب عمرو قال عنه: «ما رأيت رجلاً يعرف كلام الله معرفته ولا رجلاً أكرم نفساً ولا أشبه سراً بعلانية منه». وقال رجل اسمه جابر[3]: «لم أر رجلاً أقرأ لكتاب الله من عمر، وصحبت معاوية فما رأيت رجلاً

(١) قد حاولنا في الطبعة الأولى جهدنا أن نأتي بالنص لهذا القول فلم نوفق مع كثرة بحثنا، فاضطررنا إلى ترجمة المعنى عند ذلك ثم عثرنا بعد سنوات في أثناء المطالعة على ذلك النص عفواً في كتاب «وفيات الأعيان لابن خلكان» وها نحن نثبته هنا. (المعرّب).

(٢) روى هذا أبو المحاسن عن الذهبي.

(٣) في الأصل الإنجليزي تحريف مطبعي إذ جاء اسمه جابر هكذا (Gabiz).
روى أبو المحاسن في كتابه عمن روى عن جابر صاحب عمرو أنه قال: «. . . وصحبت عمرو بن العاص فما رأيت رجلاً أبين (أو قال) أنصع طرفاً منه ولا أكرم جليساً ولا أشبه سراً بعلانية منه». (المعرّب).

أحلم منه، وصحبت عمرو بن العاص فما رأيت رجلاً أبين ظرفاً ولا أكرم جليساً». وإنا موردون هنا خبراً أو إثنين من أخباره لندل بهما على كرم نفسه وصراحته وحبه لجمال النسق[1]: فقد لامه بعضهم مرة على أنه يركب بغلة هرمة قبيحة المنظر: فقال له «لا ملل عندي لدابتي ما حملتني ولا لامرأتي ما أحسنت عشرتي ولا لصديقي ما حفظ سري»[2] وقيل إنه وقع مرة بينه وبين المغيرة بن شعبة كلام فاغتاظ المغيرة وسبه، فقال عمرو وقد ثارت ثائرته: «يا آل هصيص! أيسبني ابن شعبة؟» فقال عبد الله ابنه وكان قريباً: «إنا لله! دعوت بدعوى القبائل وقد نهى عنها» فقبل الوالد تأنيب ابنه وأعتق ثلاثين رقبة يكفر بها عن ذلك. وسمع يوماً وهو أصغر من ذلك سناً إذ كان بالمدينة خطبة من خطب زياد فلما رأى بلاغتها قال: «لله در هذا الغلام لو كان من قريش لساق العرب بعصاه»[3].

ولو أردنا لأتينا بغير هذه الأخبار ولكن حسبنا ما أوردناه منها ففيه الدلالة على ما كان عليه عمرو بين الرجال. فإذا نحن قرنا بعض خلاله إلى بعض رأينا أنه كان قوي الجسم ذكي العقل، تجيش نفسه فتدفعه، وله قوة من عزمه كالحديد إذا عزم، وكان شجاعاً لا ينكل، ولكنه كان يؤثر الأناة ويعلم أن الرأي أول والشجاعة في المحل الثاني، وكان في أمر الدين والعبادات على تقى وصلاح. وإذا كانت مطامع هذه الدنيا غررت به في بعض أيامه وعصفت بقلبه فقد بقي فيما عدا ذلك شريفاً نبيل النفس. وكان في العلم على ما كان عليه أهل

---

(١) الأصل الإنجليزي (Musical Measure) ولا يرد ذكر لقصة تدل على حبه للغناء، فلعل قصد المؤلف جمال النسق أياً كان ولو كان في خطبة بليغة، ومثل ذلك ما ذكر بعد من إعجابه بخطبة زياد. (المعرّب).

(٢) جاءت زيادة بعد ذلك في كتاب أبي المحاسن «إن الملل من كواذب الأخلاق». (المعرّب).

(٣) هذه القصة من كتاب (اليمن) لعمارة (طبعة كاي) صفحة ٢١٩ وقصة البغلة مأخوذة من كتاب أبي المحاسن (المؤلف).

قد أخذنا النص الذي أوردناه هنا من كتاب الآداب السلطانية وهو كتاب (الفخري) لابن طباطبا المعروف بابن الطقطقي (المعرّب).

عصره، وعرف بين العرب بأنه من أحدهم ذهناً[1] ومن أكملهم عقلاً. وكان يحب الغناء حبًّا جماً ويقبل عليه ويطرب للشعر. وكان خطيباً بليغاً وله خيال خصب فاجتمعت فيه صفات المحارب والشاعر وجواب الآفاق والرجل الصالح. فكان واضح الباطن والظاهر نبيل المقاصد والفعال وكان محبباً مؤلفاً يملك قلوب الناس ويستهوي أفئدتهم شأنه في ذلك شأن عظماء الرجال الذين يخلب حبهم أفئدة الناس فإذا إعجابهم ولاء وإخلاص.

هذه صفة القائد الذي جاء في فرسان أربعة آلاف بايعوا أنفسهم على نزع مصر من يد القياصرة.

(١) مكين صفحة ٣٩. وانظر كذلك ما جاء عن عمرو في كتاب (W. Nassau Lees) وهو (Conquest of Syria. Bibl. Indica) الجزء الأول.

الفصل الخامس عشر

أول الحرب

ما فعله قيرس ـ دحض ما قيل من أن العرب إنصرفوا على جزية تعطى لهم ـ حصار الفرما وأخذها ـ السير في الصحراء إلى بلبيس ـ أخذ تلك المدينة بعد حرب شديدة ـ وصول العرب إلى (تندونياس) وهي (أم دنين) ـ مناجزات لم تسفر عن نصر ـ ما كان المسلمون فيه من الخطر ـ عزم عمرو على غزو الفيوم ـ أخذ (تندونياس) .

نذر أهل مصر بغزوة العرب وسمع المقوقس (قيرس) بسير هؤلاء الأعداء أولي البأس ، وكان قبل ذلك قد أعدّ شيئاً من وسائل الدفاع فحفر خندقاً حول حصن بابليون العظيم بقرب ممفيس ، وزاد في تحصين الحصون الأخرى ، ورمم أسوار كثير من المدائن التي كانت غزوة الفرس هدمت منها[1] . وليس من الصدق قول القائل إن (قيرس) إشترى العرب فصرفهم عنه بجزية وعدهم بها ، وقد قال هذا الخبر أو أشار إليه المؤرخ (تيوفانيس)[2] . فإنه من سوء الحظ أن مؤرخي اليونان يتخبطون في ظلمة لا

(١) هذا ظاهر من نص النبوءة في تاريخ حياة شنودة (Mem. Misc. Arch. Franc.) (الجزء الرابع (١) صفحة ٣٤٠).

(٢) (Corp. His. t. Scrip. Byzant.) الجزء ٤٤ صفحة ١٦٧ :

«ثم ساروا إلى مصر ولما سمع قيرس أسقف الإسكندرية بغزوتهم نهض واتفق معهم على صلح خوفاً من طمعهم فوعدهم أن تدفع مصر جزية قدرها ٢٠٠,٠٠٠ دينار كل عام فأنجى مصر من تخريبهم مدة ثلاث سنوات ثم اتهمه الامبراطور بأنه يدفع الذهب =

يصفون حقيقة ما كان من الحوادث في ذلك العصر ، ولا يعرفون ما كان منها أولاً وما كان منها بعد .

وأصل من (تيوفانيس) المؤرّخ (نيقفوروس)[1] وأبعد كِلا الاثنين عن الحق (الديوان الشرقي)[2]. فإنهم جميعاً لم يفحصوا الحوادث التي يصفونها ولم يدركوا حقيقتها . فلا فائدة فيها لأنها تخلط في التواريخ خلطاً فاحشاً وتقلب الحقائق وتمسخها . بل إنها قد أضلت كل من اهتدى بها من الكتاب المحدثين وقذفت بهم في المجاهل[3] . وحسبنا في هذا المقام أن نقول إنه ليس ثمة كلمة صدق

= المصري إلى العرب» ثم يورد بعد ذلك قصة مجيء منويل وحلوله محله، وسنعود إلى ذكر ذلك آخر هذا الكتاب.

(١) يقول إنه «بينما كان هرقل لا يزال في الشرق أرسل حنا قائد (برقينة) ليقاتل العرب في مصر» وهو يذكر بعض مواقع ويذكر طلب الصلح من عمرو وقد قال إنه عرض على عمرو أن يتزوج من ابنة الامبراطور ويتنصّر. ويقول إن كل هذا كان قبل أن يبارح هرقل بلاد الشام أي قبل سبتمبر سنة ٦٣٦، في حين أن العرب كانوا عند ذلك لم يفكروا بعد في غزو مصر.

(٢) جاء في هذا الديوان أن العرب عندما أتوا مصر أجلى هرقل كل الجنود الذين كانوا فيها حتى أسوان ودفع للمسلمين الجزية لمدة عشر سنوات حتى استنفد كل ما كان في الخزائن. وإنه لمن الصعب أن نعرف أي سنوات عشر يقصدها ذلك الديوان. ولعل هذه العبارة تشير إلى الشام. وإذا كان المقصود منها أن هرقل دفع عن مصر الجزية لمدة عشر سنوات كان لنا أن نقول إن هذا قول لا أساس له. ومن العجيب أن نجد النسخة المخطوطة التي في القاهرة من كتاب (ساويرس) نورد هذا الخبر عينه بلفظه إلا أنها تجعل المدة ثماني سنوات بدل عشر، والقصة التي في النسخة المخطوطة بالمتحف البريطاني بالغة حدّ السخف. وإنه من الواضح أن الكاتب القبطي للديوان الشرقي كان ينقل عن (ساويرس) ولا بد أن (ساويرس) نقل عن بعض مؤرخي اليونان قصة هذه الجزية، ولكنه لم يكلف نفسه عناء التوفيق بينها وبين ما ذكره عن غزوة العرب ولا عن اضطهاد قيرس. وهذه القصة التي تذكر فيها هذه الجزية لا ترد في أي تاريخ من تواريخ العرب.

(٣) لعل خير مثلٍ لهذا التضليل هو كتاب ليبو «Hist. du Bas Emp» فإنه لا يمكن أن يعتمد عليه من صفحة ٢٧٢ في الجزء الحادي عشر فهو يجعل حوادث (منويل) قبل غزوة عمرو. وقد ضل (Drapeyron) كذلك في كتابه «L'Empereur Herac.» (صفحة ٣٩٦) =

واحدة فيما رواه هؤلاء اليونانيون عن دفع المقوقس غزوة العرب بجزية من المال يعطيهم إياها . ولا يرد لفظ واحد يشير إلى هذا الأمر في كتاب كتبه أحد أهل الشرق سواء أكان فارسياً أم سريانياً أم قبطياً أم من العرب ، اللهم إلا (ساويرس) وقد نقل عن (الديوان الشرقي) . والقصة كلها قائمة على خطأ وقع فيه مؤرخو اليونان ، فهي صورة مشوهة ممسوخة مما وقع بعد ذلك بزمن طويل ، وسيأتي ذكر ذلك في حينه . ولم يكن لنا بد من أن نبدأ بدحض هذا القول ، وإذ فعلنا ذلك فلنمض في سبيلنا من وصف مسير عمرو في الصحراء .

غادر العرب العريش وما حولها من بساتين النخيل وساروا في الطريق إلى

= وكذلك المؤرخون الإنجليز من (جبون) إلى (بيوري) وقد أخذ ثانيهما عن (ليبو) خبر غزوة منويل (.later Rom. Emp) الجزء الثاني صفحة ٢٦٩ هامش ٣) وكذلك المستر (ملن) في كتابه (Eg. Under Rom. Rule) (صفحة ١١٥) فإنه يقول إن العرب دفع غزوهم في أول الأمر بما كان يدفع إليهم من المال، ويذكر نص ما قاله Paulus) (Diaconus (الجزء الثامن عشر صفحة ٥٧٩) في حين أن كتاب (Paul) لا قيمة له ولا يصح الاعتماد عليه. وقصته في هذا الشأن منقولة عن (تيوفانز) وهو كما بيّنا عديم الدقة في كل ما يتعلق بفتح العرب، وقد لخّص في مقال بمجلة (.Asiatic Quarterly Rev) كل ما كان يحسب تاريخاً لغزوة عمرو، لخّصه كاتب شرقي لا بأس بمقدرته وهو (س. خدابخش) يوليه سنة ١٩٠١ ، وقد قال «ولم يقابل عمرو كما يقابل العدو بل رحب به الناس كمخلص وقد كان البطريق قيرس بالاتفاق مع المقوقس، يأملان أن يدرآ شرور الحرب بدفع جزية سنوية للعرب. وكان هذا منهما سخفاً وبلاهة، ولكن هرقل أبى هذا وأرسل منويل للدفاع عن ذلك الإقليم. . . إلخ». وإنه لا يكاد يوجد بهذه العبارة حرف واحد صحيح ، ويمكن أن نقول ذلك عن رواية (أوكلي) عن فتح العرب، ولعل تلك الرواية هي السبب في أكثر الروايات الفاسدة في التواريخ الحديثة. وإنك لتجد في (درابيرون) مثالاً لما يمكن أن تؤدي إليه هذه الآراء الفاسدة عن قيرس وهذه الأخبار الكاذبة عن الجزية إذا ما وصلت إلى كاتب واسع الخيال، فإنه يذكر أن قيرس وهذه الأخبار الكاذبة عن الجزية إذا ما وصلت إلى كاتب واسع الخيال، فإنه يذكر أن قيرس كان «سورياً ماكراً» استطاع أن يوقف غزو العرب عند برزخ السويس بأن دفع جزية مقدارها ٢٠٠,٠٠٠ دينار استدين بعضها باسم المقوقس! (انظر كتاب L'Empereur (Heraclius صفحة ٣٩٦).

الغرب بعيدين عن البحر ، فإن الطريق بعد العريش تسلك قطعة من الصحراء تتخللها بعض عيون وقرى ، وهي الطريق القديمة المؤدية إلى مصر ، شهدت من قدم مصر قبل أن يلوح فجر العمران ، كما شهدت مقدم إبـراهيم ويعقوب ويـوسف وقمبيز والإسكنـدر وكليوبتـره[1] وأسرة المسيـح ، ثم وطأتهـا جيوش الفرس في غزوتها منذ حين . وكانت فوق ذلك في كل الأوقـات طريق التجـار وأهل الأسفار والحـاج تتردد عليهـا القوافـل بين آسيا وأفـريقيا . وقبـل أن تبلغ الطريق مدينة الفرما ببضعة أميـال تنحـدر إلى الشمـال الغربي فتقتحم الكثبـان وهي التلال المتنقلة من الرمال ولـم يلق العرب أحداً من جنود الروم حتى اقتربوا من المدينة .

ومـدينة (بلوز) اسمهـا بالقبـطية (بـرمون) ويسميهـا العرب (الفـرما) وكانت على نهد من الأرض على نحو ميل ونصف من البحر ، وكان لهـا مرفـأ لعله كان متصلاً بالمدينة بخليج يجري من البحر . وكـان فرع من النيـل اسمه الفرع (البلوزي) يهوي إلى البحر بقربها . وكانت مدينة قديمة قوية الحصون بها كثير من آثار المصريين القدماء كما كان بها كنائس وأديرة[2] ، وكان لها شأن كبير إذ كانت مفتاح مصر من الشرق تشرف على طـريق القادم من الصحـراء ، وتملك ناصية البحر ويجري إليها فرع من النيل يؤدي إلى مصر السفلى . ومع كل ذلك فالظاهـر أنها لم تكن منيعـة فإن الفـرس وقد كـانوا مبـرزين في فنون الحصار لم يعانوا مشقة كبرى في فتحها ، ولعلهم دكـوا أسوارهـا وخرجـوا من حصونها كما خربوا كنائسها . ولكن الروم نذروا بمجيء العرب منذ زمن ، ولقد كان في استطاعتهم إذا شاءوا أن يرمموا ما تهدّم من أسوارها .

---

(١) حنا النقيوسي ٤٠٧ .

(٢) انظر كتاب «أبي صالح» صفحة ١٧٦ وما كتبناه هناك تعليقـاً ويمكن أن نضيف هنا أن قبرجالينـوس الطبيب بـالفرمـا كما ذكـر الاصطخـري (Bibl. Geog. Arab. ed. Goeje) (الجزء الأول صفحة ٥٣) وفي الوقت الحاضر توجد في موضـع الفرما تلال حمراء يمكن أن تظهر عن بعد من قناة السويس، وتوجد بعض أطلال أبنية يقال إنها رومانية وإننا لنرجو أن يكشف موضع هذه المدينة كشفاً علمياً.

ولم يكن عند العرب الذين جاءوا مع عمرو شيء من عدّة الحصار ، ولم يكن لهم علم بطرقه ، وما كانـوا ليستولـوا على المدينـة إلا بالمهـاجمة وفتـح الأبواب ، أو بالصبر عليها إلى أن يضطر الجوع أهلها أن ينزلوا إليهم . وليس لنا علم بعدد جندها ، ولكن من الواضـح أن العرب كـانوا فئـة قليلة ، فما كـانوا ليقدروا على حصارها من كل جوانبها ، فكـانت مسلحتها تهبط إليهم بين حين وحين لقتالهم . واستمرت الحرب متقطعة مدة شهر ، ويقول أحد المؤرخين[1] بل شهرين ، ثم خـرج إليهم جنودهـا مرة ليقـاتلوهم ، ولما عـادوا لائذين إلى مدينتهم تبعهم العرب فملكوا الباب قبل أن يغلق ، وكان أول من اقتحم المدينة من العرب (أسميقع بن وعلة السبائي)[2] . وقد روى المقريزي وأبو المحاسن أن قبط الفرما ساعدوا العرب أثناء الحصار ، ولكن ذلك غيـر صحيح ، ولعـل هذا رجوع إلى القصة القديمة التي تعـزو إلى القبط ظلماً مساعدتهم للفرس . ولم يرد ذكر لهذه المساعدة في كل ما كتب قبل القرن الرابـع عشر . ولعـل ما ذكرناه من أخذها عنوة يكفي لتفنيد هذا الزعم . ولـو ساعـد القبط العرب لما أحرق هؤلاء السفن وهدموا الحصن[3] ، ولما فعلوا ما فعله الفرس من قبلهم من

---

(١) جاء في ياقوت أن المدّة كانت شهرين وأما ابن بطريق والمقريزي وسواهما فيقولون إنها كانت شهراً.

(٢) الكندي ونقل عنه السيوطي (المؤلف).

(٢) وصحة الرواية ليست عن الكندي ونقل عنه السيوطي مباشرة، بل إن القضاعي نقل عن الكندي وأخذ السيوطي قول القضاعي في كتابه (حسن المحاضرة) وقد جاء فيه ما يلي: «وقد لخّص القضاعي في كتابه الخطط قصة فتح مصر تلخيصاً وجيزاً فقال ومن خطه نقلت: لما قدم عمرو بن العاص. . . كان أوّل موضع قوتل فيه الفرما قتالاً شديداً نحواً من شهر ثم فتح الله عليه. قال أبو عمرو الكندي: كان أول من شد على باب الحصن حتى اقتحمه اسميقع بن وعلة السبائي واتبعه المسلمون فكان الفتح . (المعرّب).

ملاحظة: جاء في الأصل عقب ذكر ابن وعلة هنا. «وقد روى عنه المقريزي» ولكنا لم نجد لهذا الرجل رواية نقلها أحد عنه والظاهر أن المؤلف لا يشير إليه بقوله «وقد روى عنه المقريزي» بل يشير إلى الاسم الذي جاء في الهامش وهو الكندي. (المعرّب).

(٣) راجع النسخة المخطوطة بالمتحف البريطاني من كتاب (ساويرس) (صفحة ١٠٥). وقد =

تخريب الكنائس الباقية في الفرما[1] . ولنا فوق ذلك دليل آخر على كذب هذا الزعم وهو ما قاله (حنا النقيوسي)[2] في ديوانه ، وكان حنا من الأحياء قرب ذلك العهد . قال : إن القبط لم يساعدوا المسلمين إلا بعد أن استولوا على الفيوم وإقليمها . ولسنا ندري على التحقيق في أي وقت كان هذا ، ولكن من الجلي أنه لم يكن إلا بعد فتح حصن (بابليون) ولم تكن تلك المساعدة إلا مساعدة قليلة لا تعدو بعض الأمور .

فلما ملك العرب الفرما صار في أيديهم معقل يؤمن لهم الطريق المؤدية إلى بلادهم ، ويضمن لهم سبيل الرجوع إذا نزلت بهم هزيمة . وقد فطنوا بعد فتح الفرما إلى ما هم مقبلون عليه من الأمر الخطير إذا أتيح لهم فتح حصن بابليون والإسكندرية العظيمة ، ولا بد أن يكون عمرو قد أدرك أنه لن يستطيع شيئاً إذا لم يوافه عمر بن الخطاب بما وعده من الأمداد ، وكان يعرف أن الأمداد لن تستطيع أن تخلص إليه إلا عن طريق الفرما[3] . ولم يكن معه من الجند من

= أعيد بناؤها فيما بعد ولم تدمر نهائياً إلا على يد بلدوين الأول إذ دمرها قبل تقهقره في سنة ١١١٨ للميلاد.

(١) أبو صالح ، صفحة ١٦٨ .

(٢) صفحة ٥٥٩ وإن (Weil) الذي ينقل هذا ويبالغ فيه ضد القبط في كتابه (Geschichte der Chalifen) لم ير كتاب (حنا النقيوسي) وهو على أي حال مصنف وليس بالباحث أو الناقد في تاريخ ذلك العصر.

(٣) هذا الرأي ينقض قوله ابن خلدون العجيب إذ يقول: «فحاصر العرب عين شمس (هليوبولس) وأرسلوا أبرهة بن السفاح لحصار الفرما وعوف بن مالك لحصار الإسكندرية». (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب). . . إلخ (ملحق الجزء الثاني صفحة ١١٤) ولكن رواية ابن خلدون لا يصدقها أحد، فهو مثلاً يقول إن أول موضع أتى إليه هو (باب اليون) ومن هناك يقول إن عمراً سار إلى مصر. فهو يخلط بين الفرما وبابليون ثم بعد ذلك يجعل عين شمس موضع حصار طويل فهو يخلط بينها وبين بابليون كذلك. والظاهر أنه نقل عن عدة كتب مخطوطة، ولعله صححها بغير أن يفهم شيئاً من تاريخ تلك المواضع أو مواقعها. ويقول ابن الأثير: «وأول موضع فتح هو بابليون ثم سار عمرو إلى مصر» (انظر طبعة تورنبرج الجزء الثاني صفحة ٤٤٠).

ويجدر بنا أن نذكر هنا أن المقريزي يروي عن سيف بن عمر أنه قد أرسلت من =

يقدر على أن يخلفه في المدينة ليحرسها ، وعلى ذلك لم يكن له بد من هدم أسوارها وحصونها حتى لا يستفيد بها العدو لو عاد إلى تملكها . ولسنا ندري ما كان يصنعه الروم في هذه الأثناء ، فأغلب الظن أن (قيرس) كان موقناً أن المسلمين لا بد لهم أن يسيروا إلى مصر بعد أن تخلص لهم الشام ، وأن الأمر واقع لا محالة . فكان الحزم يقضي عليه أن يقيم الأرصاد والربط في الصحراء ، حتى أكناف العريش على الأقل ، حتى يأتيه العلم بمسير القوم إليه في حينه ، ليستطيع التعبية ويسير للقائهم بمن معه جميعاً عند الفرما . ولو أرسل الروم عشرة آلاف من جندهم ليقاتلوا عمراً أثناء سيره ، أو جمعوا ذلك الجيش تحت حصن المدينة ، لما عجزوا أن يهزموا تلك الفئة القليلة من أعدائهم العرب . على أن ذلك لو حدث لما حال بين المسلمين وبين فتح البلاد أمداً طويلاً . ولكن الروم لم يصنعوا من ذلك شيئاً ، بل اعتمدوا على من في المدينة من الجند في أمر الدفاع عنها . وقد يقال إن العرب قد بغتوهم في أول الأمر ، وإنهم لم ينذروا بمسيرهم عند ذلك ، ولكن الروم لم يتحركوا في أثناء الحصار وقد لبث شهراً ، فلم يبعثوا أحداً لنجدة المدينة أو تخليصها . فكان قعودهم عن الفرما وإسلامهم لها أول ما إرتكبوه من خطأ في تلك الحرب ، وقد كانوا يستطيعون إتقاء هذا . وعلى ذلك يصح لنا أن نقول إن ذلك القعود كان أول ما ارتكبه (قيرس) من خيانته العظمى لدولته ، فلعله كان عند ذلك قد عزم على أن يعمل على فصل بطرقة الإسكندرية وشقها عن القسطنطينية بالإتفاق مع العرب وإعانتهم على دولته . ولسنا نجد غير الرأي ما نفسر به مسلكه ولا سيما ما وقع منه بعد ذلك .

كان عند ذلك قد مضى نصف شهر يناير من عام ٦٤٠ للميلاد وذلك العام الميلادي يكاد يتفق مع سنة[1] ١٩ من الهجرة ـ ثم سار عمرو في سبيله ولم

= عين شمس سرية إلى الإسكندرية ولكن يظهر أن مثل هذه السرية تكاد تكون مستحيلة، ولو كانت ممكنة لكانت عملاً في نهاية الحمق من الوجهة الحربية.

(١) أول عام سنة ١٩ للهجرة هو ٢ يناير سنة ٦٤٠ وآخرها يوم ٢٠ ديسمبر سنة ٦٤٠.

ينقص عدد جيشه إذ لحق به من البدو من عوّض عليه الذين قتلوا في المناجزة الأخيرة أو لقد زاد عليهم ، وقد لحق به هؤلاء البدويون حباً في القتال وطمعاً في الغنيمة[1] . وسار من السبخة التي حول الفرما إلى أرض تليها يغطيها رمل قد خالطه الصدف الأبيض حتى بلغ مدينة (مجدول) القديمة[2] ، وهي في الجنوب الغربي من ألفرما . ومن ثم سار إلى موضع يقع على قناة السويس مكانه الآن (القنطرة) ، وفي ذلك الموضع تصير الأرض فدفداً صلباً يغطيه المدر تعترضه مواضع ينبت فيها العشب ـ أو غياض من ماء أجاج ينبت فيه القصب والغاب . وقد لزم العرب جانب الصحراء ، ولعلّهم قصدوا إلى مدينة الصالحية ، مخالفين في ذلك أكثر من عداهم من فاتحي مصر . فإن قمبيز مثلاً سلك طريقاً أخرى إذ ضرب إلى الغرب من بعد الفرما إلى (سنهور) و (تانيس) ومن ثم إلى (بوباستيس) في مصر السفلى[3] . ولكن في وقت غزو العرب كانت مياه بحيرة المنزلة قد طغت على ما حولها فأصبحت الطريق من هناك صعبة المسلك ، وكان جيش عمرو كله من الفرسان ، ولم يكن عندهم شيء من وسائل بناء القناطر على الترع والأنهار . ثم سار عمرو من الصالحية أو

---

(١) قال المقريزي إن قبيلة راشدة وبعض قبائل لخم لحقت بعمرو عند جبل الجلال وقد جاء في أخبار القرن السابق على هذه الحوادث أنه في سنة ٥٦٥ مر القديس انتونيوس الشهيد بهذه الطريق في حجه إلى الأماكن المقدسة ورأى هناك صنماً عظيماً للعرب يقيمون له عيداً في جبل (هريب) وذكر القبائل المغيرة وضربها في الصحراء بقرب (فرا) ولعلها هي الفرما (انظر كتاب (Pal. Pil. Text Soc.) (الجزء الثاني صفحة ٣٠ ـ ٣). وأما قبائل لخم فكانت غير عربية (انظر ابن دقماق الجزء الرابع صفحة ٥).

(٢) الظاهر أن (Jacques de Vitry) يقصد (مجدول) في قوله: «ووراء الفراميا (الفرما) مدينة أخرى قديمة في الصحراء بقرب الساحل» ولكنه كثير الخلط إذ يقول بعد ذلك «وبعدها مدينة بلبيس وهي التي تسمى (بلوز) وهي على خمسة برد من الساحل» (انظر Pal. Pil Text Soc. الجزء الحادي عشر، صفحة ١٤).

(٣) حنا النقيوسي صفحة ٣١٢ والأسماء العربية الحديثة لهذه البلاد هي (سنهور) و (صان) و (تل بسطة) أو الزقازيق.

(القصاصين) إلى الجنوب فاجتاز تلال وادي الطميلات[1] في موضع قريب من مكان اشتهر اليوم بوقعة كانت فيه وهي وقعة التل الكبير . فلما خرج من الوادي لم يبقَ دونه إلّا سير هين حتى يبلغ بلبيس .

وقد بدا من الروم في ذلك الموضع شيء من المقاومة ، وكانت طلائعهم قد خرجت ترقب قدوم العرب من الصحراء ، ولكنها لم تحاول إلا مناوشة ليس فيها كبير قتال . والظاهر أن قصة بعث المقوقس باثنين من الأساقفة وهما أبو مريام (أو أبو مرتام) وأبو مريم لمفاوضة العرب لم تكن سوى قصة بعث بها الوهم[2] . فلم يكن بين الأساقفة أحد بتلك الأسماء ، ولعل تلك القصة لم تنشأ إلا من الخطأ العظيم الذي وقع فيه مؤرّخو العرب عندما قرأوا أخبار هذه الحوادث ، وقد اختلطت فيها حوادث التاريخ بالخرافات اختلاطاً فاحشاً ، ومسخها النساخون عند نقلهم منها لم يتحرّوا فيها الدقة . ولكننا مع ذلك نستطيع أن نقول إنه قد جاءت جماعة عليها أحد الأساقفة ، وإنهم فاوضوا عمراً في ذلك الوقت . ويقول الطبري فوق هذا إن عمراً طلب إلى القبط أن يساعدوا المسلمين لما كان بينهم وبين العرب من قرابة في النسب إذ تجمعهم (هاجر) . ولكن القبط قالوا إن هذه قرابة ما أبعدها ، فأمهلهم عمرو أربعة أيام ليأتوا إليه بما استقروا عليه ، ولكن ما كان قائد الروم لينظر في مثل هذا القول . ولعل ذلك القائد الذي يسميه العرب أرطبون وصحة اسمه (أريطيون) هو نفسه

---

(١) هذه العبارات من (ساويرس) (النسخة المخطوطة بالمتحف البريطاني) صفحة ١٠٥ ونقل عنه أبو صالح صفحة ٧١ ولا أرى تلالاً أخرى هناك يمكن أن يقصدها غير تلال وادي الطميلات. وقد جاء في النسخة الخطية التي بالقاهرة أنهم أخذوا التلال «الجبل» وقد يكون معنى ذلك أنهم ساروا في الصحراء.

(٢) يظهر أن ابن الأثير صاحب هذه القصة وقد بحثتها ونقضتها في ذيل الكتاب في الباب الذي أفردته بالمقوقس (المؤلف).

ولكن هذه القصة موجودة في غير ابن الأثير فمثلاً نجدها في تاريخ ابن جرير الطبري وهو قبل ابن الأثير ولكنه يجعلها عند ذهاب العرب إلى قصر بابليون. (المعرّب).

حاكم بيت المقدس[1] ، وكان قد هرب إلى مصر كما رأينا قبيل تسليم المدينة لعمر بن الخطاب . وقد عزم أريطيون قائد جيش الروم على أن يناجز العرب ، فلم يشعروا في اليوم الثاني بعد المفاوضة إلا وقد بيتهم بياتاً شديداً . ولكن الدائرة دارت عليه فهزم وتمزق جيشه[2] . غير أن العرب لبثوا عند بلبيس مدة شهر جدت في أثنائه قتال كثير وقتل من العرب فيه عدد ليس بالقليل ، ويقال إن الروم خسروا ألف قتيل وثلاثة آلاف أسير[3] .

وصار عمرو بعد ذلك على مسيرة يوم من مفترق فرعي النيل ، فمر بمدينة (هليوبولس) سائراً على جانب الصحراء ، ثم هبط إلى قرية على النيل اسمها (أم دنين) وكانت إلى الشمال من حصن (بابليون) ، وموقعها اليوم في قلب (القاهرة)[4] . ولكن جيش الروم كان عند ذلك قد تنبه إلى الخطر ، وما كان

---

(١) انظر ما سبق في صفحة ٢٢٧ وظاهر في الاسم تحوير (أريطيون) إلى (أرطبون). وقد ذكر أبو المحاسن الاسم الصحيح .

(٢) ابن خلدون .

(٣) هذه الحقيقة هي كل ما يمكن تصديقه من القصة الطريفة قصة أرمنوسة ابنة المقوقس التي ذكرها الواقدي فإنه يذكر أنها كانت في طريقها إلى قيصرة لِتُزَفَّ إلى قسطنطين بن هرقل، فلما علمت أن قيصرية قد حاصرها العرب عادت إلى مصر بما كان معها من الخدم والمال، فما وصلت إلى بلبيس حتى جاءتها جيوش عمرو وحاصرتها وقيل إن عمراً أكرمها وأعادها إلى أبيها بما كان معها من الجواهر. ولا حاجة بي إلى إضاعة الوقت في تفنيد سائر ما جاء في هذه القصة فإن مجرّد العلم بأن المقوقس كان بطريق الإسكندرية كاف لدحضها. وقد جاءت القصة في كاترمير (Mem. Hist. et Geog.) (الجزء الأول صفحة ٥٣). وقد بنى عليها القس المحترم (ش. هـ. بوتشر) روايته التاريخية «أرمنوسة المصرية». ويجدر بنا هنا أن نذكر أن أبا صالح قال إن «أرمنوسة» هي الاسم المصري القديم لمدينة أرمنت (صفحة ٢٧٩). وقد ذكر ابن عبد الحكم بغير دقة أنها امرأة المقوقس وذكر كرماً كان لها أغرقته فصارت منه بحيرة مريوط وإنه لمما يؤسف له أن هذه القصص التي يمليها خيال ألف ليلة وليلة مما يجب علينا إبعاده عن التاريخ .

(٤) نظن أنه ليس من شك في أن هذا الموضع الذي يسميه العرب (أم دنين) هو الذي يسميه (حنا النقيوسي) (تنونديس) فإنه إذا أزيل الحرف الأول منها وهو دليل على المؤنث في =

ليرضى أن تقع تلك القرية في يد الغزاة وهي موضع حصين يجاوره مرفأ على النيل فيه سفن كثيرة ، وفي ذلك ما فيه من القيمة في الحرب . وكان أمير الجيوش الرومانية في مصر واسمه (تيودور) رجلاً نكولاً عاجزاً في الحرب ، ولم يتبين له إلا عند ذلك أن تلك الحرب لم تكن غارة من غارات البدو بل كانت حرباً مخطرة . ولعل (قيرس) المقوقس حاكم مصر وبطريق الإسكندرية الإمبراطوري أسرع عند ذلك مع (تيودور) إلى حصن بابليون وجمعا فيه جنداً ليعبئا فيه جيشاً لحرب العرب . وكانت في أم دنين مسلحة قوية ، ولهذا كان في استطاعة الجيش الرومي الأكبر الذي في الحصن أن يهبط في أي وقت شاء إلى العرب ثم يعود إذا شاء إلى حصنه آمناً وراء أسواره العظيمة . ومضت على ذلك أسابيع عدة في مناوشة وقتال خفيف ، لم يؤذ الروم أذى كبيراً ولكنه قلل من عدة المسلمين بمن كان يقتل منهم ، ولا سيما وقد أجهضهم القتال من قبل حتى صاروا في قلة لا تستطيع إتمام ما جاءت له من الفتح .

والحق أن عمراً كان عند ذلك في حرج مخطر . وكان قد أرسل يتجسس البلاد وعرف أنه لن يستطيع أن يفتح حصن (بابليون) أو أن يحاصره بمن بقي

= اللغة القبطية صار التشابه بين الاسمين عظيماً. وقد أخطأ زوتنبرج (صفحة ٥٥٧ هامش ٢) بأن جعل (تنونديس) إلى جنوب حصن بابليون فإن سياق الخبر يجعل ذلك غير محتمل. ولكن قد جاء في ياقوت والمقريزي صراحة أن (أم دنين) هي المقس على الضفة الغربية للخليج (خليج تراجان) وعلى نهر النيل، ويقول المقريزي إنها كانت ميناء مصر في وقت الفتح. ومن المعلوم أن المقس كان في الموضع الذي فيه اليوم حديقة الأزبكية وقد كان النيل عند ذلك يجري بجوار حصن بابليون ودير (أبي سيفين) فكان مجراه إلى شرق المجرى الحالي بكثير وكان بعد مروره بالكبش يتجه شمالاً إلى ذلك الموضع (المقس). وعلى ذلك فقد كان الحصن الروماني (تنونديس) هناك قرب الأزبكية ومعه ميناء مصر ومراسيها، وكان هناك ميدان القتال الذي حدث. ولعل اسم (تنونديس) مشتق كما ذكر المسيو (كزانوفا) من اللفظ القبطي ⲦⲀⲚⲦⲰⲚⲒⲀⲤ, وقد كان الاسم العربي صدى لذلك الاسم الذي لم يفهم معناه. وليس من العجيب أن يكون النيل قد غير مجراه هكذا في مدة اثني عشر قرناً. وإن ابن دقماق لا يترك في ذلك الأمر شكاً (انظر كذلك كتاب Cairo للأستاذ (لين بول) خريطة في صفحة ٢٥٦) .

معه من الناس ، بل رأى أنه لن يستطيع فتح مدينة مصر ، وكانت متصلة بالحصن تكاد تحيط بجوانبه . وكان المسلمون قد جاءوا إلى مصر راغبين في القتال واثقين في شجاعتهم وحسن بلائهم في الحروب ، غير أنه لم يلقوا فوزاً متصلاً في جميع المواقف الأخيرة كما كانوا يتوقعون . وكان عمر بن الخطاب قد وعدهم بالأمداد فأرسل عمرو إليه يستحثه على إرسالها ، ولكنها أبطأت عنه ، وكان كل يوم من أيام إبطائها غنماً لأعدائه ، حتى أصبحت كفتا الحرب مترددتين ، وخيل إلى الناس أن النصر في إحداهما لا يدري أحد أيتهما ترجح[1] . ولكن ذلك الخطر ما كان ليرد القائد العربي عن قصده ، فلم تكن من شيمته أن ييأس أو يفرَّ ، فلما رأى أنه لن يستطيع فتح حصن بابليون بمن معه وهو ما كان يرمي إليه ، عزم على أن يسير إلى وجه آخر كان فيه من الجرأة . ولم يكن ذلك سوى إقليم الفيوم ، وهو إقليم خصب على نحو خمسين ميلاً إلى الجنوب في الجانب الغربي للنيل ، وهو العدوة القصوى ، ولم يكن له على ذلك بد من أخذ (أم دنين) ، ولو لوقت ما . فعوّل على أن يفعل ذلك مهما لقي في سبيله . ولسنا نعلم كيف أخذ ذلك الموضع ، ولكنا نعلم أنه كلّف من معه من الناس مشقة كبرى . نعلم ذلك من قصة تروى عن ذلك العصر[2] ، إذ قيل إن عمراً رأى جماعة يخيمون في القتال ، فجعل يذمرهم ويحثهم ، فقال

---

(١) ويقر كتاب العرب بذلك فيقول المقريزي «إنه قد كان قتال شديد عند (أم دنين) وإن الفتح أبطأ على المسلمين». وجاء في كتاب أبي المحاسن قول أشد من هذا «كان قتال شديد ولم يدر الناس لمن تكون الغلبة». (المؤلف).

(١-) راجعنا كتاب أبي المحاسن فلم نجد إلا اللفظ نفسه «فأبطأ عليهم الفتح» ولعل المؤلف اطلع على ترجمة فيها تصرف. (المعرّب).

(٢) لم نعثر على مصدر يعزو هذه القصة إلى وقعة أم دنين، ولم يذكر المؤلف مصدره الذي أخذ عنه هذا وكل ما عثرنا عليه يدل على أنها وقعت في قتال العرب مع الروم وكان المقوقس حاصراً فيه. فأغلب الظن أن ذلك كان أثناء حصار بابليون. وبعض المؤرخين يذكر صراحة أن تلك القصة وقعت أثناء الحرب في عين شمس ومن هؤلاء ابن الأثير. (المعرّب).

له رجل منهم : « إنا لم نكن (حجارة)[1] أو حديداً » فقال له عمرو : « أسكت فما أنت إلا كلب » فقال الرجل : « إذن فأنت أمير الكلاب » فكان جوابه هذا باعثاً على ضحك من حوله وأعرض عنه عمرو فلم يجازه على ذلك .

ولكن مهما كان من أمر القتال وشدته فقد أتم العرب ما قصدوا إليه وأخذوا (أم دنين) ، فملكوا بذلك منزلاً على النيل جعلوا فيه مسلحة منهم ، واستطاع عمرو أن يأخذ من السفن ما يكفي بقية جنده لاجتياز النهر[2] .

---

(١) هذه زيادة عن النص الإنجليزي زدناها إذ هي تتفق مع الاصطلاح العربي وقد جاءت في كتاب «النجوم الزاهرة». (المعرّب).

(٢) نجد أن ديوان (حنا النقيوسي) عمدتنا الأعظم يبدأ هنا بوصف حركات العرب مع أنه لا يذكر شيئاً قبل ذلك عن أول غزو العرب. ومما يؤسف له أن ذلك الجزء الذي أغفله يقع فيه تاريخ حكم هرقل كله من أول توليته إلى هذه النقطة. وإنه لمن أعظم الخسائر أن تضيع كل الصحائف التي فيها وصف حروب الفرس والاحتلال الفارسي لمصر وسني الاضطهاد الأعظم العشر وإن ما بقي بعد ذلك مختلط مشوه الترتيب. ومن المؤكد أن بعض فصول الكتاب أقحمت في غير مكانها وأن بعض الجمل قد نقلت من موضعها في بعض الفصول وأن التكرار والحذف في بعض المواضع يزيد الحيرة والارتباك. ولكن يظهر أنه لا شك في أن غزوة الفيوم حدثت في الوقت الذي وصفناه وعلى الصورة التي أوردناها وليس ذلك موجوداً في أي كتاب عربي. حقاً إن السيوطي ذكر نقلاً عن ابن عبد الحكم على ما يظهر أن عمراً بعد فتح مصر أرسل جرائد الخيل إلى القرى التي حولها، ولكن الفيوم بقيت سنة لا يعلم المسلمون عنها شيئاً (حسن المحاضرة صفحة ٨٥) وهذا نقض لما جاء في كتاب حنا، ولكننا لا نتردد في أن نأخذ عن الكاتب المصري الذي كتب في القرن السابع. وأما البلاذري (وقد كتب في القرن التاسع أي بعد حنا بمائة وخمسين سنة) فإنه يجعل فتح هليوبولس وفتح الفيوم والأشمونين والصعيد كلها بعد سقوط حصن بابليون (فتوح البلدان صفحة ٢١٧) ولكن الخطأ واضح فيما يخص هليوبولس، ويمكن أن نقيس عليه خطأ مثله فيما يتعلق بسواها. وقد ذكر كاترمير خبر المقريزي الذي رواه عن ابن عبد الحكم عن فتح الفيوم (Mem. Hist. et Geog.) الجزء الأول صفحة ٤٠٧ وما بعدها.

الفصل السادس عشر

وقعة هليوبولس

غزوة عمرو في إقليم الفيوم ـ موقع الروم ـ فتح البهنسا ـ مقتل حنا قائد المسلحة ـ سير الروم من (نقيوس إلى (بابليون) ـ يلقى عمرو وبعض الإخفاق في غزوته ثم يعود ـ وصول أمداد المسلمين ـ إجتماع جنود العرب عند هليوبولس ـ سير جيوش الروم من (بابليون) للمناجزة ـ خطة عمرو ـ هزيمة الروم ـ عودة العرب لأخذ (أم دنين) وفتح الفيوم ـ معاملة قواد الروم .

سار عمرو بمن معه إلى الجنوب بعد أن عبروا النهر سالمين ، وكان سيرهم بجوار المزارع حتى بلغوا (ممفيس) . وكانت تلك المدينة القديمة قد اضمحل أمرها منذ بناء الإسكندرية ، ولم يبق منها اليوم باق ، على أنها كانت في وقت غزوة العرب لا تزال أطلالها ماثلة في الموضع الذي كانت فيه عاصمة لدولة الفراعنة ، وكانت فيها مساكن عدة لا تزال آهلة . وكانت في الجانب الآخر من النيل مدينة نما أمرها وزاد سكانها حتى لقد كان يطلق عليها اسم ممفيس[1] أحياناً ، وتلك هي مدينة مصر ، وكان أكثرها إلى جنوب حصن

---

(١) قد ورد ذكر آثار ممفيس في كتاب ابن الفقيه (القرن العاشر) إذ سمع من أحد الشيوخ المعمرين عن قصر عظيم من كتلة واحدة من الصخر، وقد علق على ذلك تعليقاً غريباً إذ قال: «وممفيس مدينة فرعون لها سبعون باباً وأسوارها من الحديد والنحاس» (Bibl. Geog. Arab) (الجزء السادس صفحة ٥٨ و٧٣) وقال اليعقوبي (وهو قبله بقليل) إن «مدينة ممفيس متهدّمة» وقد كانت المدينة التي حول قصر الشمع محلة مصرية قديمة فقد وجدت بها آثار فرعونية وكان عند الباب الجنوبي للحصن تمثال مصري معروف ووجدت =

بابليون . ولعل العرب رأوا عند ذلك لأول مرة وهم في الجانب الغربي للنيل مدينة مصر واضحة تشرف عليها صروح حصن بابليون سامقة فوق ماء النهر من وراء جزيرة الروضة . وإن نفساً كنفس عمرو لا بد أن تكون قد ثارت بها سورة الشجون إذ يرى عن يمينه الأهرام ، وعن يساره نهر النيل وحصن بابليون ، وحوله أطلال ممفيس . وأما من كان معه من الناس فأكبر الظن أنهم ما كانوا إلا غزاة البادية يسيرون بين آجام النخيل لا يعبأون إلا قليلاً بما حولهم من آثار الحضارة الغابرة ، ولا يلتفون إلى ما دونهم من بناء الروم أو البيزنطيين .

وأما سيرهم فليس لدينا علم بيِّن بوصفه . وكان حاكم مدينة بيوم (الفيوم) اسمه (دومنتيانوس) . وأما حاكم الإقليم فاسمه (تيودوسيوس) ، وكان عند ذلك مع حاكم الإسكندرية (أنستاسيوس) في بعض بلاد مصر السفلى بقرب (نقيوس) ، ووكل أمر الدفاع عن الإقليم إلى (حنا)[1] قائد كتيبة (الخفر) ، وهي كتيبة من أهل البلاد . وكان تحت إمرته رجل آخر اسمه (حنا الماروسي) . وقد وضع الجنود عند ثغور الفيوم التي يدخل إلى الإقليم

= حجارة في أسوار الحصن عليها نقوش هيروغليفية وكان اسم المدينة «مصر» ولكن الظاهر أن «مصر» و «منف» كانا يستعملان مترادفين في بعض الأحوال فقد قال عبد اللطيف: «وتوجد الآثار التي بمصر القديمة وهذه المدينة بجوار الجيزة التي وراء الفسطاط وكانت مسكن الفراعنة ومقر ملوكهم» (ed. G. White) (صفحة ١١٧) ولفظ مصر له معنى في إطلاقه فمثلاً «المصران» استعملها ابن خلكان يقصد الكوفة والبصرة بمعنى (المدينتين) (انظر طبعة de Slane) (الجزء الرابع صفحة ٢٠٤) ولكنه في مصر كان عادة يطلق على المدينة التي على الجانب الشرقي للنيل في جوار حصن بابليون.

(١) جاء في (زوتنبرج) (صفحة ٥٥٤ هامش ١) أن حنا هذا هو حنا حاكم برقة أو برقينة الذي جاء ذكره في (نيقفوروس) ولقد بينا أن أخبار غزوة العرب في كتاب نيقفوروس ليست جديرة بالاعتماد (صفحة ١٨٤) ومع ذلك فقد كان حنا هذا رجلاً كبير الشأن ولدينا ما يحملنا على الظن أنه كان مرسلاً من قبل هرقل ولقد كان هو بعينه «قائد الرديف» الذي أتى بنص المذهب الجديد موفداً من (سرجيوس) إلى (قيرس) وهو الذي حمل مع هذا النص الصليب الذي جاء ذكره في (حنا النقيوسي) انظر ما سبق في صفحة ٢٤٨ وهامشها.

منها ، وحرست حراسة حسنة ، وأقام الروم ربيئة لهم في حجر اللاهون[1] ليرصد العدو ويعرف أخباره ومسيره ، ويحمل أنباء ذلك إلى (حنا) وكان مقيماً قرب شاطىء النهر . ثم أرسلت سرية من الفرسان والرماة إلى العرب لتحول بينهم وبين السير ، ويلوح لنا أن جنود العرب لم يقووا على أن يخلصوا ممن لاقاهم من الروم ، فعدلوا إلى جانب الصحراء وجعلوا يستاقون ما لاقوا من النعم ، فأخذوا منها عدداً عظيماً ، وما زالوا كذلك حتى بلغوا مدينة اسمها البهنسا ففتحوها عنوة وقتلوا من وجدوا بها من رجال ونسوة وأطفال[2] . ثم سمع عمرو بأن (حنا) كان يسير وراءه في قلة خمسين من فرسانه يرقبون سيره ، فبعد به عمن وراءه من جنده ثم كر عليه مباغتاً . فلما رأى (حنا) ذلك وأن الخطر محدق به أراد أن يعود سريعاً إلى عسكره في (أبويط)[3] ، وهي واقعة على

(١) إذا أردت معرفة أخبار هذا الموضع فارجع إلى كتاب الدكاترة «Hunt and Grenfell» وهو «Fayoum Towns and their Papyri» (صفحة ١٣ شكل ١٨) واللاهون على بحر يوسف على نحو عشرة أميال من مدينة الفيوم وكانت عند مدخل الوادي الذي بين الجبال المحيطة بكورة (أرسنويه) وكانت موضعاً ذا شأن في الأمور الحربية للدفاع عن الإقليم (انظر المسعودي صفحة ٣٨٥ ـ ٦).

(٢) لم يكن من مذهب العرب ولا مما يوصيهم به الدين والخلفاء أن يقتلوا طفلاً أو امرأة ـ ولعل ذلك خطأ من (حنا النقيوسي) دفعه إليه كرهه لأعداء بلاده ودينه، ولو حدث شيء من ذلك لما تردد مؤرخو العرب في وصفه فإنهم لا يدعون شيئاً إلا وصفوه حتى ولو كان شديداً عليهم. (المعرّب).

(حنا النقيوسي صفحة ٥٥٥) ويجب أن نصدق خبر المذبحة ولم تكن بمخالفة لقانون الحرب في تلك الأيام وسنجد أمثلة غيرها من نوعها. والبهنسا المقصودة هنا هي في كورة الفيوم بالطبع وليست البهنسا المعروفة التي في موضع المدينة القديمة Oxyrhynchus فقد كانت تلك على بعد خمسين ميلاً إلى الجنوب من بعد بهنسا الفيوم (انظر أميلنو « Geog. Copte » صفحة ٣ . (المؤلّف) .

(٣) موضع (أبويط) غير معروف فيقول (زوتنبرج) إنها هي المدينة المعروفة بذلك الاسم في إقليم (Lycopolis) (أسيوط) ولكن هذا محال إذ أن هذا المكان في جنوب البهنسا وقد بيّن أميلنو في كتاب (Geog. Copte) (صفحة ٣) أن هناك موضعين باسم (أبويط) والمدينة المقصودة هنا لا بد أن تكون في مديرية بني سويف في الوقت الحالي وهي قريبة من (بوصير كوريدوس) في الشرق من حجر اللاهون.

النيـل على مسافـة قليلة من موضعـه ، فكان يسيـر بجنوده في الليـل ويكمنون بالنهار في النخيل والآجام . ولكن عمراً علم بمكمنه إذ دلـه عليه أحـد شيوخ البدو[1] ، فحاصره ومن معه وقتلهم فلم يدع منهم أحداً . فقتل في ذلك (حنا) قائد الكتيبة ووكيله لأن العرب لم يتخذوا منهم أسرى .

فلما بلغ القائد (تيودور) نبأ هذه النكبة بكى وأعول ، ثم هب بعد ضياع الـوقت فحشـد من دونـه من الجنـود وبعث بهم صعـداً في النهـر إلى جـزيـرة (الكيون) ، ثم أسرع (أنستاسيوس) و (تيودوسيوس) بالعودة من (نقيوس) إلى حصن (بابليون) ليساعدوا من به ، وأرسلوا من الحصن سرية جعلوا عليها قائداً اسمه (ليونتيوس) إمداداً للعسكر في (أبويط) . فلما بلغ (ليونتيـوس) مضـرب العسكـر في (أبـويط) وجـد المصـريين حيـال العــرب ، ووجـد أن (تيودور) قد لاذ بجنوده في مدينة الفيوم ، يخرج منها بين حين وحين فيهـوى إلى العرب في البهنسة يقاتلهم . وكان (ليونتيوس) رجلاً سميناً خاملاً لا علم لـه بالحـرب ، فخيل إليـه أن العرب لن يلبثـوا أن يهزمـوا ويخرجـوا من ذلـك الإقليم ، ولهذا خلف نصف جنده مع (تيودور) وعاد بالنصف الآخر إلى حصن (بابليون) ليروي لأولي الأمر فيه ما شهده .

ولا شك أن العرب لم يستطيعوا فتح مدينة الفيوم ، وأنهم عادوا أدراجهم إلى الشمـال منحدرين مـع النهر ، وكـان (تيودور) قـد أمر بـالبحث عن جثة (حنا) وكانت قـد ألقيت في النهر ، فـانتشلها النـاس في شبكة ، ثم حنـطت ووضعت على سرير وحملت في النيل إلى حصن (بابليـون) تحيط بها آيـات الحزن ، ومن ثم بعثوا بها إلى هرقل[2] . وقد حزن الإمبراطور لهزيمة (حنا)

---

(١) جاء في ترجمة زوتنبرج «رئيس الشيعة» ولكن الدكتـور شارل يتـرجمها «رئيس عصـابة اللصوص» ولا شك أن المقصود بذلك أهل الصحراء المغيرين.

(٢) وهذا الحادث يدل على أن حنا كان موفداً من قبل الامبراطور نفسه لغرض معين وكـان (تيودور) بغير شك يعتمد على مقدرة حنا في الحرب ولذلك اهتم اهتماماً عظيماً لموته. وقد بينا فيما سبق (صفحة ٢١٥ هامش ١) البراهين المباشرة على أن حنا كان هو الذي جاء يحمل نص المذهب الجديد وأرسل معه الامبراطور صليباً له قداسة عظمى.

وقتله حزناً شديداً وبعث إلى القائد (تيودور) يظهر له موجدته وغضبه عليه ، فعرف ذلك القائد أن الإمبراطور لم يغضب عليه إلا أن وشي به (تيودوسيوس) و (أنستاسيوس) ، وأبلغا الإمبراطور عنه أنه السبب في قتل (حنا) ، ومن ثم وقعت في نفسه عداوة شديدة لهذين الرجلين .

ولكن العرب لم يعودوا من الفيوم منذ أحسوا بالفشل وحده . فلعمري لقد يكون ابن العاص أتم في غزوته تلك أكثر مما كان يطمع فيه . فقد أخرج جيشه من مأزق وقع فيه عند (أم دنين) ، وانتقل به إلى موضع أكثر أمناً ، ولقي في غزوته فوزاً كثيراً ونصراً في مواطن عدة ، وإن لم يحرز انتصاراً عظيماً ، وشغل جنده مدة فقطع عليهم مدة الانتظار إذ جاءته الأمداد بعد ذلك بعد أن طال إبطاؤها عليه ، فلما بلغه نبأ مجيئها عاد أدراجه بالمسلمين ليلقوها . أما (تيودور) فإنه جاء كذلك إلى الشمال مع جنوده إلى حصن (بابليون) ، وقد اجتمع به الجند من كل جهات مصر فأصبح فيه جيش عظيم .

وكان أول مسير عمرو إلى الفيوم نحو أول شهر مايو ، وقضى في غزوته بضعة أسابيع أضاعها الروم ضياعاً بل خسروا فيها خسارة كبرى ، وغنم العرب فيها غنماً عظيماً . ولعل قدوم أمداد المسلمين التي بعث بها عمر بن الخطاب كان في السادس من شهر يونيه[1] ، والتقى الجميع قريباً من هليوبولس ، وكان الأمير على المدد الزبير بن العوام ابن عمة النبي وصاحبه وأحد رجال الشورى الستة ، وكان معه أربعة آلاف رجل . ثم جاء في عقبه كتيبتان كل منهما من أربعة آلاف رجل ، فكان جميع من جاء من الأمداد إثني عشر ألفاً[2] . وقد علم

---

(١) قد بيّنا في مقالنا «تاريخ فتح العرب» أن الرواية القبطية تجعل هذا التاريخ يقع في وقت غزو العرب لمصر وعلى ذلك لا يمكن أن يتفق مع مجيء عمرو الأول إلى مصر ويمكن أن يكون هذا تاريخ مجيء جيش الامداد.

(٢) اختلف الرواة في عدد الأمداد فقال ابن عبد الحكم إنها كانت ٤٠٠٠ ، وقال البلاذري إنها ١٠,٠٠٠ أو ١٢,٠٠٠ ، وقال ياقوت ١٢,٠٠٠ وأورد المقريزي نقلاً عن الكندي خبراً رواه يزيد أن جيش عمرو كان ١٥,٥٠٠ وتفصيل ذلك أن جيشه الأول كان ٣,٥٠٠ ثم زاد ١٢,٠٠٠ ، وقال السيوطي على اليقين إن الامداد جاء إرسالاً إلى أن بلغ =

الـروم أن النيـل يعلو في مجـراه العميق في وسط الصيف ، ولهـذا أرادوا أن يناجزوا المسلمين بمن اجتمع منهم قبل أن يفيض النهر ، ولكنهم عجزوا كـل العجز عن أن يحولوا دون إجتماع جيوش المسلمين المتفرقة ، مع أنهم كـانوا يملكون حصن بابليون ، وكان نهر النيل في يـدهم ، وعادوا إلى مسلحـة (أم دنين) فملكوها . فلو كان عندهم علم بالحرب وحزم في الرأي لاستطاعوا أن يمنعوا عمراً من العبور إلى الجانب الشرقي ، فكانوا يجعلونه بذلك في معـزل عمن جاء يمده ، ولعلهم كانوا يستطيعون بذلك القضاء عليه .

ولكنهم لم يفعلوا ذلك مع كل ما كـان لديهم من ميـزة عليه ، واستـطاع عمرو أن يعبر النهر إما عنوة وإما على غرة منهم . وأغلب الظن أنه عبر النهر في موضع أسفل من موضع (أم دنين) إلى الشمال منهـا ، لأن ترعـة (تراجـان) كانت عند ذلك مطمومة منذ أهمل أمر حفرهـا وكريهـا ، ولم تكن لتعوق سيـر العرب حتى في وقت فيض النيل . وكـان عمرو قـد علم بأن أمـداد المسلمين سائرة في طائفتين ميممة شـطر (عين شمس) وهي (هليوبـولس) ، وعلم أن مقامه في الجانب الغربي مخطر[1] . والحق أنه فزع خوفاً من أن يفطن الـروم

= ١٢,٠٠٠ وهذا ما رآه المقريزي . وقال إن كتيبة منها كانت مع الزبير وعددهـا ٤,٠٠٠ وهذا يفسر السبب الذي جعل مؤرخي العرب يقولون إن الامداد كلهـا كانت ٤,٠٠٠ ، ومن العجيب أن (حنا النقيوسي) يقول إنها كانت ٤,٠٠٠ ويزيد على ذلك أن قائدها كان اسمه (والواريا) وكان أسود وهو من الهمـج ولا نستطيـع أن نعرف الاسـم المقصود على أنه قد كان منهم قائد أسود وهو عبادة في إحدى الكتائب . وقال زوتنبرج إن (والواريا) هذا تحـريف ظاهـر، وقال يـاقوت إن كـلاً من عبـادة بن الصـامت، والمقـداد بن الأسـود، ومسلمة بن مخلد كان على ألف رجل وإن الزبيـر مثلهم وإنه لا يـوجد نـوع من الخلط إلا وقع فيما كتبه العرب وعلى ذلك فليس عجيباً أن نرى المقريزي يؤجل وصول الأمداد وهي ١٢,٠٠٠ مع الزبير ـ إلى الوقت الذي كان العرب يحاصرون فيه حصن بابليون.

(١) قد وقع نقل وتشويه في عبارة الفصـل الثاني والستين من كتـاب حنا فجعله غيـر ممكن الفهـم (صفحة ٥٥٦). وقد جاءت فيه عبارة تشير إلى السير لفتـح الفيوم وهي: «فتركوا المدن الحصينة واتجهوا إلى موضع اسمه «تنونديس وساروا في النهر»، ثم جاءت بعدها عبارة تشير إلى فتـح مصر. والجملة التي بعد ذلك تشير إلى الرجوع من الفيوم . وإنا في =

إلى الأمر فيحولوا بينه وبين الإتصال بالمدد الذي جاء به الزبير ، ولكن (تيودور) ضيع الفرصة على عادته ، فلم يضرب الضربة القاضية ، واستطاع عمرو أن يسير للقاء المدد ويبلغ عسكر المسلمين في هليوبولس وقد إمتلأت قلوب أصحابه عزة وبشراً بما وفقوا إليه من الفوز في غزوتهم .

كانت هليوبولس في الأزمنة القديمة إحدى مدن مصر الكبرى واسمها (أون)[1] . ويتردد ذلك الاسم في قصص موسى ، وكان لا يزال باقياً يطلقه القبط عليها في القرن السابع ، ويفيد ذلك الاسم معنى (مدينة الشمس) . ولا شك أن اليونان أخذوا ذلك المعنى فجعلوا اسمها عندهم (هليوبولس) . وقد احتفظ العرب كذلك بذلك المعنى فجعلوا اسم الموضع (عين شمس)[2] . وكانت هذه المدينة معروفة بعظمة آثارها كما كانت معروفة بأنها قبلة لأهل العلم وكعبة للدين . ولما زارها (سترابو) قبل ذلك الوقت بستة قرون كان الناس هناك يدلونه على المواضع التي كان أفلاطون يتلقى فيها العلم من قبل . على أن الزمن عند ذلك كان قد غير المدينة وجرّت صروفه وحروبه وحصاراته ذيل العفاء على أكثر معابدها وتماثيلها . فلما أتى العرب لم يكن باقياً من مجدها القديم إلا قليل من أسوار مهدمة ، وتماثيل (لأبي الهول) قد دفن نصفها تحت الثرى ، وعمود واحد مما يعرف (بالمسلة) ولا يزال باقياً إلى اليوم ذكرى من ذلك العالم الغابر .

وكانت المدينة على نهد من الأرض، يحيط بها قديماً سور غليظ لا يزال أثر منه باقياً إلى اليوم[3] . ولم يكن لها خطر في الحرب في ذلك الوقت ،

= أشد الحاجة إلى ترتيب لجمل النص على يد ناقد بصير. ولكن على كل حال يمكن أن ندرك مما جاء في هذا الوصف أن عمراً كان يحس قلقاً من الحال التي كان فيها.

(١) كتب شامبوليون الأصغر تعليقاً على هذا الموضوع:

(14. 63. PP ii t. Les Pharoans sous L'Eg.)

(٢) الظاهر أنه قد غلب الاسم الجديد (المطرية) على الاسم القديم (عين شمس) والموضع معروف للسياح من أجل شجرة العذراء والعين التي استراحت الأسرة المقدسة بجوارها.

(٣) جرت العادة أن يقال إن هليوبولس هي (أون) ولكن الخريطة الحديثة الحربية تجعل =

ولكنها كانت تستطيع المدافعة ، وكـان فيها مـاء كثير، وتصلح لإمداد الجيش بالمؤونة ، ولهذا إتخذها عمرو مقراً وجعل يتجهـز منها لمـا هو مقبـل عليه من القتال . وقد وصفنا فيما سلف من قولنا مقدم (تيودور) إلى حصن بابليون وأنه جعل يحشد فيه الجنود من بلدان مصر السفلى ، ولكن لعله ما أتم حشد الجيش الـذي كان يستـطيع بـه قتال العـرب والخروج بـه إلى عين شمس حتى كانت الأمداد التي بعث بها عمر بن الخطاب قد بلغت عمرو بن العاص ، فأصبح بها أميراً على جيش عدته خمسة عشر ألفاً ، من بينهم طائفة من أكبر فرسان الإسلام وشجعـانـه[1] . ولسنـا نعـرف عـدد الجيش الـذي حشـده الـروم إلا بـالـظن والحدس . وقد عرفوا حق المعرفة ما كان عليه عدوهم من الشجاعة ، فقد سمع قبطي مرة وهو يقول : ما أعجب أمر هؤلاء العرب ، فإنهم أتوا إلى مصر في قلة من الناس يريدون لقاء الروم في كتائبهم العظيمة ! فأجابه آخر من القبط : إن

= (أون) في موضع تل اليهودية وهليوبولس في موضع تل الحسن. وآثار تل اليهودية على نهد من الأرض يحيط بها سور ساذج من اللبن، في حين أنه لا يزال في تل الحسن سور قوي علوه عشرون قدماً، ولا بد أن عمراً قد ضرب عسكره في الموضع الأخير فإن تل اليهود على إثني عشر ميلاً إلى الشمال بعد ذلك. وقد علا كل سطح ذلك السهل بضعة أقدام منذ القرن السابع ويدل على ذلك العمق الذي توجد فيه المسلة اليوم والعمق الذي توجد فيه الآثار الأخرى تحت مستوى سطح السهل.

(١) ذكر ابن عبد الحكم كما جاء في كتاب أبـي المحاسن الأسمـاء الآتية للصحـابة الـذين شهدوا فتح مصر وهم (من المهاجرين): عمرو وابنه عبد الله والـزبير وعبـد الله بن عمر وسعد بن أبـي وقاص (وهـذا مختلف فيه) وخـارجة بن حـذافة وقيس بن أبـي العـاصي السهمي والمقداد بن الأسود وعبد الله بن سعد بن أبـي سرح ونافـع بن عبد قيس الفهري وأبو رافع مولى رسول الله وابن عبدة وعبد الرحمن وربيعة ابنا شرحبيل بن حسنة ووردان مولى عمرو.

ومن الأنصار: عبادة بن الصـامت ومحمد بن مسلمـة وأبو أيـوب خالـد بن يزيـد وأبو الدرداء عويمر بن عامر ويسمى عويمر بن يزيد. وقد أتى نفس الكاتب بأسماء أخرى ممن شهد الفتـح، ومن هم أقل من هؤلاء ذكراً بين العرب (انظر: النجوم الـزاهرة في ملوك مصر والقاهرة) نشرة (Juynbollet Matthes (Lugd. Bat 1885-61 .

هؤلاء قوم لا يتوجهون إلى أحد إلا ظهروا عليه حتى يقتلوا عن آخرهم[1] . وتروي قصة أخرى وهي أن الروم كانوا لا يقدمون على القتال ويقولون : ما لنا من حيلة في قوم غلبوا كسرى وهزموا قيصر في بلاد الشام . على أن هذه القصص قد جاءت عن طريق العرب ، وإنا نشك كثيراً في صحة القصة الأخيرة ، فإن الروم كانوا أكثر عدداً وإن جيوشهم التي كانت على قدم القتال لم تكن أقل من عشرين ألفاً ـ عدا من كان في الحصون .

كانت خطة عمرو أن يجعل الروم يخرجون إليه فيقاتلونه في السهل وهم بعيدون عن حصن بابليون ، فلما أحس (تيودور) من نفسه القوة جعل يناجز العرب ، وسار إليهم بجيوشه نحو (هليوبولس) ، وكانت على مسافة ستة أميال أو سبعة من عسكر العرب . وكان على الخيل (تيودوسيوس) و (أنستاسيوس) ، ولكن أكثر الجمع كانوا رجالة بعضهم رماة وبعضهم يحملون الرماح . وكانت ربيئة العرب قد أسرعت فحملت إلى عمرو ما عزم عليه الروم ، فاستطاع أن يوجه جنوده إلى مواضعها ويعبئهم للقتال . فسار هو من هليوبولس مع أكثر الجمع من العرب للقاء الروم، ولكنه أرسل تحت الليل كتيبتين : إحداهما إلى (أم دنين) ، والأخرى وعليها خارجة بن حذافة إلى مكان واقع إلى الشرق ، ولعله كان في ثنية الجبل[2] بقرب الموضع الذي فيه اليوم قلعة القاهرة . فكان سير الروم على ذلك بين هذين الكمينين من العرب ، وكان عمرو قد أمرهما أن يهبطا على جانب جيش الروم ومؤخرته إذا ما سنحت لهما الفرصة[1] .

---

(١) أبو المحاسن صفحة ٨.

(٢) ولعل هذه هي الحادثة التي ذكرها المقريزي في غير موضعها حيث يقول إن عمراً أرسل ٥٠٠ فارس بقيادة (خارجة بن حذافة) وأمرهم أن يكمنوا فيهبطوا على العدو إذا خرج من بين الأديرة. قال: «فساروا بالليل ودخلوا مغار بني وائل قبل الصباح» فلما بدأت الوقعة بعد الفجر نزلوا على مؤخرة الروم بغتة وأكملوا ما بدأ من اضطرابهم واختلال أمرهم.

(٣) يقول (زوتنبرج) إنه لا يستطيع فهم الموقعة نظراً للمسافات التي بين هذه المواضع وقد ـ

وخرج الروم بين البساتين والأديرة التي كانت إلى الشمال الشرقي من الحصن وانتشروا في السهل[1] وكان ذلك في الصباح الباكر ولم يكن عندهم علم

= أخطأ بجعل تنوندس (أم دنين) إلى جنوب بابليون بدل أن يجعلها في شمالها. ولا شك أن (حنا النقيوسي) جعلها أبعد إلى الشمال الغربي ولهذا يقول إن المكان الآخر في شمال بابليون ولكنا فيما عدا الاعتراضات الأخرى لو وضعنا كمين عمرو في جنوب بابليون لجعلنا خطته في منتهى الجهالة في حين تكون كتيبة أخرى من جيشه في الشمال ومعظم جيشه في هليوبولس. وفوق ذلك كان حصن بابليون. ومعسكر الروم يسدان الطريق الذاهب إلى الجنوب. ولو قلنا إن عمراً ذهب إلى لقاء العدو ولم يبق في عسكره لانتظاره هناك لذهب الاعتراض ببعد المسافة. ولقد نسي (زوتنبرج) فوق هذا أن النيل كان يجري في موضع شرقي مجراه الحالي بكثير. فإذا نحن وضعنا كميناً عند (أم دنين) (الأزبكية) وآخر عند القلعة أو الجبل الأحمر صارت خطة الموقعة واضحة. ولنا كلمة أخرى فقد كانت هليوبولس قديماً تغطي مساحة أكبر مما يمكن تصوره اليوم وهذا واضح ليس فقط من الأطلال الباقية بل من شهادة ابن دقماق إذ يقول صراحة: «وكانت عين شمس في الزمن الماضي مدينة عظيمة متسعة متصلة بمصر القديمة التي في موضع الفسطاط في الوقت الحاضر» (الجزء الخامس صفحة ٤٣) ومعنى هذا أنه لا بد قد كانت المسافة بين أرباض المدينتين قصيرة على أن أرباضهما كانت عبارة عن منازل وكنائس متفرقة.

(١) يظهر لمن يطلع على هذا الوصف الذي وصفنا به موقعة عين شمس أنها على اختلاف كبير مع ما جاء في الطبري (انظر زوتنبرج، الجزء الثالث، صفحة ٤٦٣) فقد جاء في الطبري: (١) إن الوقعة كانت بعد فتح حصن بابليون. (٢) إن المقوقس كان مع جيش القبط في عين شمس وقد أزمع السير إلى مصر. (٣) إن جيش عمرو سار إلى أبواب عين شمس. (٤) إن جيش القبط تشتت عند أول صدمة وخسر عدداً عظيماً بين قتيل وأسير. (٥) إن العرب غنموا غنيمة عظيمة وأرسلوا الأسرى إلى المدينة. وإنه ليكون من الإسراف أن نكذب خبراً مثل هذا الخبر المفصل، ولكنا فوق ما نشعر به من ضرورة الأخذ بما جاء في كتاب حنا الذي كان قريباً من ذلك العهد يظهر لنا أن الطبري قد أخطأ خطأ في وصف البلاد فإن وصفه للوقعة صحيح ولكنها لم تكن وقعة عين شمس. والدليل على هذا (١) ترتيب الحوادث فإن هذه الوقعة لا يمكن أن تكون بعد فتح مصر في حين أن مواقع أخرى يمكن أن تقع بعد ذلك وقد وقعت فعلاً بعد فتح مصر. (٢) الطبري نفسه يكشف عن خطئه بوصفه عين شمس بأنها كانت «مدينة عظيمة في بلاد القبط وأنها واقعة =

بمكيدة عمرو بل رأوا أنه كان يسير إليهم في جمعة آتياً من هليوبولس . ثم حدث اللقاء بعد ذلك ولعله كان في مكان وسط بين معسكري الروم والعرب عند الموضع الذي اسمه اليوم (العباسية) . وكانت كل من الطائفتين موقنة بأن ذلك اليوم سيكون يوم الفصل في أمر مصر ، فكانت كل تقاتل قتال المستميت . فلما حمى وطيس القتال وعض الناس على النواجذ أقبلت كتيبة خارجة تهوي من مكمنها في الجبل ، كأنما هي عاصفة تجتاح مؤخرة الروم . فلما رأى الروم أنهم قد أخذوا بين جيشين من عدوّهم ، وقع الفشل في صفوفهم ، واتجهوا بعض الإتجاه إلى يسارهم نحو (أم دنين) ، فلقيهم الكمين الآخر فظنوا أنه

في الغرب» ومعنى هذا إما أن يكون أنها في غرب النيل أو في غرب مصر السفلى ، ولكن عين شمس لا يمكن أن توصف بأحد هذين الوصفين. وعلى ذلك فالظاهر أن الوصف السابق إنما هو وصف بعض المواقع التي كانت فيما بين بابليون والإسكندرية وقد وقعت في الغرب وسيأتي ذكر هذا فيما يلي .

وقد كانت غلطة الطبري سبباً في خلط كثير من مؤرخي العرب مثل ابن الأثير وابن خلدون (وقد كان الطبري غريباً عن مصر لا يعرف كثيراً من وصف بلدانها) وهذا مثل جديد من الأمثلة الدالة على ما يجده الإنسان من الخلط في وصف حوادث هذا العصر حتى في خير الكتب المعتمدة والدالة على ما يجب على المؤرخ الذي يعالج وصف هذا العصر من التمحيص والمقارنة. ولكنا نرى أن هناك سبباً بسيطاً في مثل هذا الخطأ الذي يقع فيه سوى هذا من المؤرخين العرب، فإنا إذا وجدنا أن ابن الأثير يذكر أن قواد العرب حاصروا عين شمس ويقول إن (الزبير) تسورها (وسترى أنه إنما تسور قصر الشمع) نجد أنفسنا حيال خلط شبيه بما سبق ذكره، وسبب كل ذلك اسم (بابليون). فإن العرب أو بعضهم فهموا ذلك الاسم على أنه باب ال (أون) أو (باب أون) و (أون) هي عين شمس (الاسم العربي لهليوبولس). ومن هنا نشأ الخلط بين المكانين فإن البلاذري يذكر أن الفسطاط كانت عند الفتح اسمها (أيون). وقال المؤرخون بعد ذلك ان اسمها كان (اليون) وأخذوا ذلك اللفظ على أن معناه (أون) وهي (عين شمس) فبنى على هذا الخطأ أنه قد حوصرت عين شمس ونقلت الحوادث من بابليون إليها. وفي رأينا أنه لم يسبق أحد إلى هذا التفسير وأنه يفسر كثيراً من الصعاب التي نلقاها في تواريخ العرب وقد أسيء فهم اللفظ الروماني (بابليون) فصار في صور متعددة مثل (باب اليون) ومدينة (ليون) و (قصر اليون) و (باب اللوق) و (لونيا) و (أيون).

جيش عربي ثالث . فانتثر نظامهم وحلت بهم الهزيمة ، ففروا لا يلوون على شيء يطلبون النجاة من سيوف العرب وهي تلمع كأن وميضها وميض البرق . فاستطاع الأقل منهم أن يبلغ الحصن براً فيلوذ به ، وكثير منهم ساقهم الفزع إلى النهر فنزلوا في السفن وعادوا إلى الحصن ، ولكن طائفة كبيرة هلكت . واستولى العرب بعد إنتصارهم على (أم دنين) مرة أخرى ، وقد قتل في الوقعة كل من كان بها من الجنود إلا ثلثمائة . ولاذ كل من نجا من الروم بحصن (بابليون) وأغلقوا عليهم الأبواب ، ولكنهم منذ علموا بما أصاب إخوانهم الروم من القتل حملهم الخوف على أن يتركوا الحصن فساروا في النهر إلى (نقيوس) .

وليس في الأخبار ما يذكر عدد القتل من الجانبين ، ولكن من المعروف أن أمير الجيش (تيودور) والحاكمين (تيودوسيوس) و (أنستاسيوس) لم يقتلوا . على أنه قد بقي من الروم فئة لا بأس بها اجتمع إليها من كان في الحصن في أثناء القتال ، فصارت منهم جميعاً مسلحة قوية تستطيع الدفاع عنه . ولكن النصر أفاد العرب فوائد جمة ، فقد أصبحت مدينة مصر في قبضة يدهم بغير قتال ، وكانت من قبل يحميها الجيش الذي في الحصن[1] ، وأصبحوا يملكون ناصية شاطىء النهر من ناحيتي الحصن من أعلاه ومن أسفله ، ونقلوا عسكرهم من هليوبولس فضربوه في شمال الحصن وشرقه بين البساتين والكنائس ، وذلك هو الموضع الذي صار يعرف بالفسطاط فيما بعد . وقد صار جيش العرب بعد ذلك النصر كافياً لحصار (بابليون) لا يعوقه عائق من التضييق عليه ، بعد أن قضى على جيش الروم فلم تبق منه إلا الفلول التي لاذت بالحصن أو هامت على وجهها في بلاد مصر السفلى . ولما بلغت أنباء نصر العرب إلى الفيوم غادرها من بها من المسالح ، فخرج (دومنتيانوس)

---

(١) عنوان الفصل الخامس والستين من ديوان حنا هو «كيف استولى المسلمون على مصر في السنة الرابعة عشرة من الدورة القمرية» ولكن لم يرد وصف للاستيلاء في ذلك الفصل وهذا مثل من مائة مثل مما يدل على نقص الكتاب وتغيير مواضع أخباره.

عندما علم بذلك من المدينة في الليل وسار إلى (أبويط) ، ثم نزل في النهر بجنوده وجدّ هارباً إلى (نقيوس) ، ولم يخبر أهل (أبويط) بما كان منه من ترك الفيوم لأعدائه لا دافع عنها أحد . ولما بلغ نبأ (دومنتيانوس) وهربه إلى عمرو بن العاص بعث كتيبة من جنده عبروا النهر ، وفتحوا مدينتي (الفيوم) و (أبويط) ، وأحدثوا في أهلها مقتلة عظيمة وأصبح ذلك الإقليم تحت الحكم الإسلامي منذ ذلك الحين .

ولما قضى عمرو بذلك على كل من وقف له من الفيوم ، وخلص له أمرها، أرسل جنوده إلى موضع اسمه (دلاص)[1]، رآه أصلح المواضع للنزول من النهر إلى ذلك الإقليم ، وأصبح العرب بذلك إلى حين سادة النهر ، وكان هذا أثراً عظيماً من آثار النصر . غير أن الروم كانوا لا يزالون يملكون جزيرة الروضة وهي جزيرة ذات حصون تتصل بحصن بابليون ، تسير بينهما السفن والقوارب ، وبقيت الأسفار على ذلك في النهر على عادتها يكاد لا يعوقها عائق ، لأن العرب لم يكونوا من أهل البحار ، إذ لم يحذقوا بعد تسيير السفن ، وكانوا في شغل بما هم فيه من القتال والفتح في الأرض . وعاد عمرو فأمر جرائد الخيل بالعودة إليه[2] ، وكان أنفذهم يجوسون خلال البلاد بعد وقعة عين شمس. ثم أمر (أبا قيرس)[3] حاكم دلاص أن يمدّ المسلمين الذين كانوا بالفيوم

---

(١) كانت (دلاص) على الضفة الغربية للنيل في جنوب (ممفيس) وهي إلى شرق مدينة الفيوم وهي بالقبطية (تيلوج) وباليونانية (نيلو بولس) (انظر كتاب أميلنو «Geog. Copte» صفحة ١٣٦).

(٢) جاء في السيوطي نقلاً عن ابن عبد الحكم «بعد إتمام فتح مصر (مدينة مصر) أرسل عمرو جرائد الخيل إلى القرى المجاورة «وجاء في ديوان حنا عند وصف الوقت عينه «فجمع جنوده ليرسلها في وجوه مختلفة» وهذا اتفاق واضح .

(٣) وهذا هو (أبا كيرى) (الذي جاء ذكره في ديوان حنا صفحة ٥٥٩) وقد حار (زوتنبرج) في ذلك الاسم فقال «وليس من المؤكد أن يكون هذا اللفظ علماً على شخص «ولكن كل شك قد زال عند كشف وثائق (قره باسك) «Papyrus Erzherzog Rainer: Fuhrer durch die Ausstellung» ورقم ٥٥١ منها هو خطاب من خارجة المشهور (انظر ما سبق في =

بـالسفن لينتقلوا فيها من الجـانب الغربي إلى الجـانب الشرقي ، وكـان يقصد بذلك أن يفتـح كل إقليم مصـر وهو الإقليم الـذي كان يلي مفتـرق فرعي نهـر النيل .

ولعـل وقعة عين شمس كـانت في النصف من شهر يـوليـه سنـة ٦٤٠ ، وقضى العرب في فتح الفيـوم نحو أسبـوعين . وعلى ذلك لم يبـدأ فتح مصـر السفلى قبل شهر أغسطس . وكان عمرو يطمع أن يبسط يده إلى هناك قبل أن يحول فيض النيل بينه وبين ذلك . وأما ما كان من أمر (جـورج) حاكم إقليم مصر فإما أن يكون قد وقع في الأسر عند فتح مدينة مصر وإما أنه أذعن للعرب وخضع لأمرهم . فالحق أن الرهبة من العرب أخذت عند ذلك بقلوب الناس في كل البلاد ، ولا سيما ما كان منها على كثب من سيوفهم ، اللهم إلا المواضـع ذات الحصون .

غير أن مصر السفلى كانت تشقها الترع الكثيرة وكان بعض هذه الترع لا يمكن إجتيازه خوضاً ، فجاء الأمر إلى (جورج) أن يقيم قنطرة على الترعة عند قليوب ، وقال حنا النقيوسي : « وأخذ الناس يـساعدون المـسلمين »[1]. وإنه لمن سوء الحظ أن قول الأسقف هنا ليس بالواضح البين . غير أنا إذا قرنا ذلك القول مع سائر ما جاء في ديوانـه رأينا أن معناه لا يـزيد على أن النـاس قامـوا بتلك المساعدة إذ أمروا بها ، أي أنهـا لم تكن مساعـدة الراغب المختـار بل عمـل

= صفحة ٢٥٨) كتبه إلى (أبا قيرس) حاكم (هرقليو بولس مجنا). ورقم ٥٥٨ منها مكتوب بـاليونـانيـة والعـربيـة بتـاريـخ ٢٥ إبـريـل سنـة ٦٤٣ وهـو من عبـد الله بن جـابـر إلى (كريستوفوروس) و(تيودورا كيـوس) ابني (أبا قيـرس) عينه وهـذا الخطاب الأخيـر أقدم وثيقة إسلامية في مصر إن لم يكن أقدم ما في العالم ورقم ٥٥٤ يذكر ذلك الاسم أيضاً.

(١) صفحة ٥٥٩ الفصل ٦٣، وترجمة زوتنبرج هكذا: «وقد كان عنـد ذلك بـدؤهم بمديـد المسـاعدة للمسلمين». وفي ذلـك خـروج على الأصـل الـذي لا يـزيـد على «ويـدأوا يساعدون المسلمين» ورأى أن المساعدة كانت محدودة ومعينة لغرض خـاص ولم تكن مساعدة عامة.

المجبر المضطر. وفي الحق أنا لو أمعنا النظر لرأينا في قول الأسقف نفسه ما يدل على ذلك دلالة واضحة ، فإنه بعد أن قال إن العرب فتحوا المدينتين الكبيرتين (أثريب) و (منوف) وملكوا ريفهما وبسطوا سلطانهم على إقليم مصر كله ، قال : « إنهم لم يكفهم هذا بل أمر عمرو أن يؤتي بالحكام من الروم مجموعة أيديهم في الأصفاد وأرجلهم في القيود ، ثم أخذ من الناس أموالاً عظيمة وضاعف عليهم الجزية ، وأمرهم أن يأتوا له بالأعلاف لخيله وظلمهم ظلماً كثيراً » وليس من العجيب أنه بمثل هذه الشدّة قضى على كل مقاومة وجعل الناس لا يعصون له أمراً ، ولكنا لا نجد كلمة واحدة تدل على أنه قد كان بين أهل مصر من كان لمجيء المسلمين في قلوبهم إلا وقع الخوف والرعب .

على أن مدينة (نقيوس) ـ وكانت على الفرع الغربي للنيل ـ بقيت بنجوة من العرب بعد أن أخذوا (أثريب) و (منوف) ، وذلك لأنها كانت ذات حصون قوية وأسوار منيعة ، فما كانت لتؤخذ حتى يحاصرها العرب حصاراً تاماً ، ولم يستطع العرب ذلك عندئذ ، إذ كانوا لا يملكون العدّة للحصار ولا يتسع لهم الوقت له . وعلى ذلك بقيت (نقيوس) كأنها حلقة تصل من كانوا في حصن (بابليون) بمن كانوا في الإسكندرية . غير أن كبار الروم الذين كانوا فيها لم يستطيعوا البقاء بها عندما جاءتهم أنباء فتوح العرب وفوزهم ، فهاجروا إلى العاصمة ولم يغادروا في المدينة إلا (دومنتيانوس) في قلة من الناس للدفاع عنها ، وبعثوا إلى (داريس) في سمنود يأمرونه أن يحفظ ما عنده من البلاد التي بين فرعي النيل . وعند ذلك زاد الخوف وذعر الناس ، وغلب الرعب على كل بلاد مصر ، فأخذ الخلق يفدون أفواجاً من كل حدب إلى الإسكندرية تاركين أرضهم وبيوتهم وما فيها من زرع وضرع ومتاع . وبذلك خرج أهل مصر من عهدة المقوقس (قيرس) واضطهاده الذي عصف بهم عشر سنين إلى عهد آخر من الخوف والفزع .

ولكن عمراً لم يكن عند ذلك ليستطيع أن يسير إلى الشمال في أثر تلك الأفواج الهاربة ، فإن النيل كان آخذاً في مدّه يعلو به الماء علواً سريعاً في أواخر

شهر أغسطس ، فأصبحت البلاد لا يمكن السير فيها . وكان فوق ذلك لا يريد أن يخلف وراءه ذلك الحصن العظيم حصن (بابليون) بغير ردءٍ من جنوده يدرأ عنه ، وإذا هو شاء أن يجعل من جنوده ردءاً كان لا بدّ له أن يخلف جانباً عظيماً من جيشــه ، فلا يبقى لــه بعد ذلــك من النـاس من يقــدر بهم على فتح الإسكنـدرية . فـلم يكن لـه مفـرّ من أن يعمــد بعـد ذلــك إلى فتح حصن (بابليون) .

الفصل السابع عشر

حصن بابليون

ما عليه الحصن الآن ـ موقعه ومنعته ـ صروحه وأبوابه ـ الباب الحديدي ـ جزيرة الروضة ـ منشأ الحصن وأصل تسميته ـ ما فيه من الكنائس .

بقي من حصن بابليون إلى نحو أوائل القرن العشرين ما يدل على ما كانت عليه هيئته وعظمة خطره . وكان الفضل للقبط في حفظ تلك البقية إذا اجتمعت لهم كنائس عدّة فيه منذ أول عهد المسيحية ، لأنهم وجدوا وراء أسواره منعة لهم في أيام المحنة والشدّة ، وكانت كل أسوار الحصن للقبط إلا ما كان منها للملكانيين وهو موضع كنيسة (مار جرجس) ، وإلا ما كان منها لليهود وهو موضع بيعتهم . والظاهر أن المسلمين لم يحفلوا بالمحافظة على ذلك الأثر مع ما كان له من الخطر في أيام فتحهم ومع كثرة ما كتبه مؤرخوهم عنه .

ولكنه خرب تخريباً يرثى له منذ احتلال الإنجليز لمصر ، إذ شعر أهله عند ذلك بالإطمئنان والأمن . فقد أصبح الأمر مستقراً لا حاجة معه إلى الأسوار المنيعة ، وصار القبط واليونان واليهود وكأنهم يتبارون في هدم أسواره كلما بدا لهم فتح باب في ناحية أو إقامة بناء في جانب منه . فإذا نحن قلنا إن السنين الثماني عشرة الأخيرة قد شهدت من تهديمه أكثر مما شهدته القرون الثمانية عشر التي قبلها لم يكن في قولنا شيء من المبالغة .

فلما أن انتهى الأمر إلى ذلك وحدث الضرر الذي كان يخشى تدخلت الحكومة وبسطت حمايتها على ما بقي منه ، ولكن ما أقل ما قد بقي منه .

وموضع ذلك القصر المتهدّم فيما يسمى (مصر القديمة)[1] ، وكان باقياً من الأسوار ثلاثة جوانب لم يكد يمسسها أذى منذ بضع سنين، ولكن لم يبقَ منها اليوم إلا قطع من جانبين اثنين ، وأما الثالث فقد شوّه ومسخ مسخاً . وكان سمك أسواره ثمانية عشر قدماً . وكان بناؤها من الآجر والحجارة طبقة من هذه وطبقة من تلك . وكان محيط الأسوار على شكل مربع غير منتظم ، ولكنا لا نستطيع البت في أمر سعته ومساحته حتى تكشف جدران الجانب الرابع وهو الجانب الذي لم يبق منه أثر . ويتخلل كلاً من الجانبين الجنوبي والشرقي من أسوار الحصن أربعة أبراج بارزة ، بينها مسافات غير متساوية ، وكانت ثلاثة من هذه الأبراج الأربعة التي إلى الجنوب لا تزال ظاهرة إلى عهد قريب ، وأما الآن فإن أحدها قد تهدّم واندثر ولم يبق إلا اثنان ، ونستطيع أن نرى بينهما الباب العظيم القديم الذي كشف مما كان علاه من الأقذار والأتربة إلى نحو ثلاثين قدماً[2] . وأما الجانب الغربي فلم تكن به بروج ، ونستطيع أن ندرك علة ذلك متى عرفنا أنه في وقت بناء الحصن كان ماء النيل يجري تحت أسواره ، فكانت السفن ترسو تحتها ، وقد بقيت الحال كذلك إلى أيام فتح العرب . وكان للحصن باب آخر في تجاه النهر ، ولعله كان بين الصرحين العظيمين المستديرين الذين بقيا إلى عهد قريب ، لم يبلغ منهما التهدّم مبلغاً كبيراً إلا فيما إنتابهما في المدّة الأخيرة من التغير . وأما اليوم فقد بقي من أحدهما أثر في حين لم يبق من الآخر شيء تراه العين ، لأنه دخل في بناء مربع أقامه أبناء العرب في العصر الحديث . وكان كل صرح من هذين الصرحين دائرياً يبلغ

---

(١) جاء في الأصل الإنجليزي « now miscalled old Cairo » ومعناه : « فيما يسمى الآن خطأ القاهرة القديمة » والواقع أن الخطأ واقع في التسمية الانجليزية وحدها إذ أن اسم ذلك الخطر بالعربية « مصر القديمة » وليس « القاهرة القديمة » كما هو في الانجليزية . وإهذا آثرنا أن نحذف من الترجمة لفظ « خطأ » إذ لا خطأ في التسمية العربية كما هو ظاهر . (المعرب) .

(٢) المؤرخون والأثريون مدينون على السواء ديناً عظيماً من الشكر إلى ماكس هرتز بك لما قام به من العمل الجليل بحفظ هذا الباب وإظهاره للعيان .

قطره نحو مائة قدم ، وكان في داخله دائرة أخرى من البناء . وتقطع ما بين الدائرتين الخارجة والداخلة جدران من البناء تقسم الصرح إلى ثمانية أقسام ، كان في كل منها سلم حجري صاعد إلى أعلى البناء . وأما علو الأسوار فكان على وجه الإجمال نحو ستين قدماً كما أظهره الحفر الحديث ، ولكن الحصن كله مطمور اليوم إلى نحو ثلاثين قدماً فيما تخلف حوله من أثر العصور المتتالية عليه . وأما الصروح فكانت أعلى من ذلك ، فكان الصاعد إلى أعلاها يشرف على منظر عظيم يبلغ مداه إلى المقطم من الشرق ، وإلى الجيزة والأهرام وصحراء لوبيا من الغرب ، وإلى قطع كبيرة من نهر النيل من الشمال والجنوب . وكان الناظر من هناك في وقت غزوة العرب ، وذلك قبل أن تبنى القاهرة ، لا يقف شيء دون بصره حتى يبلغ مدينة عين شمس[1] .

وكان بين الصرحين الكبيرين سور ساتر ينفذ منه الباب الذي ذكرناه آنفاً ، ولكن ذلك الباب ليس هو الذي يكثر مؤرخو العرب من وصفه ويقرنونه باسم المقوقس ، فإن الباب الذي يقصدونه هو الجنوبي وهو الذي نراه اليوم ماثلاً . وأما ذلك الباب بين الصرحين فقد تهدّم أو طمر في الأرض فلم يبق اليوم له أثر . وهذه حقيقة أصبحت ثابتة لا ريب فيها ، لأن البحث الحديث قد أظهر أمراً عجيباً وهو أن النيل نفسه أو فرعاً قصيراً منه كان في وقت الفتح يبلغ إلى الباب الأكبر الجنوبي ، (وهو ما يسميه العرب بالباب الغربي)[2] وإلى مرسى السفن الذي كانت ترسو عليه السفن الرومانية . وكان لذلك المرسى درج يهبط منه إلى الماء كلما تغير علو النهر . وإن وجود هذا المرسى إلى اليوم لدليل على دقة وصف مؤرخي العرب في بعض الأحيان لما يرون . ولعل ذلك كان حال

---

(١) قد حقق مؤلف هذا الكتاب ذلك . وقد جاء وصف مفصل لهذه الصروح في كتاب « Ancient Coptic Churches » وقد أثبتنا هنا رسم أجزاء السور التي كانت باقية إلى قبيل احتلال الانجليز لمصر وفيه تغيير يسير .

(٢) وليس في الواقع وصف الباب بالغربي دقيقاً كما أن وصفه بالجنوبي ليس صحيحاً فإن جهات البوصلة مخالفة لذلك . على أن الجانب المواجه للقاهرة أجدر بأن يسمى الشمال والجانب المواجه لحلوان الجنوبي .

الباب الذي كان بين الصرحين المستديرين اللذين كانا تجاه جزيرة الروضة . ولكن من الثابت أن ذلك الباب الجنوبي ـ باب كنيسة المعلقة ـ هو الذي يرد ذكره في أخبار مؤرخي العرب ويسمونه (الباب الحديدي) . وتدل على هذا أدلة كثيرة : (أولها) أن البحث قد كشف عن المرسى الذي كان هناك في النهر عند ذلك . و (ثانيها) أن الباب الذي لا يزال باقياً إلى اليوم فيه مجرى عميق منقور في البناء كانت جوانب الباب تجري فيه إذ يدلى من عل . وكان ذلك الباب إما مصنوعاً من الحديد أو عليه غطاء من صفائح الحديد . و (ثالثها) أن المقريزي[1] ينص على أن الباب الحديدي هو الباب الغربي (الذي نسميه نحن في كتابنا هذا بالباب الجنوبي) ، في حين أن ابن دقماق[2] ـ وكان يعيش في عصر المقريزي يقول إن الباب الغربي هو الباب الذي يلي كنيسة المعلقة .

ومن أغرب ما يذكر هنا أن ذلك الباب الحديدي الذي يلي المرسى القديم كان إلى سنة ١٤٠٠ للميلاد لا يزال مدخل الحصن الذي يلجه الناس منه ، وكان السوق الذي يسمونه « السوق الكبير » واقعاً إلى جوار ذلك الباب ، وكانت هناك طريق تنفذ من ذلك الباب مما يلي كنيسة المعلقة ، ثم تسلك

---

(١) الخطط : الجزء الأول صفحة ٢٨٦ .

(٢) الجزء الرابع صفحة ٢٥ و ٢٦ ولا يصف الكاتب الحصن ولكنه يسمى الأبواب والطرق والمساجد والكنائس التي كانت فيه . وإنا موردون بعض ما جاء فيه في هذه الفقرة الهامة . قال عن « طريق المعلقة » إنه الطريق الذي يمر أسفل كنيسة المعلقة وهو الباب الذي يدخل منه الآتي من السوق الكبير إلى الحصن الروماني المسمى قصر الشمع . وقال عن « طريق الحجر » إنه يدخل إليه من مخفر البنانة ومنه يدخل إلى الحصن وهو الباب (الشمال) الشرقي للحصن . وأما الطريق السابق فهو (الجنوبي) الغربي وسيأتي ذكر الأبواب الأخرى فيما بعد إن شاء الله . وقال عن « طريق محط القرب » إنه يدخل إليه من سوق السماكين ومن سوق القصابين وهذا هو الباب الشمالي (الغربي) للحصن وهو آخر الأبواب المشهورة في الحصن .

فالباب الذي سميناه بالجنوبي أسفل المعلقة يسميه ابن دقماق الغربي وذلك لا خطأ فيه ولكنه فيه شيء من التجوز والتكلف (أنظر ما سبق في صفحة ٢٧٠ هامش ١) (وانظر كذلك ابن دقماق الصفحات ١٥ ، ١٦ ، ٣٠ ، ٣٣ ، ٤٠ ، ٨١ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٧ ، ١٠٨) .

الحصن كله حتى تخرج من أسواره من باب في الشمال في تجاه جامع عمرو . وكان إلى جوار ذلك الباب الحديدي كذلك مخفر بنائه ، ولعله كان ذلك البناء الروماني المنفصل عن الحصن ، وقد بقيت للآن منه بقية صغيرة . ومع أن عبارة ابن دقماق يفهم منها أن الحصن كانت له أبواب عدّة أخرى فإنه لا يذكر إلا باباً آخر وهو في الجانب الغربي ولعله كان الباب بين الصرحين . وما دام الأمر كما وصفنا فإنه يكون من الثابت أن السور الغربي كان على النيل وأن السفن كانت تبلغ الباب الحديدي . ولكن النهر في هذه الأيام قد بعد بعداً كبيراً عن أسوار الحصن ، وعلت الأرض حوله فطمرت نصف أسواره ، فذلك النصف من الأسوار قد بقي تحت الأرض محفوظاً إلى اليوم لم تعصف به يد الهدم ولعله ينكشف يوماً مما علاه فيظهر للعين .

وكانت جزيرة الروضة كذلك ذات حصون ومنعة في ذلك العصر ، وكانت تزيد في قوّة حصن بابليون وخطره الحربي بأنها كانت في وسط النهر تملك زمامه . ويظهر من قول ابن دقماق[1] أن العرب غزوا تلك الجزيرة في أثناء حصارهم لحصن بابليون ، فلما خرج الروم من هناك هدم عمرو بعض أسوارها وحصونها فبقيت مجردة عاطلة حتى أعاد ابن طولون بناء أسوارها في عام ٨٧٦ ليجعلها مقراً لخزائنه وقصره الخاص . وكانت تلك الجزيرة تتخذ لغرض آخر فكان يسميها العرب في العصور المتأخرة (جزيرة دار الصناعة) . وقد بني مقياس النيل في الطرف الجنوبي منها في سنة ٧١٦ للميلاد بدل مقياس قديم كان في حصن بابليون .

وكان الإقليم الذي إلى شرق الحصن في وقت الفتح مزارع فسيحة ، وكانت إلى شماله الحدائق وحوائط الكرم ، وفيما يليها إلى الجبل الشرقي كنائس وأديرة متصلة إلى الموضع الذي به اليوم جامع ابن طولون وقلعة

---

(١) الجزء الرابع صفحة ١٠٩ ، أنظر كذلك كتاب « Cairo Fifty Years Ago » (E. W. Lane) صفحة ١٣٢ (لندن ١٨٩٦) وقد ذكر فيه الكاتب بقايا سور عظيم له بروج مستديرة من عمل الرومان كان ظاهراً في أيامه على الجزيرة .

الكبش . وقد بقيت بعض هذه الكنائس وتلك الأديرة إلى اليوم بعضها داخل سور القاهرة وبعضها خارجه ، مع أن الملك الناصر بن قلاوون[1] هدم أكثرها في القرن الرابع عشر .

وأما منشأ بناء الحصن فقد ذهبنا فيه إلى رأي[2] ظهرت صحته فيما بعد عندما نشر ديوان (حنا النقيوسي) ، وذلك الرأي هو أن أول من بناه الإمبراطور الروماني (تراجان) في العام المتمم للمائة من الميلاد . وقد جاء في ديوان حنا أن اليهود ثاروا بالإسكندرية مرة فأرسل إليهم (تراجان) جيشاً عظيماً وجعل أميره (مرقيوس تربو) ، ثم جاء بنفسه إلى مصر وبنى بها حصناً وجعل فيه قلعة منيعة قوية وجعل فيها ماء كثيراً[3] . ولعل هذه الكلمة الأخيرة يقصد بها ما حفره من الآبار عند الصرح المستدير وفي مواضع أخرى من الحصن . ثم قال بعد ذلك إن أصل ذلك الحصن كان بناء أقامه (بختنصر) وسماه باسم عاصمة ملكه (بابليون) ، وذلك عندما غزا مصر . فأقام تراجان أسوار الحصن على أساسه وزاد في بنائه[4] . وعلى كل حال فلا شك في أن البناء القائم اليوم بناء روماني ، ولا نظن أن تراجان جعل بناءه على نسق بناء كان في ذلك الموضع من قبل .

---

(١) أخذنا كل هذه الفقرة عن المقريزي (الخطط الجزء الأول صفحة ٢٨٦) ويقول أيضاً « وكان هذا الحصن مطلاً على النيل وتصل السفن إلى بابه الغربي الذي كان يعرف بباب الحديد . فانحسر بعد الفتح بأعوام ماء النيل عن أرض تجاه الحصن والجامع العتيق (إلى الغرب) » وقد ذكر أبو صالح بعض كنائس في هذه الجهة بقيت بعد الفتح بمدة طويلة ولكنه يقول إن عمرو بن العاص هدم عدداً كبيراً من الكنائس هناك (صفحة ١٣٣) .

(٢) « Ancient Coptic Churches » الجزء الأول صفحة ١٧٨ .

(٣) صفحة ٤١٣ .

(٤) من العجيب أن يذكر المقريزي الخبر نفسه بغير خلاف كبير ولكنه يقول إن الحصن قد هدمه بختنصر ثم بناه الحاكم الروماني (أرجاليس بن مقراطيس) على أساسه الأول (الخطط الجزء الأول صفحة ٢٨٧) والظاهر أن الاسم المقصود (أركسلاوس بن مرقاتس) ولعله كان والي تراجان أو لعله كان المهندس الذي تولى البناء .

على أنه من المحقق أنه قد كان في تلك الجهة حصن قديم، فقد جاء استرابو[1] إلى مصر قبل عهد تراجان بنحو مائة وثلاثين عاماً، وقد ذكر أنه رأى حصناً قوياً على نهد من الصخر. وقال إن السبب في تسميته أن جماعة من أسرى بابل كانت مقيمة فيه. وقال ديودور[2] إن ملك مصر (سيزوستريس) جاء بجماعة من أسرى البابليين وأنزلهم في قصر، فأطلقوا على القصر اسم المدينة التي جاؤوا منها. ويقول المؤرّخ (يوسفوس)[3] إن الحصن لم يبن إلا في أيام غزوة الفرس في حكم الملك قمبيز. وقال (ابن بطريق)[4]: إن (آخوس) وهو (أرتخشيارش أوخوس) هو الذي بنى الحصن، وإذن نستطيع أن نقول إنه قد كان على مقربة من موضع الحصن القائم في الوقت الحاضر حصن قديم كانوا يطلقون عليه اسم (بابليون) مدة قرون طويلة قبل أيام تراجان. ولكنا بينا في موضع آخر[5] أن ذلك الحصن القديم كان على نهد صخري كما قال سترابو، وكان ذلك إلى الجنوب من الموضع الذي به الحصن اليوم. (ولا يزال ذلك النهد الصخري إلى اليوم ماثلاً يرى). ولعل ذلك النهد الصخري وما جاوره كان داخلاً في مدينة مصر في وقت غزوة العرب، وكانت مصر إذ ذاك تتصل شمالاً بموضع الحصن الروماني، ولعلها كانت تتصل بما بعد ذلك. وكان حول الحصن خندق أعاد المقوقس (قيرس) حفره واتخذ عليه قنطرة متحركة[6]. وإنا

---

(١) (Geog. lib. XVIIC. 1 and 35) .

(٢) ديودور الصقلي (تاريخ) الكتاب الأول الفصل ٣٠٥٦ .

(٣) Ant. Jud. ii. 15. .

(٤) أنظر كتاب أبي صالح صفحة ١٧٧ هامش ٣ وقد أخذنا منه كلمات (ابن بطريق) وقد رأى (Vansleb) في سنة ١٦٧٢ بقايا هيكل عظيم من بيوت النار الفارسية قيل إن الذي بناه هو (أرتخشيارش أوخوس) « Nouvelle Relation d'un Voyage fait en Eg. P. 240 » وكانت الأطلال بغير شك في داخل قصر الشمع .

(٥) « Ancient Coptic Churches » (الجزء الأول صفحة ١٧٢ ـ ١٧٥) .

(٦) يذكر (ساويرس) بين أعمال قيرس أنه حفر خنادق ويقول أبو المحاسن « وكانت الروم قد خندقوا حول الحصن وجعلوا له أبواباً (وتلك الأبواب هي القناطر التي تؤدي إلى الأبواب) وقال أبو صالح (صفحة ٧٣) وحفر أهل الفسطاط خندقاً لصد العرب .

نظن أنه كان لا يزال بمدينة مصر في ذلك الوقت كثير من مباني المصريين القدماء، فإن الباحثين اليوم يعثرون في كثير من الأحياء على حجارة كبيرة وعليها نقوش بالخط الهيروغليفي.

وقد سبب اسم (بابليون) ارتباكاً كبيراً لكتاب العرب، وبقي ذلك الاسم إلى اليوم ولكنه لا يطلق على الحصن نفسه، فاسمه الآن «قصر الشمع» بل يطلق على دير صغير على مسافة قليلة من الحصن نحو الجنوب وهو (دير بابليون). وكان اسم الحصن باللغة القبطية في وقت الفتح (بابلون ـ آن ـ خيمى) ومعناه (بابليون مصر)[1] فكان من السهل تحريفه في اللغة العربية لأن أول جزء منه «باب» ويمكن أن يفهم أن الجزءالثاني منه مضاف إلى الأول وقد سبقت الإشارة إلى هذا[2]. وليس من السهل أن نعرف أصل تسميته بقصر الشمع في اللغة العربية، فقد يكون لفظ «الشمع» تحريفاً للكلمة القبطية (خيمى)، ولكن قد نصت الأخبار على أنه قد كان في حصن (بابليون) القديم هيكل للنار، وأنه قد بنى هيكل آخر مثله في صرح من الصروح بالحصن الروماني وذلك في مدة تملك الفرس للبلاد في القرن السابع. ونجد في كتاب ياقوت ذكر (قبة الدخان)[3]، ولعل منشأ ذلك أن الصروح العالية كانت تتخذ في وقت الحروب مراقب تبعث منها الإشارات، فلعله قد جعل على أحد الصرحين أو عليهما معاً منائر توقد فيها النيران للإشارة، فنشأ من ذلك اسم قصر الشمع[4]. ومهما

---

(١) ⲃⲁⲃⲩⲗⲟⲛ أو ⲃⲁⲃⲩⲗⲱⲛ ⲛ̀ⲭⲏⲙⲓ أو ⲡⲕⲏⲙⲓ: انظر كتاب شمبوليون « L'Egypte Sous Les Pharaons » الجزء الثاني صفحة ٣٤ ولا يوجد دليل يعزز ما ذهب إليه من أن لفظ ⲃⲁⲃⲏⲗ كان مستعملاً في مصر فلا يرد ذلك في كتب القبط ولا كتب العرب ولكن اسم ⲭⲏⲙⲓ هو ⲕⲉⲥⲩⲣⲱⲙⲓ وقد جاءا مترادفين في نسخة مخطوطة سماها « Zoega » في كتابه « Cat. Codd. Copt. »صفحة ٨٨ .

(٢) أنظر ما سبق في هامش ١ (ص ٦٥) .

(٣) ولكن يظهر أن ياقوت أخطأ فهم الاسم-فإنه يذكر حصناً اسمه قصر أليون أو قصر الشام أو قصر الشمع (الجزء الرابع صفحة ٥٥١) .

(٤) نقل المقريزي عن الواقدي أنه قال إنهم يوقدون مشعلاً على الحصن في أول يوم من كل =

يكن من أمر العرب وتحريفهم لاسم الحصن فقد ظل كتاب أوروبا في القرون الوسطى يطلقون على ذلك الموضع اسم (بابليون) وليس اسم مصر، وحفظوا تلك التسمية إلى ما بعد بناء القاهرة، فصاروا يطلقون على مدينة مصر اسم (بابليون) ويسمون حاكمها (سلطان بابليون)(١).

وبعد فلنا كلمة أخرى فإنه لم يرد لنا إلا القليل من أخبار ما كان في داخل الحصن من البناء في وقت حصار عمرو له، ولكنا نعرف أنه قد كان به مقياس للنيل بقيت آثاره إلى أيام المقريزي(٢) . وكذلك نعرف أن بعض ما بقي به إلى اليوم من الكنائس كان عند ذلك قائماً تصلي فيه جنود الروم ، نضرب لذلك مثل الكنيسة الكبرى كنيسة (أبو سرجة) ، ولعلّ منها كذلك كنيسة (المعلقة) نراها اليوم بعد أن مضى عليها من الدهر ثلاثة عشر قرناً(٣) .

= شهر إذا دخلت الشمس في برج جديد وأن الحصن بناه أحد الفراعنة واسمه الريان وهذا غير مستغرب من الواقدي فهو صاحب القصص الخيالية .

(١) أنظر مثلاً كتاب « Marino Sanuto » وسواه من المؤلفين الذين جمعت كتبهم معاً في الجزء التاسع والعشرين مما نشرته جمعية « Pal. Pil. Text Soc. » .

(٢) وقال عن دير البنات في قصر الشمع « وكان هناك مقياس النيل قبل الإسلام ولا تزال توجد آثار منه إلى يومنا هذا » (نقله أبو صالح عن الخطط في ذيل الكتاب صفحة ٣٢٥) .

(٣) الظاهر أنه لا محل للشك فيما يخص أباسرجة . على أنه عندما كتبنا كتاب « Coptic Churches » لم نجرؤ على أن نذهب إلى أن شيئاً من هذه الأبنية قديم مثل هذا القدم وقد ذكر (أبو سرجة) حوالي سنة ٦٩٠ في كتاب أميلنو « Vie du Pat. Isaac » صفحة ٤٦ ونعلم كذلك من القطعة التي وجدت عن حياة بنيامين أنه كان عند الفتح أسقف لحصن بابليون وأسقف لحلوان وهذا دليل قوي على كثرة عدد الكنائس في هذه الجهة (وإذا أردت الإطلاع على ما يتعلق بالحصن فانظر كتاب « أميلنو » « Geog. Copte » صفحة ٧٥ وما بعدها ، وكتاب (كاترمير) « Mem Geog. et Hist. » الجزء الأول صفحة ٤٥ وما بعدها ، وكتاب « Hamaker » « فتوح مصر للواقدي » هامش صفحة ٩٠ وما بعدها وصفحة ٤١ ، وهامش صفحة ١١٠ ، متن صفحة ٦٠ ، وقد ذكر فيها أن المعلقة قد =

. . . .

= إفتداها القبط من عمرو وقد كتبت لوحة ذكر عليها ذلك . على أن الكنيسة وإن وجدت يشك الإنسان في أنها كانت على ما هي عليه الآن فوق الباب الروماني فإن الأسوار الخارجية ليست رومانية في شيء وجزء من الكنيسة قائم على أسوار بناؤها يجعل استعمال الباب غير ممكن وعلى ذلك فهي مبنية بعد الفتح العربي وقد أخطأ الواقدي إذ قال إن (دير بولص) هو قصر الشمع وبه المعلقة ودير بولص الذي ذكره هو ولا بد الدير الصغير الواقع خارج الحصن واسمه (دير بولص) وهو قائم على غور بين الأطلال التي في جنوب الحصن . وتجد صورة حسنة للباب الجنوبي كما كان قديماً في كتاب (ر . هاي) « Illustrations of Cairo » (لندن ١٨٤٠) ولكنا لا نعرف رسماً للبناء كما كان في الأصل إلا ما رسمه (بوكوك) وهو في منتهى عدم الدقة . وإن الرسم الذي تحضره الآن لجنة حفظ الآثار العربية سيخلد ذكراً قيماً للباب الروماني على الأقل . وتوجد بالحصن بيعة لليهود كانت في الأصل كنيسة مسيحية ترجع إلى ما قبل الفتح وهي ذات دلالة عظمى . وقد هدمها اليهود حديثاً ليقيموا محلها مكاناً آخر لعباداتهم وقد هدم اليهود كذلك جانباً عظيماً من السور .

الفصل الثامن عشر

حصار حصن بابليون وفتحه

حال القبط ـ قيرس المقوقس يحصر في الحصن ـ ضعف قيرس أو خيانته ـ عبوره إلى الروضة ومفاوضته لعمرو ـ رأي الروم في العرب ـ عبادة بن الصامت ـ رسول عمرو يذهب إلى الروضة للمفاوضة ـ شروط العرب ورفض الروم لها ـ استئناف القتال واتفاق الفريقين على الصلح وبعث قيرس بشروطه إلى الإمبراطور ـ استدعاء قيرس وعزله ونفيه ـ رفض هرقل للصلح وإعادة الحصار ـ نقص النيل ـ القتال في مصر السفلى ـ موت هرقل ـ تسوّر الزبير إلى الحصن ـ تسليم المسلحة الرومانية على عهد ـ فتك الروم بقبط مصر فتكاً فظيعاً.

عاد عمرو منذ أول شهر سبتمبر إلى حصن بابليون وجهز نفسه لكي يضيق عليه الحصار ، وكان ذلك الحصن منيعا على أعدائه ولا بد أن تطول بهم مدة حصاره إذ كانوا لا علم لهم بحيل الحصار ، وليس معهم من عدّته شيء ، في حين أنه كان حصناً تحيط به أسوار عظيمة وصروح عالية يحيط بها من ورائها نهر النيل ، إذ كان الخندق الذي حولها عند ذلك مليئاً بالماء . وكان العرب قد غنموا بعض آلة الحرب في غزاة الفيوم ومن حصن تراجان في منوف ، ولكنهم كانوا لا خبرة لهم بأمرها ، ولا علم عندهم بطرق إصلاحها إذا هي اعتراها الفساد ، ولهذا لم يضروا بها مسلحة الحصن إلا ضرراً يسيراً[1] مع أنه قد كان

(١) ذكر واحد أو إثنان من مؤرخي العرب أن عمراً وضع مجانيق حول الحصن ولكن لم يرد شيء يدل على أنها كانت ذات فائدة للمحاصرين .

دونهم نهد من الأرض على نحو مائتي ياردة (ثلثمائة ذراع) إلى جنوب الحصن ، وهو موضع إذا وضعوا عليه آلة الحصار كان فيه رجحان لهم وقوة .

وقد قلنا فيما سبق إن الحصن كان على كل جانب النهر يتجه إليه بأطول جوانبه ، تحف به المياه في وقت الفيض ، وكان الباب الحديدي تجاه الخندق والمرسى في الجهة الجنوبية من الحصن ، وكان في تجاهه جزيرة الروضة يتصل طرفها الجنوبي بالحصن بجسر من السفن ، ولا سيما في أيام السلام . ولسنا ندري إذا كان ذلك الجسر قد ترك في إبان الحرب على ما كان عليه من قبل ، ولكنا على يقين من أن القناطر فوق الخندق بقيت مشدودة إلى جانب الباب الحديدي في مأمن من الخطر ، وأن السفن كانت تمضي بين الحصن والجزيرة بغير عائق . فإن عمراً لم يستطع بعد أن يملك زمام النهر مع كل ما كان من إنتصاره ، لأن أتيّه الهدار لا يقوى عليه من هم أخبر من العرب بتسيير السفن . ولو أتى عمرو إلى الحصن من جانب النهر لاستاقت مياهه السفن التي أتى فيها أو لأغرقها من في الحصن من رماة المنجنيق .

ولا خلاف بين مؤرخي العرب أجمعين في أن المقوقس (وهو البطريق قيرس) كان بالحصن[1] عند ابتداء الحصار ، وكان تيودور كذلك بالحصن قبل وقعة عين شمس . ولا ندري إذا كان قد حضر الوقعة بنفسه أم لم يحضرها ، ولعله كان هناك ثم لحق بالهاربين بعد الهزيمة ولاذ بالإسكندرية . وعلى ذلك كان (قيرس) القائد الأكبر في الحصن وهو خليفة هرقل على مصر ، ولكن القائد الذي كان يدبر أمر الجنود هو من يسميه العرب (الأعيرج)[2] ولعل ذلك

---

(١) ابن عبد الحكم وابن بطريق وياقوت والمقريزي وأبو المحاسن كلهم متفقون على أن المقوقس كان في الحصن ولكنهم يختلفون طبعاً في تعيين شخصه.

(٢) انظر الذيل الثالث عن المقوقس والخلط كثير فيما يخص القائد. فالطبري مثلاً يقول إن المقوقس عظيم القبط جعل (ابن مريام) قائد للحصن (والطبري يجعل تسليم الإسكندرية يقع قبل حصار مصر أو بابليون وهذا أمر عجيب فإن المقوقس كما نعلم هو قيرس عدو القبط الأعظم ومضطهدهم وابن مريام هو كما أظهرنا البطريق القبطي الذي كان مختبئاً في الصعيد، فكل ما يمكن أن يفهم من رواية الطبري أن الحاكم الحقيقي كان بطريقاً =

تحريف منهم لاسم (جورج) . ولو كان الأمر كذلك لكان هذا الرجل خلاف الحاكم (جورج) الذي أمره عمرو أن يقيم له جسراً على ترعة قليوب . وكان في الحصن قائد آخر بقي فيه طول مدة الحصار وهو (أودوقيانوس) أخو (دومنتيانوس)[1] . ولعل كل الجنود التي كانت تحت إمرة جورج تبلغ الخمسة آلاف أو الستة آلاف لا يمكن أن تزيد على ذلك كثيراً . وكان بالحصن كثير من الأزواد والذخائر من كل نوع ، وكان قد اجتمع به عدد عظيم من غير الجند من أهل مدينة مصر والأديرة المجاورة ، ولكن أغلب الظن أن هؤلاء أخرجوا عن طريق النهر ليوسعوا على الجنود . ويجدر بنا هنا أن نذكر أن كل الكنائس التي كانت في داخل الحصن كانت تؤمها قسوس على المذهب (الخلقيدوني) أو الملكاني ، ولم يبح لأحد هناك أن يتعبد على غير ذلك المذهب ، فإن قيرس كان لا يزال على عهده العدو الأكبر لمذهب القبط ، وبقي على ذلك إلى آخر أمره . وإن في وجوده بالحصن لأقوى دليل إذا احتاج الأمر إلى دليل على أنه لم يبق بالحصن من القبط إلا من أزالهم الإضطهاد عن عقيدتهم . بل إن الروم أساءوا الظن ببعض هؤلاء فوضعوهم في السجن وأنزلوا بهم فيه نكالاً فظيعاً كما سنرى فيما بعد .

وقد كان هذا البطريق هو قيرس بغير شك وهذه الحقيقة تنقض ما قاله (سعيد بن بطريق إن المقوقس منع أموال مصر منذ حاصر كسرى قسطنطينية. فإن قيرس لم يأت إلى مصر إلا بعد هزيمة الفرس وموت كسرى بثلاث سنوات وإنا لم نعبأ بأن نلاحظ هذا الخطأ الذي وقع فيه (ابن بطريق) إلا لأن المؤرخين الحديثين أخذوا به وظنوه صحيحاً. فإن (جبون) في الفصل الحادي والخمسين يجعل المقوقس «أحد أعيان الأغنياء المصريين» وأنه كان يتطلع إلى الاستقلال في مدة حروب فارس. ثم يقول «إن سوء تصرفه في أمانته عرضه لمقت هرقل». وكذلك يجعل الأستاذ (Bury) المقوقس «قبطياً كان يحكم مصر للملك الفارسي» (.Later Rom. Emp صفحة ٢١٤ الجزء الثاني) .

ويقول إنه بعد ذلك صالح عَمراً كما تبيِّن قول أحد المؤرخين الحديثين عن « البطريق قيرس بالاتفاق مع المقوقس » فالحقيقة أن كشف الغطاء عن حقيقة المقوقس يؤثر أعظم الأثر في تاريخ هذا العصر .

(١) حنا النقيوسي ، صفحة ٥٧٠ .

ومن ذلك نعرف أن مؤرخي العرب ومن قال قولهم إنما يمسخون الحقيقة ويقلبونها قلباً إذ يقولون إن جند الحصن أو كل من كان به كانوا من القبط . فإن القبط لم يكونوا في شيء من القتال ولا الجيوش ، وكان الإضطهاد في مدة السنوات العشر قد شطر مذهبهم وفرّقهم ، فكان منهم من ذهبوا أفراداً وجماعات فهربوا إلى الجبال والكهوف أو أووا إلى الصحراء أو لاذوا بالأديرة الحصينة في الصعيد . وأما أقباط مصر السفلى وبابليون والإسكندرية فقد اضطروا إلى الدخول في مذهب الدولة ولم يغن عنهم شيئاً ما كان في قلوبهم من كره لما دخلوا فيه . وقد كتب مؤرخو العرب بعد الفتح بقرون فكانوا يذكرون جيوش المصريين وقواد المصريين لا يميزون بين القبط والروم ، فكثرت من ذلك زلاتهم وعظم خلطهم . فعلينا أن نبين هنا بياناً لا شك فيه أنه لم يكن في ذلك الوقت شيء اسمه القبط في ميدان النضال ، ولم تكن منهم طائفة لها يد فيه ، بل كان القبط إذ ذاك بمنجاة عنه قد أذلهم (قيرس) وأرغم أنوفهم . فليس من الحق في شيء أن يقول قائل إن القبط كانوا يستطيعون أن يجتمعوا على أمر أو ينزلوا إلى القتال أو يصالحوا العرب .

وكان حرياً بقيرس عند ذلك أن يدرك كيف خذل مصر وأضعفها عن لقاء أعدائها ، مهما كان في قلبه من عوامل الضغن على القبط . فقد أدى عسفه إلى شيء يظنه من يراه توحيداً لمذاهب الدين، وما هو كذلك . فإنه بعسفه قد قطع أسباب المودة بين الحكام والرعية قطعاً ، فما كان له أن يتوقع من القبط خيراً ، بل كان خير ما يقع منهم له أن يعتزلوا جاهمين فينظروا إلى نضال بين طائفتين كلاهما غريب عنهم كريه في أعينهم . لقد كان أمر الروم يضعف وقوة جيوشهم تخور ، وأملهم في النصر وتخليص مصر يخبو شيئاً فشيئاً . أكان هذا ما قصده (قيرس) وسعى إليه ؟ .

كان المقوقس آمناً إلى حين في قصره المنيع تحيط به مياه النيل . وكانت مجانيق الروم أقوى أثراً مما كان يرميه المسلمون إلى الحصن من حجارة وسهام . ولكن ما كانت تلك الحال لتبقى فإن الماء في الخندق كان لا بد له أن

يهبط بعد حين ، وقد أدى صبر العرب وشدة بأسهم في القتال إلى خور في عزيمة من بالحصن واختلاف في رأيهم . فما مضى شهر من الحصار حتى جمع (قيرس) من وثق بهم من رؤوس الحرس ودعا معهم أسقف بابليون الملكاني ، واستشارهم سراً في الأمر وبسط لهم رأيه . وكان ذلك في أوائل شهر أكتوبر سنة ٦٤٠ ؛ وقال لهم إن الدبرة في الحرب كانت عليهم إذ قضى أعداؤهم على أكبر جيوشهم ، ثم أتوا لحصارهم بما لا قبل لهم به ، من قوم أكثر منهم عدداً وأشد في الحرب بأساً . وقال إنه لا يتوقع أن يأتي إليهم مدد يرفع عنهم الحصر قبل مضيِّ أشهر ، وإذا كان الحصن يستطيع المقاومة والصبر وهو أمر لا شك فيه ، فإن عقبى الحرب كانت كذلك لا شك فيها ، وما كانت تلك العقبى إلا وبالاً عليهم . ومنذ كان الأمر كذلك كان خيراً لهم أن يفدوا أنفسهم بالمال فيعطوا أعداءهم مقداراً منه ليرحلوا عنهم ، فإذا هم استطاعوا ذلك وأمكنهم أن يبعدوا العرب عن البلاد بمال يبذلونه لهم كان في ذلك كل الخير، إذ يُخلِّصون مصر فتعود إلى دولة الروم. وجعل قيرس يفتلهم في الذروة والغارب بمثل هذه الحجج يسوقها في بيانه الخالب الذي عرف به ، حتى تبعه من اجتمع عنده من القوم ، فاتفقوا على أن يمضوا في الأمر إذا استطاعوا كما شاء قيرس منهم . ولكنهم رأوا من الحزم ألا يزعجوا أهل الحصن من الجنود وممن كان رأيهم المضي في الحرب إلى أن يفنوا ، فاستقر رأيهم على أن يذهب قيرس وأصحابه تحت ستار الليل إلى جزيرة الروضة بغير أن يحس بهم أحد ، ويبعثوا إلى قائد العرب بما أرادوا فيفاوضوه ولم يطلع على الأمر مطلع[1] .

---

(١) لا حاجة بنا إلى أن نطيل في بيان الأسباب التي دعتنا إلى عدم الأخذ برواية (ابن بطريق) الباطلة وهي أن المقوقس كان يميل إلى القبط فخدع الحراس الروم وأخرجهم خفية من الحصن لكي يسلمهم إلى عمرو وفي ذلك مصلحة القبط وأنه عمل لا آخر له إذا نحن أردنا أن ننقد الروايات المختلفة التي جاءت في متن الكتاب عن هذا الحادث ولكنا نتبين أمرين صحيحين في كل هذه الروايات: (١) إن الذي بدأ المفاوضة هو بطريق أو أسقف. (٢) إن المقوقس خرج إلى جزيرة الروضة في وقت فيضان النيل. وقد اختلف الرواة في أوقات تدخل الأسقف وكذلك قال بعضهم إن الخروج إلى الروضة كان بعد =

تم الأمر بعد ذلك على أبلغ الكتمان ، ففتح الباب الحديدي المفضي إلى النيل واستقل الخارجون السفن من هناك ، فعبروا إلى الجزيرة ونزلوا في الموضع الذي أنشئت فيه فيما بعد دار الصناعة . ولعل (جورج) قائد حرس الحصن كان معهم في تدبيرهم هذا ، ولكنه قد بقي في الحصن حتى إذا ما نذر أحد بخروج قيرس وفشا خبر خيانته في الناس كان هو هناك ليخمد الخبر ويقضي على ما يشاع[1] . وقد أمر قيرس أن ترفع قناطر الحصن حتى يأمن خروج الناس منه إذا هم علموا بخروجه وذعروا من أجله . ولما بلغ جزيرة الروضة[2] أرسل إلى عمرو جماعة كان منهم أسقف (بابليون) فلقيهم عمرو وأكرمهم فأدوا رسالتهم فقالوا :[3] .

= شهر من أول الحصار وقال البعض أنه كان بعد فتح الحصن ولكن الذين يذهبون إلى هذا الرأي الأخير أنفسهم مثل ياقوت والسيوطي يذكرون أن ذلك كان في وقت الفيضان وهذا خطأ إذ أنه ثبت بلا نزاع أن أخذ الحصن كان في أوائل إبريل وهو وقت انحطاط النهر ولكن حدوث المفاوضة في وقت الفيضان قد اتفق فيه الرواة وهذا الاتفاق غير مقصود فهو يدعو إلى تصديق الخبر ويعزز صدق من ذكر من الرواة أن المفاوضة كانت بعد شهر من أول الحصار وقد بدأ الحصار حوالي أواخر أغسطس فبعد ذلك بشهر يكون في أواخر سبتمبر، وعند ذلك يكون النيل حقيقة في أعلى فيضانه وعلى ذلك يكون تاريخ هذا الحادث قد ثبت بدليل لا بأس بقوته.

(١) جاء في المقريزي أن الآراء مختلفة في وجود (جورج) مع المقوقس ويقول السيوطي إنه بقي في الحصن أولاً ثم لحق بالمقوقس.

(٢) يجب أن نذكر أن المجرى الذي في الجانب الشرقي للجزيرة وهو الذي بين الجزيرة والحصن كان عند ذلك في اتساع المجرى الغربي وهذا واضح من كتاب «السفرنامه» وقد جاء فيه صراحة أن هذا كان الحال بعد ٤٠٠ سنة من الفتح (سنة ١٠٤٧) ولكنه يذكر أن التيار في المجرى الشرقي ضعيف وهذا يدل على أن الطين قد بدأ يسده. أما اليوم فالمجرى الشرقي ضيق جداً والنيل يجري كله تقريباً في المجرى الغربي ورأس الجزيرة اليوم من جهة الجنوب في موضعها القديم وقد كانت دائماً تحمى من فعل التيار ببناء سور متين من الحجر. من أجل السفرنامه. (انظر: «Relation du Voy. de Nasiri Khusrau» صفحة ١٥٣).

(٣) قد أخذنا هذا النص عن المقريزي مع أن في آخره شيئاً من الاختلاف عن النص الانجليزي. (المعرّب).

« إنكم قوم قد ولجتم في بلادنا وألححتم على قتالنا وطال مقامكم في أرضنا . وإنما أنتم عصبة يسيرة وقد أظلتكم الروم وجهزوا إليكم ومعهم من العدَّة والسلاح ، وقد أحاط بكم هذا النيل وإنما أنتم أسارى في أيدينا ، فابعثوا إلينا رجالاً منكم نسمع من كلامهم فلعله أن يأتي الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب ، وينقطع عنا وعنكم القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه . ولعلكم أن تندموا إن كان الأمر مخالفاً لطلبتكم »[1] . فلم يبعث عمرو جواب ما أتوا به ، وحبس الرسل عنده يومين حتى يروا حال المسلمين إذ أبيح لهم أن يسيروا في العسكر ويروا ما فيه . ثم بعث عمرو برده مع الرسل وقال : « ليس بيني وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال : إما أن دخلتم في الإسلام فكنتم إخواننا وكان لكم ما لنا ، وإن أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، وإما أن جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وهو أحكم الحاكمين » .

ففرح قيرس لعودة الرسل إذ كان قد خاف عندما حبسهم عمرو ، وجعل يقول لأصحابه أترون أن العرب يقتلون الرسل ويستحلون ذلك في دينهم . ولما جاء الرسل جاءوا وقد وقع في نفوسهم ما عند العرب من بساطة وإيمان فقالوا : « رأينا قوماً الموت أحب إلى أحدهم من الحياة والتواضع أحب إلى أحدهم من الرفعة ، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة . إنما جلوسهم على التراب وأكلهم على ركبهم وأميرهم كواحد منهم . ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ولا

---

(١) هذا الكلام من المقريزي وسنتبع وصفه في أكثر الأحوال. وقد ذكر هو والسيوطي وأبو المحاسن روايتين مختلفتين لذلك الاجتماع فالأولى أن عمراً دخل الحصن ليفاوض وأنه قد دبرت مكيدة للإيقاع به عند خروجه. ولا نشك في تكذيب هذه الرواية ووصفها بأنها اختلاق ووهم. ونقول هنا إن هذه القصة نفسها قد ذكرها (ابن بطريق) عن غزة في فلسطين (انظر كتاب «فتوح مصر» Hamaker صفحة ٨٤ من الذيل). وأما الرواية الثانية فهي التي ذكرناها في متن كتابنا ويجدر بنا أن نذكر هنا أن الرواية الأولى نفسها تذكر أن المفاوضة التي قام بها عمرو في الحصن لم تسفر عن شيء فالروايتان على ذلك متفقتان في شيء واحد وهو أن أول مفاوضة في الصلح سعى إليها الروم لم تنجح .

السيد منهم من العبد ، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد . يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون في صلاتهم »[١] . وقد رأى قيرس مع ما اشترطه العرب من الشروط التي لا هوادة فيها ولا مفاوضة أن يبدأ في ذلك الوقت بعقد الصلح ، إذ كان العرب تحصرهم مياه النيل قبل أن يهبط النهر ويستطيعوا السير والإنتقال ، فيجوسوا خلال البلاد . فأرسل إلى عمرو أن يبعث إليه جماعة من ذوي الرأي ليعاملهم ويتداعى معهم إلى ما عساه يكون فيه صلح ، فبعث عمرو عشرة نفر أحدهم عبادة بن الصامت . وكان عبادة أسود شديداً ، وأمره أن يكون متكلم القوم ، ولا يجيب الروم إلى شيء دعوه إليه إلا إلى إحدى هذه الخصال الثلاث .

فركب العرب السفن إلى الروضة ، فلما دخل عبادة على المقوقس هابه وقال : « نحوا عني ذلك الأسود وقدّموا غيره يكلمني »[٢] فقال العرب جميعاً : « إن هذا الأسود أفضلنا رأياً وعلماً وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا ، وإنما نرجع جميعاً إلى قوله ورأيه ، وقد أمره الأمير دوننا بما أمره ، وأمرنا ألا نخالف رأيه وقوله » ثم قالوا فكان قولهم عجيباً عند المقوقس : إن الأسود والأبيض سواء عندهم لا يفضل أحد أحداً إلا بفضله وعقله وليس بلونه ، فقال المقوقس الرقيق لعبادة أن يتكلم برفق حتى لا يزعجه فقال له عبادة : « إن فيمن خلفت من أصحابي ألف رجل أسود كلهم أشد سواداً مني[٣] . . . وإني ما أهاب مائة رجل من عدوي ، لو استقبلوني جميعاً ، وكذلك أصحابي . وذلك إنما رغبتنا وهمتنا

---

(١) أخذنا هذا النص عن المقريزي لأن المؤلف قال إنه سيتبع وصفه وقد جاء في الأصل الإنجليزي «أنهم يأكلون على (مطاياهم) » فكأنه فهم (ركبهم) «بضم الكاف» بمعنى ما يركب وقد يفهم من اللفظ أنهم بسطاء يأكلون على (ركبهم) «بفتح الكاف» وهم جلوس على الأرض. (المعرّب).

(٢) جاء في الأصل الإنجليزي « نحوا عنّي هذا الأسود فإني لا أقدر أن أكمله » وقد آثرنا أن نجيء برواية المقريزي الذي نقل عنه المؤلف. (المعرّب) .

(٣) جاء في الأصل الإنجليزي «مثلي في السواد» وقد آثرنا نقل ما جاء في المقريزي. (المعرّب).

في الجهاد في الله واتباع رضوانه وليس غزونا عدونا ممن حارب الله لرغبة في دنيا ولا طلب للإستكثار منها . . . . . لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها يسد بها جوعه لليله ونهاره ، وشملة يلتحفها . . . . . . لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم ، ورخاؤها ليس برخاء . إنما النعيم والرخاء في الآخرة[1] . فوقع هذا القول في نفس المقوقس وقال لأصحابه : « هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل . . . إن هذا وأصحابه قد أخرجهم الله لخراب الأرض » ثم أقبل على عبادة فقال : « أيها الرجل الصالح . قد سمعت مقالتك وما ذكرت عنك وعن أصحابك ، ولعمري ما بلغتم ما بلغتم وما ظهرتم على من ظهرتم عليه إلا لحبهم الدنيا ورغبتهم فيها . وقد توجه إلينا لقتالكم من جمع الروم لا يحصى عدده . قوم معروفون بالنجدة والشدة . ما يبالي أحدهم من لقي ولا من قاتل ، وإنا لنعلم أنكم لن تقدروا عليهم ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم[2] . . . ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين دينارين ، ولأميركم مائة دينار ، ولخليفتكم ألف دينار فتقبضونها وتنصرفون إلى بلادكم . . . » .

فقال عبادة: «يا هذا لا تغرنْ نفسك ولا أصحابك. أما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم وأنا لا نقوى عليهم، فلعمري ما كان هذا بالذي تخوفنا به . . . وإن كان ما قلتم حقاً فذلك والله أرغب ما يكون في قتالهم واشتد لحرصنا عليهم ، لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا إذا قدمنا عليه إن قتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا في رضوانه وجنته ، وما شيء أقر لأعيننا ولا أحب لنا من ذلك، وإنا منكم حينئذ لعلى إحدى الحسنيين، إما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا إن ظفرنا بكم، أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا، ولأنها أحب الخصلتين إلينا

(١) عن المقريزي مختصرة بحسب ما يوافق الأصل الإنجليزي . (المعرّب).

(٢) في هذه الكلمة بعض زيادات عن الأصل الإنجليزي لم نستطع حذفها لاتصالها بسائر القول. ولا شك في أن المؤلف نقلَ عن المقريزي نقلاً مبتوراً . (المعرّب).

بعد الاجتهاد منا. وإن الله عز وجل قال لنا في كتابه: ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾ وما منا رجل إلا وهو يدعو ربه صباحاً ومساء أن يرزقه الشهادة وأن لا يرده إلى بلده ولا إلى أرضه ولا إلى أهله وولده، وليس لأحد منا هم فيما خلفه، وقد استودع كل واحد منا ربه أهله وولده، وإنما همنا ما أمامنا... فانظر الذي تريد فبينه لنا، فليس بيننا وبينك خصلة نقبلها منك ولا نجيبك إليها إلا خصلة من ثلاث، فاختر أيتها شئت ولا تطمع نفسك في الباطل. بذلك أمرني الأمير وبها أمره أمير المؤمنين وهو عهد رسول الله ﷺ من قبل إلينا... إلخ»[1]. فأراد (قيرس) أن يستنزله عن شيء أو أن يجعله يقبل شيئاً مما عرضه عليه فلم يقدر على شيء، بل وقع قوله على آذان صماء لما يقول. وقال عبادة يرد عليه بعد أن نفذ صبره ورفع يديه إلى السماء: «لا ورب هذه السماء ورب هذه الأرض ورب كل شيء ما لكم عندنا من خصلة غيرها فاختاروا لأنفسكم»[2].

فاجتمع عند ذلك المقوقس بأصحابه فقالوا: «أما الأمر الأول فلا نجيب إليه أبداً فلن نترك دين المسيح إلى دين لا نعرفه» وبذلك أبوا شرط الإسلام فلم يبق إلا الجزية عن يد وصغار أو الحرب. قالوا: «فإنا إذا أذعنا للمسلمين ودفعنا الجزية لم نعد أن نكون عبيداً وللموت خير من هذا» فقال عبادة لهم: إنهم إن دفعوا الجزية كانوا آمنين على أنفسهم وأموالهم وذراريهم، مسلطين في بلادهم على ما في أيديهم وما يتوارثونه فيما بينهم، وحفظت لهم كنائسهم لا يتعرض لهم أحد في أمور دينهم. فلما قال عبادة ما قال مالت نفس المقوقس (قيرس) إلى الإذعان، فقد كان وقع في قلبه أن المسلمين لا بد منتصرون فذهب ذلك بجرأته وقوة نفسه. ولكن المسيحيين لم يكونوا جميعاً على ما كان عليه بطريق

---

(١) نقلنا نص خطاب عبادة أيضاً عن المقريزي بحسب ما يتفق مع ما أراده المؤلف من المعاني وتركنا ما لم يورده منها. (المعرّب).

(٢) هذا النص الأخير مأخوذ عن رواية ابن عبد الحكم في كتاب أبي المحاسن «النجوم الزاهرة». (المعرّب).

الإسكندرية الرومي، ويلوح لنا أن (جورج) قائد جنود الحصن أتى عند ذلك فلحق بالمجتمعين، ولقي المقوقس من أصحابه عزماً شديداً على القتال ورفض ما كان يراه من الإذعان. وهنا ينسدل ستار على الحوادث كما يحدث في كثير من الأحيان في تاريخ هذا العصر. فلم يبق لنا إلا أن نتلمس ما كان ونتحسس أخباره من وراء ذلك الستار(١).

ويظهر لنا أن كبار الروم عندما اختلف رأيهم على قبول شروط العرب أو رفضها طلبوا أن يهادنهم العرب شهراً ليروا فيه رأيه، فأجابهم عمرو

(١) لا نجد مثلاً أوضح في دلالته على خلط كتاب العرب من وصفهم نهاية هذا الاجتماع (ونحن مضطرون للاعتماد عليهم وحدهم لأن كتاب حنا لا يرد فيه شيء عن ذلك) فقد قال المقريزي إن شروط عمرو لم تقبل وإن العرب ألحوا في الحصار وإن الحصن فتح في أيام الفيضان ثم حمل المقوقس أصحابه على الموافقة على رأيه من صلح العرب. وكتب إلى عمرو أن الروم والقبط قد أبوا الموافقة من قبل ثم عادوا فرضوا بدفع الجزية. ولكن من الواضح أن ترتيب الحوادث ههنا ترتيب فاسد فإن الحصن قاوم إلى شهر إبريل وقد جاء مثل هذا الخبر في كتاب أبي المحاسن ولكنه يذكر أن المقوقس عرض الصلح بإسم القبط ولكن ذلك كان عن غير رضى منهم فأبوا أن يقروه فعاد العرب إلى الحصار وفتح الحصن وقتلت فيه مقتلة عظيمة. وقال إن ذلك كان في وقت الفيضان أيضاً ثم تم الصلح بعد ذلك. وأما ياقوت فإنه أوضح في قوله فقال عند ذكر الاجتماع الذي كان مع عبادة إن المقوقس صالح عمراً عن القبط والروم وإنه جعل أمر الروم خاصة إلى ملك الروم فأرسل إليه عقد الصلح. ثم قال إن أهل العلم من المصريين في أيامه يقولون إن الأمر لم يتم حتى قابل عبادة المقوقس. ولكن ياقوت نفسه يقول إن فتح الحصن كان عنوة في وقت الفيضان وإن مقابلة عبادة للمقوقس وقعت بعد زمن يسير من أول الحصار. فكل من هذه الروايات تختلف عن الحقيقة المعروفة في شيء أو أشياء ولكنا نستخلص منها: (١) إن المقابلة كانت في وقت فيضان النيل (في أوائل أكتوبر). (٢) إنها انتهت باختلاف في الرأي وعاد العرب إلى الحرب. (٣) إن الدائرة كانت على الروم فجعلتهم يفكرون في العودة إلى المفاوضة. (٤) أنه قد عقد بعد ذلك صلح وجعل رهن إقرار الامبراطور وأرسل إليه بغير إبطاء لإقراره.

ونعلم أن هرقل أبى ذلك الصلح وقد ذكر مؤرخو العرب ذلك ولكنهم يذكرونه عند ذكر فتح الإسكندرية وهذا خطأ منهم لأسباب: (١) إن هرقل كان قد مات عندما فتحت الإسكندرية (٢) أن صلح الإسكندرية كان عن أمر الملك الحاكم عند ذلك. وقد ذكر =

جـوابـاً قـاطعـاً إذ قـال إنـه لن يمهلهم أكثـر من أيـام ثـلاثـة. غيـر أن عمل المقوقس لم يلبث أن ذاع بين النـاس، فلما رجـع أصحابـه إلى الحصن عـائدين من الـروضة إذا بـالناس قـد ثار ثـائرهم على المقـوقس، وأبـى جنـد الإمبراطور إلا القتال، وظهر أمر الذين كانوا يأبون الإذعان، واستقر الأمر على هذا سريعاً، فما انتهت أيـام الهدنـة الثلاثـة حتى أخذ أهـل الحصن يتجهزون للخروج إلى المحاصـرين يناجـزونهم. ولم يبعثوا رداً إلى عمـرو. وفيما كـان عمرو في اليوم الرابع بعد انتهاء الهدنة يفكر فيما يصنع إذا بالروم قد خرجوا إليه فوق قناطرهم، فأخذوا جنود المسلمين على غرة. غير أن تلك البغتة لم تذهل العرب فأسرعوا إلى سـلاحهم وقاتلوا الـروم قتالاً شـديداً وقـاتل الـروم يومئـذ مستبسلين. غير أن العرب تـواردوا إليهم منذ نـذروا بهم فتكاثـروا عليهم، فما استـطاعوا إلا أن يتـراجعـوا حتى دخلوا إلى الحصن بعـد أن قتلت منهم مقتلة عظيمة.

أما المقوقس فإنه مـا زال رأيه من الإذعـان والتسليم للعرب مستقـراً في قلبه. وكان مشئوماً مشترك العقل، فـرأى في انهزام الـروم فرصـة له إذ أن من عصوه ونبذوا رأيه احتكموا إلى السيف وحاربوا مستبسلين كما ينبغي لجنود الروم أن يحاربوا، وأخذوا عدوهم على غرة، ولكن ذلك لم يغنهم شيئاً بل أخـذتهم سيوف عدوهم. ورأى المقوقس وهو خليفة الإمبراطور على مصر أن النصر على هؤلاء العرب لن يتأتى له، وزادته تلك الهزيمة الجديدة يقيناً أنه لن يستطيع طرد

= البلاذري في أثناء تلخيصه المضطرب للروايات المختلفة رواية صحيحة فقال إن الصلح الذي عقـده عمرو مـع المقوقس لم يقـره هرقـل وأرسـل جيشـاً إلى الإسكنـدريـة وأقفلت أبـوابهـا واستعدت للحصار. وكذلك يرد ذكر الصلح بين عمرو والمقوقس وأنه كان في بابليون في الأخبار المضطربة في كتاب (ابن بطريق) فذلك الصلح يمكن أن نعتبره صحيحاً، ولكننا لا نعرف الظروف الحقيقية التي أحاطت به عنـد عقده، إذ قـد ضاعت أخبـارها. وقـد جاء ذكـر الهجوم بعد هدنة ثلاثة أيام في الطبري ولكنه يخطىء مثل سائر مؤرخي العرب بأنـه لم يجعل مدة فاصلة بين الهدنة وبين فتح الحصن في النهاية.

العـدو من البلاد. ثم رأى من كـانوا يعصـون رأيه وينـادون بالقتـال قد ضعفت نفوسهم، فلم يلق منهم بعد عصياناً، وأذعنوا له مرغمين جاهمين، على أن يعيد الكرة على عمرو فيبعث إليه في أمر الصلح. وإنه لمن العجيب أن شروط عمرو لم تتبدل، ولا يستطيع قائل أن يقول إن العرب كانوا يبدلون شرطهم ولم يفعلوا ذلك في أول الحرب ولا في آخرها. وكـانت الخصلة التي اختارهـا الروم هي الجزية والإذعان. فعقد الصلح على أن يبعث به إلى الإمبراطور فإذا أقره نفذ، وأخذ قيرس على نفسه أن يبعث به إلى هـرقل. واتفق الـروم والعرب على أن تبقى الجيوش حيث هي إلى أن يجيء رد هرقل، ولا سيما الحصن فقـد اتفقنا على أن يبقى مع الروم إلى أن يقر هرقل الصلح.

سافر المقوقس عند ذلك مسرعاً في النهر حتى بلغ الإسكندرية، وبادر بأن بعث إلى الإمبراطور كتباً يبين فيها ما كان منه، ويعتذر عنه بأن الحاجة ألجـأته إليـه من صلح العرب، ويسـأله أن يقـر الصلح حتى يكفي مصر شـر الحـرب ووبالها. وليس بعجيب أن يكون هرقل قد حار في أمر تلك الكتب التي جاءته من المقوقس، فإنها لا تبين إذا كان الصلح خاصاً بحصن بابليون، أو أنـه كان صلحاً على ترك بلاد مصر جميعها حتى الإسكندرية للعرب، ولا تبين هل يبقى العرب في البلاد بعـد أخذ الجـزية، أو يـرحلون عنها. فهـل كان معنى ذلـك الصلح نزع مصر من دولة الروم وإسلامها لأعداء المسيحية؟ لقد كان الامبراطور منذ شهور يلوم قواده ولا سيما (قيرس) خليفته على مصر لأنهم فرطوا في الأمر، حتى استطاعت فئة قليلة من العرب أن ترفـع ألويتهـا في مصر وتغلب جيـوش الدولة وتحادها. فإذا به وقد بعث إليه بصلح ليس يدري هل معناه رشوة العدو بمال يأخذه على أن يخرج عن تلك البلاد، أم معناه إسلامها له فيبقى ذلك العدو سيد الأرض يجبي له خراجها ويتنعم بقمحها وبخيراتها. عجب الامبراطور ولـم يـدر ما الـذي أدى إلى ذلك الإذعـان وعزم على أن يـدعو (قيـرس) المقـوقس ليحاسبه على ما كان منه في مصر.

فبعث إليه رسالة يأمره فيها بأن يأتي إليه على عجل. ولعل ذلك كان في

وسط نوفمبر. ولم تكن الرسالة مما يطمئن إليه القلب. ولعل المقوقس قد أحس بما أجرم وخشي العاقبة منذ جهز في نفسه ما يقوله لمولاه إذا هو حاسبه. فلم يكن لأحد سواه علم بما أدى من أمانته وما آختان منها، ولا بما اتبع من أوامر مولاه بنصها أو بالمقصود منها وما عصاه فيها في مدة ولايته، في تلك السنين العشر ،سني العسف والاضطهاد. ولكن شيئاً واحداً لم يخف عن أحد، وذلك أنه قد جاء إلى مصر يقصد إلى قصد ديني فلم يوفق فيه، بل أخفق إحفاقاً وبيلاً، وجر إخفاقه هذا على حال مصر السياسية نكبة جليلة وخطباً عظيماً. ولا بد أن يكون ذلك الرجل قد أحس بأن إسراعه إلى اليأس من أمر الروم وإقباله على مفاوضة العدو ـ لا بل سعيه إلى ذلك سعياً حثيثاً ـ كل ذلك وصمه بمظنة السوء وجلله بشبهة الخيانة. وما كان ليستطيع النجاة من مثل هذا الفكر مهما صور لنفسه من حسن قصده، ومهما خادعها بتزويق نيته وتزيينها. لا بد أن يكون قلب ذلك الرجل قد جاش بمثل هذه الأمور عندما بلغ حضرة الإمبراطور في القسطنطينية. ولقي الإمبراطور وما كان أهوله من لقاء، إذ لم يكن له بد من أن يقرّ بأنه رضي بأن يلقي أموال مصر إلى العرب[1]. على أنه مع ذلك جعل يدافع عن فعله، ولعل ذلك كان خداعاً وتصنعاً، فقال إن العرب قد يحملون على الخروج بعد من مصر، وإن الجزية التي دفعتها إليهم يسهل عليه أن يجبي مقدارها من متاجر الإسكندرية وبضائعها، فيعوض ذلك ما خسرته خزائن الدولة. وأما فيما سوى ذلك فقد كان المقوقس لا يرى موضعاً للأمان، إذ كان العرب قوماً لا يشبهون سائر الناس في شيء. فهم عند قولهم لا يعبأون بأمر من أمور هذه الحياة الدنيا ولا متاعها، لا يطلبون منها إلا لقمة يسدون بها رمقهم وشملة يسترون بها أبدانهم. فهم «قوم الموت» يرون ربحاً في أن يقتلوا، لأنهم

(١) هذه هي الحقيقة التي نقلها (تيوفانز) عن موضعها وأولها فأساء تأويلها فكانت أساس قصة الجزية التي دفعها (قيرس) للعرب قبل فتحهم كيما يشتري سلامته من غزوهم وإن خبر إرسال (منويل) ليستمر في حربهم وهو خبر الحادث الذي جعله (تيوفانز) يقع في ذلك الوقت إنما هو حادث وقع بعد ذلك بزمن طويل وبعد أن مات هرقل بمدة طويلة وسيأتي ذكر هذا في أواخر هذا الكتاب.

يرون في ذلك الشهادة التي ينالون بها الجنة، في حين أن الروم يحبون متاع الحياة الدنيا ويحرصون عليه. وقال للإمبراطور لو رأيت هؤلاء العرب وبلاءهم في القتال لعرفت أنهم قوم لا يغلبون. فليس لنا من سبيل خير من الصلح مع عمرو قبل أن يفتح حصن بابليون عنوة وتصبح البلاد غنيمة له.

بمثل هذه الأقوال أدلى المقوقس بحجته، وقد جاء في كتاب (نيقفوروس) أن الإمبراطور قبل أن يبعث إلى (قيرس) ليسير إليه كان قد وجه إليه (مارينوس) ليشترك معه في الرأي، لعلهما يجدان سبيلاً على العرب، وجاء فيه أيضاً أن (قيرس) عندما بعث إلى الإمبراطور يعرض عليه دفع الجزية طلب إليه أن يزوج عمرو بن العاص من (أودوقيا) أو إحدى بناته الأخرى، فإذا هو رضي بذلك تنصّر ابن العاص. وتلك لعمري قصة لا تصدق، فما هي إلا عودة ضالة إلى قصة سابقة قيلت منذ سنين، ألا وهي قصة تزويج (أودوقيا) لملك الخزر. فما كان (قيرس) ليجهل ما كان عليه المسلمون في إسلامهم من ثبات لا زعزعة به، واعتقاد لا هوادة فيه. وإن قصة يقال فيها إن عمرو بن العاص يتنصر لهي قصة ضل فيها الوهم ضلالاً بعيداً. وليس ثمة أثر لمثل هذا الخبر في كتاب آخر كائناً ما كان. ولكن هرقل ثار ثائرة بغير أن يعرض عليه المقوقس أمر ابنته وتزويجها. وما كان في حاجة إلى مثل هذا ليتقد غضبه، فقد دهاه ما كان من أمر جنده، وعظم غيظه أن ينهزم منهم مائة ألف ليس أمامهم من العرب إلا إثنا عشر ألفاً. فاتهم المقوقس ـ ولا بأس أن نسميه بهذا الاسم حتى في عاصمة الروم ـ اتهمه بأنه خان الدولة وتخلى العرب عنها. ثم حكم عليه بأنه مرتكب مجرم، وما كان دونه إلا الموت جزاء ذنبه. ثم شرع يقرعه ويؤنبه على ما كان منه قائلاً: إنه لم يكن أكثر غناءً من بعض فلاحي مصر، ونعته بالجبن والكفر وأسلمه إلى حاكم المدينة فشهره وأوقع به المهانة[1] ثم نفاه من بلاده طريداً.

ولا بد أن رفض الإمبراطور للصلح كان في هذه الأثناء قد بلغ العرب وهم

---

(١) جاء في كتاب (نيقفوروس) لفظ (أسيئت معاملته[٣٦]*) والظاهر أن معناه ما ذكرناه وليس معناه التعذيب، كما جاء في كتاب (لوكيان).

في حصار الحصن، قرب نهاية عام ٦٤٠؛ وانتهى بذلك أمر الهدنة وعاد القتال، وعض الفريقان على النواجذ من الأضراس. وكان النيل عتد ذلك يهبط سريعاً وهبطت معه المياه التي في الخندق، وكلما هبطت خبت معها آمال من في الحصن إن لم تخب شجاعتهم. فلما فرغ الخندق من مائة استعاض الروم عنه بأن رموا في قاعة حسك الحديد، وجعلوا ذلك الحسك كثيفاً عند مدخل أبواب الحصن. ولا بد قد كان المسلمون لقاء ذلك يسعون إلى طم الخندق وهدم جوانبه فيه حتى ينفذوا منه. غير أننا لا نعلم إلا قليلاً مما كان في أثناء ذلك الحصار، فلا نجد غير ذكر الترامي بالآلات والضرب بالدبابات وخروج جنود الحصن إلى العرب وهجوم العرب على من بالحصن، ولكن من الجلي أن العرب كانوا لا علم لهم بفنون الحصار وآلاته، ولذلك كان أثر حصارهم في الحصن ضئيلاً بطيئاً. ولسنا ندري لعل حصارهم وإن كانوا ضيقوا به على الحصن من جانب البر لم يكن ذا أثر من جانب النهر. ولكن يلوح لنا أن العرب لقوا شيئاً من المساعدة في ذلك الحصار من جماعة لعلهم من أهل الفيوم بعد فتحها، وكانوا أحابيش من الحزبين الأخضر والأزرق[1] فكانت عصبة من الحزب الأخضر يقودها (ميناس)، وأخرى من الأزرق يقودها (كزماس بن صمويل) تعبران النهر ليلاً إلى الروضة فتنهبان فيها، أو تهبطان على ما قد يكون بالنهر من سفن الروم أثناء عبورها إلى الحصن أو رسوها إلى جانب الباب الحديدي، فكانت هذه الغزوات تؤذي مصلحة الحصن أذى كبيراً وتنقص من هيبة الروم وسلطانهم في النهر.

ولم يكن حصار المسلمين من جانب البر نفسه على ما ينبغي من الحذر واليقظة، فقد خرج مرة جماعة من حرس الحصن ففاجأوا عبادة والزبير[2] في صلاتهما، فوثب الرجلان إلى فرسيهما وحملا على الروم. فلما رأى الروم أن

---

(١) حنا النقيوسي صفحة ٥٦٨.

(٢) لم يرد في كتاب مما رأينا ذكر لابن الزبير بل ترد القصة خاصة بعبادة. وقد ذكر المؤلف أنه أخذ القصة عن (أبي المحاسن) ولكنا راجعنا كتابه «النجوم الزاهرة» فلم نجد إلا ذكر «عبادة ابن الصامت» وحده. (المعرّب).

العـدو لاحق بهم جعلوا يلقون منـاطقهم وحليتهم ليشغلوه بذلـك عن طلبهم، وعدوهم لا يلتفت إليها حتى دخلوا الحصن، وأصيب عبـادة إصابـة خفيفة من حجر رمي به من فوق الحصن[1]. فرجع القائدان المسلمان ولكنهمـا لـم يلتفتا إلى ما ألقاه الروم، بل عـاد إلى موضعهمـا فأتمـا صلاتهمـا وخرج الـروم إلى متاعهم يجمعونه.

وقد روى الواقدي رواية عن قتـال في موضـع آخر، قـال: إن المسلمين كانوا في يوم جمعة قد اجتمعوا للصلاة، وسار بينهم عمرو بن العاص يحرضهم على القتال، فرآهم ربيئة الروم وحمل إلى قومـه في الحصن خبر اجتمـاعهم. فلما انتهى عمرو من خطبته نـزل عن منصته السـاذجة التي كـان قائمـاً يخطب عليها، وأم المسلمين في الصلاة. وفيما هم كذلك هبط عليهم جنود الروم بغتة وهـم عزل ليس معهم السلاح فأوقعوا بهم[2].

ولما مضى الشتاء قل خروج الـروم من الحصن وقتالهم للمسلمين، في حين كثـر هجوم المسلمين على الحصن وزاد شـدّة، واشتدّت وطـأة الحراسـة والقتال على الروم وخارت قواهم عن الدفاع. على أن حصونهم ما زالت على عهدها لم يصدع الحصار منها إلا قليلاً. ثم فتك المرض بأهل الحصن[3] فقل

---

(١) جاء هذا الخبر في كتاب (أبـي المحاسن) وهو أقرب إلى التصديق من قول المقريـزي إذ قال إن جنود الروم عادوا إلى الحصن فرماهم عبادة من فوق السـور وعاد بعـد ذلك. (المؤلف).

(١-) فهم المؤلف أن عبارة المقريزي يقصد بها أن عبادة هو الذي رمى بـالحجارة من فـوق الحصن مـع أن العبارة في المقـريزي هي: «حتى دخلوا الحصن ورمى عبـادة من فوق الحصن بالحجارة فرجع» ومن هذا يتضح أنه لا فرق بين ما جاء في أبـي المحاسن وما جاء في المقريزي وإنما الخطأ ناشىء من قراءة «ورمى عبادة» بصيغة البناء للمعلوم مع أن الواضح أن الفعل «رمى» مبني للمجهول. (المعرّب).

(٢) (Ed. Hamaker. P. 104. Notes) وقد جاء في متن ذلك الكتاب صفحة ٥٥ أسماء كثيرين من المسلمين الذين استشهدوا في أثناء الحصار.

(٣) جاء ذكر هذا المرض في كتاب ياقوت ولنا أن نصدق هذا الخبر مع أنه مقرون بخبر آخر =

عددهم ولم يأتهم المدد، يتطلع حراسهم وهم فوق صروحهم إلى ما حولهم من الآفاق فلا يجدون أثراً يلوح من رماح الروم ودروعهم طالعاً من بين قباب الأديرة البيضاء التي تملأ السهل في شمال الحصن. وكان النهر عند ذلك قد هبط وجفت الأرض، وإذا كان ثم أمل في قدوم جيش من الروم لإمداد الحصن فقد كان ذلك وقته وتلك فرصته.

ولعل ذلك هو الوقت الذي بلغ عمراً أن الروم قد أعدّوا جيشاً في مصر السفلى بين فرعي النيل، وجعلوا عليه (تيودور). فلم يُقم عمرو حتى يقبل عليه العدو، بل ترك من جيشه جماعة تكون ردءاً عند الحصن، ثم سار على الفرع الشرقي للنيل وعبر النهر عند أثريب وتوجه نحو سمنود. فبعث (تيودور) بإثنين من قواده ليدافعا عن المدينة فاتصلا بجنودهما بمن كان في المدينة من الحرس، غير أن هؤلاء لم يرضوا أن يتبعوا الروم في قتال العرب. والتقى الجمعان مع هذا على كثب من سمنود ودارت الدائرة على المسلمين وعلى من كان معهم ممن أسلم من النصارى، وقتل من هؤلاء وأولئك خلق كثير. ورأى عمرو أنه لن يستطيع أن يصيب البلاد الشمالية بشيء كبير، إذ كانت تحميها الخنادق والترع دون جرائد الخيل العربية. فعاد أدراجه إلى بوصير وجعل حولها الحصون، ثم رمم حصون (أثريب) و(منوف) وجعل فيها مسالح من المسلمين ثم عاد إلى حصار الحصن. ولكن (تيودور) لم يستطع أن يستفيد شيئاً من وراء انتصاره في ذلك القتال ولم يقدر على أن يبعث من جنده إمداداً يبلغ الحصن أو يقترب منه[1].

= لا يمكن تصديقه وهو أن عدد الذين قتلوا داخل الحصن بسهام المسلمين كان ١٢,٣٠٠.

(١) هذه القصة ليست خالية من الشك فقد جاءت في كتاب حنا النقيوسي في الفصل الرابع عشر بعد المائة وهو مضطرب كل الاضطراب فقد جاء فيه أن عمراً سار في وجهة ذلك «وترك في حصن بابليون قوة كبيرة» ثم جاء فيه أن الروم كانوا مالكين لمدينة (نقيوس). وقد رأى زوتنبرج أن الواجب تغيير النص حتى يكون معناه «عند حصن بابليون» أو «أمام حصن بابليون» بدل أن يكون «في حصن بابليون» وهذا خير سبيل للخروج من هذه الصعوبة فإذا لم يكن ذلك مقبولاً كان لا بد لنا من أن نقول إن سير عمرو في هذا الوجه =

ولعل عجز (تيودور) وقعوده عن مواصلة الحرب كانا عن خيانة أصحابه وتركهم له. ولسنا ندري ما كان حال الجند الذين كانوا حرساً في المدائن، فلا نعلم كم كان منهم من القبط وكم كان من الروم. بل إن المؤرخين ينسون أمراً فلا يذكرون عنه شيئاً، وذلك أن الروم لا بد قد امتزجوا بالمصريين في مدة القرون التي أقاموا فيها بمصر، واختلطت دماؤهم وتقاربت أسباب التواصل بينهم، وكان القبط يكرهون الدولة ولهم في ذلك كل العذر، وكان بعض الروم لم يتغلغل الولاء لدولتهم في قلوبهم، فكانوا لا يتورعون عن مساعدة العرب إذا ما رأوا في ذلك نفعاً لأنفسهم، يفعلون ذلك حتى ولو لم يدفعهم دافع من اختلاف في الدين مع قومهم. وإنا موردون هنا خبرين من أخبار أمثال هؤلاء وقعاً في هذا الحين. فالأولى قصة قائد اسمه (كلاجى) لحق بالمسلمين وغادر قومه، فسعى (تيودور) حتى لقيه وجعل يثنيه عما هو فيه بالحجة الدامغة، حتى حمله على الرجوع وكان قد ترك زوجه وأمه رهينتين في الإسكندرية، فافتداهما واشترى عفو (تيودور) عنه بمبلغ من المال، ثم تسلل بجنوده تحت الليل من بين عسكر المسلمين ولحق (بتيودور)، فأرسله إلى (نقيوس) ممداً لمن فيها من الجند مع القائد (دومنتيانوس). وأما الخبر الآخر فقصة الخائن التائب (سبنديس)[1] فإنه مثل (كلاجي) تسلل من عسكر المسلمين في الليل وسار إلى دمياط وكان عليها قائد اسمه (حنا)، فأرسله حنا إلى نائب الحاكم بالإسكندرية وبعث معه بكتاب. وقد أقر (سبنديس) بذنبه والدموع تنحدر من مآقيه، وقال «لقد كان مني ما كان منذ ألحق حنا بي العار بأن ضرب وجهي ولم يرع حرمه سني، فلحقت بالعرب بعد أن كنت خادم

= كان فيما بين سقوط حصن بابليون وسقوط (نقيوس) ولكن المدة بين هذين الحادثين مدة قصيرة لا تكفي لذلك، وعلى هذا فإنا نرى أن هذا الرأي يكاد يكون غير ممكن فالحقيقة أن ذكر الحوادث في هذا الفصل والفصول التي بعده من كتاب حنا مضطرب كل الاضطراب مقلوب رأساً على عقب ويكاد يكون إرجاع أخبارها إلى ترتيب صحيح أمراً مستحيلاً.

(١) هذه الأسماء بلا شك محرفة ولكنا نوردها هنا كما جاءت في كتاب حنا النقيوسي.

الدولة الأمين»، وفي هذا ما يدل على ما كانت عليه أسباب الوطنية من الوهن وما كان عليه القوم من الضعف في أمر دينهم.

ومر اليوم بعد اليوم ولا شيء يبشر أهل الحصن ولا كتاب يدخل إلى قلوبهم الرجاء. فلم تبلغهم إلا أنباء سوء وشؤم. فقد بلغهم نبأ غضب هرقل على المقوقس، ونقضه لأمر الصلح وحكمه عليه بالنفي، ولكن لم يبعث الإمبراطور أحداً من جنوده الذين كان بهم معجباً، ولم تغن عن الحصن شيئاً أوامره التي بعث بها إلى قواده. غير أن الناس ما زالوا يعللون النفس بالآمال إلى أن سمعوا يوماً تكبيراً عالياً في عسكر المسلمين، وذلك في أوائل شهر مارس سنة ٦٤١. فلما استطلعوا الأمر عرفوا أن هرقل قد مات. فخارت عند ذلك نفوسهم. ولم يكن ذلك لأنهم صوروا لأنفسهم ما لا بد أن يعقب موته من الاضطراب في الدولة، بل لأنهم قد ذهب عنهم ملكهم الشيخ وكان باسلاً في الحرب، فكان في ذهابه عنهم ذهاب لأمرهم وخور في عزيمتهم. وقد قال أحد مؤرخي العرب «فكسر الله الروم بموته»[1] وحسبنا بقوله هذا دليلاً على ما أحدثه موته من الأثر في جند مصر. وأما العرب فقد زادهم نبأ موته شدة وجرأة وضاعف من همتهم في فتح الحصن.

ولكن قد بقي الحصن بعد ذلك شهراً لا يسلم، فلما أبطأ الفتح قيل إن الزبير وهب الله نفسه وأقبل مع جماعة يقودهم لفتح الحصن بعد أن أعد لذلك الأمر عدته. وكان الخندق قد طم جزء منه استعداداً للهجوم، ولم يعق العرب عن ذلك دفاع أهل الحصن، وكانوا يفتك بهم المرض ويقعد بهم اليأس. ولكن

(١) عن السيوطي وهو يأتي بالتاريخ المخطىء أي سنة ١٩ للهجرة ثم يذكر التاريخ الصحيح رواية عن الليث وهو عام ٢٠ للهجرة (٦٤١ للميلاد) ويورد (مكين) نفس القول ويخطىء الخطأ عينه في التاريخ وهو مثل السيوطي يقول إن أخبار موت هرقل جاءت في أثناء الحصار بالإسكندرية بدل (بابليون). وقد مات هرقل في ١١ فبراير سنة ٦٤١ أي قبل بدء حصار الإسكندرية بشهور ويخطىء المقريزي نفس الخطأ ولكنه يقول «واستأسدت العرب عند ذلك وألحت بالقتال على أهل الإسكندرية».

ساعة الهجوم بقيت سراً؛ فلما جاء وقتها أقبل العرب سراعاً تحت جنح الليل[1] ، ووضع الزبير سلماً على السور ولم يفطن إليه أحد[2] ، فما شعروا إلا والبطل العربي على رأس الحصن يكبر وسيفه في يده . وتحامل الناس إليه من داخل الحصن ، غير أن السهام أمطرتهم من العرب في خارجه ، واستطاع بذلك أصحاب الزبير أن يصلوا إليه فوق السلم ويطأوا الأسوار بأقدامهم . والظاهر أن الروم كانوا يتوقعون هجوم العرب من ذلك الجانب ، فبنوا حائطاً تعترض الممشى فوق السور من جانبي ذلك الموضع ، فلما جاء العرب الذين صعدوا إلى الحصن وأناموا من كان هناك من حرسه وملكوا رأسه، ألفوا طريقهم مسدودة يعترضها ذلك الحائط، فلم يجدوا سبيلاً إلى السلم ليهبطوا منه إلى قلب

(١) اليعقوبي هو المؤرخ الوحيد الذي يذكر أن الهجوم كان بالليل. انظر «Ibn Wâdhih qui dicitur al Ja'cûbî Historiae» (طبعة M. T. Houtsma الجزء الثاني صفحة ١٦٨) .

(٢) ليس من السهل أن نعرف في أي موضع وضع سلم العرب فإن المقريزي وأبا المحاسن يذكران أنه كان بقرب الموضع الذي كان معروفاً في أيامهما بإسم «سوق الحمام» ويقول ياقوت إنه كان بقرب الموضع الذي بنى فيه فيما بعد «بيت أبي صالح الحراني» بقرب حمامات «أبي نصر السراج» بجوار السوق المتقدم الذكر. ويقول ابن بطريق إنه كان بجوار سوق الحمام ثم يقول إنه كان في الجانب الجنوبي من الحصن وهو تفصيل يتفق مع ما قاله البلاذري فإن هذا المؤرخ بعد أن وصف مجيء الزبير وهو بالطبع آت من الشمال يقول إنه وضع السلم على «الجانب الآخر» أي الجنوبي ولكن الموضع المسمى «سوق الحمام» كان في الغالب جزءاً من مدينة الفسطاط وقد زالت الآن زوالاً تاماً. والظاهر لنا أن الهجوم كان على مقربة من الركن الجنوبي الغربي من الحصن ولا تزال الأسوار هناك قائمة.

ولا شك في هذه الحادثة في نظرنا فالبلاذري يذكر أنه عند اختطاط الفسطاط بنى الزبير لنفسه بيتاً بها فورثه ابنه وقال انه لا يزال فيه السلم الذي صعد عليه الحصن (وذلك في القرن التاسع). ويقول ياقوت إنه يقال إن سلم الزبير كان محفوظاً في منزل بسوق وردان حتى احترق المنزل في سنة ٣٩٠ (حوالي سنة ١٠٠٠ للميلاد).

ويذكر ياقوت سلماً آخر ويقول إن شرحبيل بن حجيرة المرادي صعد عليه في موضع بقرب «شارع الزمارين» ولكن هذه الدلالة قد ضاعت مع مدينة الفسطاط.

الحصن. ورأوا أنفسهم قد بلغوا رأس الأسوار ثم لا سبيل لهم وراء ذلك، وكانت تلك فرصة للمدافعين ولو كان في قلوبهم بقية من القوة لاستطاعوا أن يرموهم بسهامهم، فيردوا ذلك النفر أو يقضوا عليهم. ولكنهم ما كانوا ليفعلوا شيئاً من ذلك وقد بلغت أرواحهم التراقي، فاجتمع كبارهم على عجل في أول الصباح الباكر فسألوا عمراً الصلح، وعرض (جورج) قائد الجند في الحصن أن يسلم على أن يأمن كل من هناك من الجند على أنفسهم. فقبل عمرو منهم الصلح وخالفه الزبير خلافاً شديداً في ذلك، وقال له إنه كان على وشك أن يفتح الحصن عنوة، وقال «لو صبرت قليلاً لنزلت من السور إلى داخل الحصن ولكان الأمر على ما نشتهي». ولكن عمراً لم يلتفت إلى ما قاله وكتب عهد الصلح على أن يخرج الجند من الحصن في ثلاثة أيام، فينزلوا بالنهر ويحملوا ما يلزم لهم من القوت لبضعة أيام، وأما الحصن وما فيه من الذخائر وآلات الحرب فيأخذ العرب كل ذلك[1] ويدفع أهل المدينة للمسلمين الجزاء.

---

(١) كان من أصعب الأمور أن تؤلف قصة لفتح بابليون فإن خبر صعود الزبير أسوار الحصن جاءت أولاً من ابن عبد الحكم ولكن مؤرخي العرب غيروها وبدلوا فيها حتى خرجوا بها إلى حد السخف فيقول المقريزي إن الروم قد هربوا عندما سمعوا صياح المسلمين وفتح الزبير الباب فدخله العرب فخاف المقوقس وعرض الصلح ودفع الجزية. على أن المقوقس لم يكن هناك عند ذلك وليس من المعقول أن يفاوض في الصلح لو فتح الحصن عنوة. وقد روى أبو المحاسن القصة على هذه الصورة عينها والسيوطي مثلهما في الخلط فإنه يذكر أن المسلمين لما دخلوا الحصن أرسل المقوقس إلى عمرو يعرض عليه الصلح ولكن الرواية التي ذكرناها هنا مأخوذة عن الطبري وإنها لواضحة وقريبة إلى الذهن فلسنا نتردد في قبولها ولو أن ذلك المؤرخ قد خلط في كثير من أخبار الفتح. ويجدر بنا أن نذكر أن المؤرخين متفقون على أن مدة الحصار كانت سبعة أشهر في حين أنهم يختلفون في ذكر التسليم ويخلطون بينه وبين تاريخ الصلح الذي عقده (قيرس) ولم يقره الامبراطور. وعلى ذلك يجعل ذلك التاريخ في وقت فيضان النيل وقد ضل (Weil) في هذا الأمر في كتابه Geschichte der Chalifen فهو يجعل الفتح في وقت الفيضان وينقض قول القائلين إن مدة الحصار كانت سبعة أشهر. ولكن تواريخه كلها مخلطة فمثلاً يقول إن عمراً وصل إلى بابليون في يناير. ورواية الطبري يتممها ما جاء في كتاب (حنا =

وكانت حملة العرب الأخيرة على الحصن في يوم الجمعة السابق لعيد الفصح وذلك في السادس من أبريل سنة ٦٤١ وكان خروج الروم منه في يوم الإثنين وهو عيد الفصح(١). وفي مدّة تلك الأيام الثلاثة جمع الروم السفن من جزيرة الروضة ووضعوا فيها المؤونة وأخذوا في التجهز للهبوط في النيل إلى مصر السفلى. ولقد كان أشدّ لحزن جيش المسيحيين أن آخر يوم لهم في الحصن هو يوم الفصح (يوم القيامة)، وكأننا بهم وقد اجتمعوا في الكنائس قبل أن يخرجوا والحزن سائد عليهم والذل ضارب فيهم لما أصابهم من الهزيمة على يد المسلمين. ويجدر بنا أن نذكر هنا أن كبار الروم لم يتعظوا بما كان ولم ترق قلوبهم لما نزل بهم من ذهاب أمر المسيحيين في مصر، ولم تقع في

= النقيوسي) فإن الفصل المضطرب الرابع عشر بعد المائة يذكر الوقت الحقيقي لتسليم حصن بابليون، ولكنه لا يذكر وصفاً للحصار. (المؤلف).

(١-) رجعنا إلى الطبري فلم نجد به تفصيلاً كالسابق وكل ما جاء به أن الزبير دخل الحصن «حتى خرج على عمرو من الباب معهم» أي مع أهل الحصن الذين فتحوا الباب عندئذ وخرجوا إلى عمرو مصالحين. (المعرّب).

(١) جاء ذكر يوم الإثنين وهو عيد الفصح واضحاً في كتاب حنا النقيوسي وهو لا يذكر يوم الجمعة الطيبة ولكن: (١) يوم الجمعة هو العيد الأسبوعي للمسلمين ومن القريب إلى الذهن أن يعمد فيه الزبير إلى عمله تقرباً إلى الله. (٢) يذكر حنا بوضوح أن جنود الحصن أبيح لهم إخلاء الحصن في مدة يوم أو يومين لأنهم استطاعوا في عيد الفصح أن يرتكبوا فظائعهم التي ذكر أنهم ارتكبوها مع القبط المسجونين. ويجدر بنا أن نذكر أن ابن عبد الحكم يذكر خطاباً أرسله عمر بن الخطاب إلى عمرو يشكو فيه من إبطاء فتح الإسكندرية (ولعل المقصود إبطاء فتح بابليون) وقد جاء في الخطاب قوله وليكن ذلك (أي الهجوم) عند الزوال(١)/ يوم الجمعة فإنها ساعة تنزل الرحمة ووقت الإجابة.

وقد ذكر السيوطي هذا الخبر (صفحة ٦٢) ونعلم أن هجوم الزبير كان وقت المساء. [المؤلف].

(١) ترجم المؤلف لفظ «الزوال» في خطاب عمر خطأ بلفظ evening، ومعناه «المساء» والمقصود طبعاً من الزوال وقت الظهر أي وقت صلاة الجمعة وهو الذي يعتقد المسلمون أنه وقت «تنزل الرحمة ووقت الإجابة» وعلى ذلك يظهر لنا أن حجة المؤلف في الهامش السابق قائمة على خطأ. (المعرّب).

نفوسهم حرمة ليوم الفصح الذي خرجوا فيه، فبقيت في صدورهم العداوة والشحناء الذهبية لم يذهب منها شيء. وقد ذكرنا من قبل أنهم سجنوا في أول الحصار كثيراً من القبط الذين كانوا في الحصن، وذلك لأنهم أبوا أن يتركوا دينهم أو لأنهم رابهم منهم أمر. فلما جاء يوم الفصح الذي كان فيه الخروج من الحصن جعله الروم يوم وقعة ونقمة من هؤلاء المسجونين التعساء، فسحبوهم من سجونهم وضربوهم بالسياط وقطع الجند أيديهم، أمرهم بذلك كبيرهم (أودوقيانوس). ولا عجب مع هذا أن نجد الأسقف المصري يسبهم في ديوانه حانقاً ويسميهم «أعداء المسيح الذين دنّسوا الدين برجس بدعهم وفتنوا الناس عن إيمانهم فتنة شديدة لم يأت بمثلها عبدة الأوثان ولا الهمج، وعصوا المسيح وأذلوا أتباعه. فلم يكن في الناس من أتى بمثل سيئاتهم ولو كانوا من عبدة الأوثان»[1]. ويصف الأسقف المصري أنين أولئك الأسرى الذين مثل بهم وبكاءهم إذ يساقون مطرودين من الحصن يشيعهم السباب. وإنه ليس بغريب مع ذلك من مثل الأسقف المصري أن يقول إن فتح الحصن للمسلمين لم يكن إلا عقاب لله على ما فعله الروم من الأفاعيل في القبط، ولو أن مثل هذا القول ليس مما يصح في الأذهان. على أن ذلك الأمر له معنى إذ يدل على ما كان بين شيعتي المذهبين المسيحيين من عداوة لا تحل عقدتها، بقيت في قلوبهم لم تخب ولم تخمد نارها مع ما ظهر من ثمار اختلافهم وعواقب تخاذلهم من فوز الإسلام وعلوّ أمره.

(١) حنا النقيوسي صفحة ٥٦٧ .

الفصل التاسع عشر

السير إلى الإسكندرية

معاهدة بابليون ـ صفتها وحدودها ـ درس العرب لأهل البلاد ـ من أسلم من النصارى ـ إصلاح الجسور المقامة على النيل ـ سير جيش العرب إلى الشمال ـ يقصد العرب إلى نقيوس ـ وقعة الطرانة ـ جبن (دومنتيانوس) وفراره ـ فتح العرب لنقيوس ـ المقتلة هناك ـ المضي في السير ـ وقعات كوم شريك وسنطيس وقريون ـ هزيمة الروم وارتداد تيودور ـ وصول المسلمين إلى الإسكندرية ـ رأيهم في المدينة منذ رأوها وعجزهم عنها ـ فتوح عمرو في مصر السفلى ـ عجزه عن أخذ سخا ـ سيره إلى طوخ ودمسيس ورجوعه إلى بابليون ـ نقض أوهام المؤرخين.

انتهى حصار بابليون في اليوم التاسع من أبريل سنة ٦٤١ بعد أن لبث سبعة أشهر، وهذا أمر قد ورد جلياً في أخبار العرب. على أن جل مؤرخيهم إن لم يكونوا كلهم يخلطون الصلح الأخير الذي سلمت به الروم الحصن بعد أن نفيَ المقوقس من مصر، بالصلح الذي حدث قبل ذلك في أوان الفيضان بعد بدء الحصار ببضعة أسابيع، وهو الذي عقده المقوقس ولم يقره الإمبراطور. وإنا نستطيع أن نتبين أصل ذلك الخطأ بعد أن انكشف لنا التاريخ الحقيقي كما نستطيع أن نتبين ما نشأ عن الخطأ من خلط آخر لم يكن أقل منه شأناً. فليس في التاريخ مواضع وقع عليها خلاف أشد مما وقع في أمر مصر وهل كان فتحها عنوة أو صلحاً. ويقصد هؤلاء الكتاب بلفظ مصر أحياناً كل البلاد وأحياناً حصن بابليون. وقد أوضحنا فيما سلف أن الحصن يمكن الاختلاف فيه فقد وقع فيه حادثان: أحدهما فتح بالقوة، فإن الزبير علاه وكان ذلك سبباً في تخذيل الروم.

وتسليمهم. وأما الآخر فإن الفتح لم يكن كله عنوة بل إن حملة الزبير إنما أدت إلى أن يسلم أهل الحصن ويصالحوا. على أن قصارى الأمر لم يكن غير تسليم عن أمان وصلح، وقد بين الصلح للروم شرط الخروج، وعلى ذلك فلا مناص لنا من أن نفند قول من يقول إن العرب فتكوا بمن كان في الحصن، فما ذلك إلا حديث خرافة أساسه قول من قال إن الحصن أخذ عنوة[1].

ولكن الصلح الذي أبرم عند بابليون لم يكن إلا عهداً حربياً، ولم يكن عقداً سياسياً، فقد رضي فيه عمرو بأن يشتري الحصن ويدفع ثمناً له تأمين من كانوا فيه، وخروجهم منه بغير أن يسلموا أو يدفعوا الجزية، وإنما دفع الجزية من بقي من أهل المدينة. وإذ كان ذلك العهد لا يمس إلا مدينة مصر والحصن فقد كانت الجزية قليلة ومؤقتة، فقال مؤرخ إنها كانت ديناراً لكل من جنود العرب ولباساً[2]، وكانوا في أشد الحاجة إليه. وهذا القول يتفق مع ما أورده مؤرخ آخر إذ قال[3]: إنه قد بقي في مصر بعد فتح الحصن جماعة كبيرة من جنود القبط.

---

(١) جاء في كتاب ابن بطريق أنه بينما كان الجنود يتقهقرون إلى الروضة قتل منهم المسلمين وأسروا وغنموا، ويتفق معه المقريزي في أنه «قتل كثير من الناس وأسرت طائفة منهم» ومن المحتمل أن يكون قد حدث قتل ولكن السيوطي يقول «إن المسلمين فتحوا الحصن وقتلوا من فيه» وهذه رواية مختلفة وهو يذكر فوق ما ذكره أبو المحاسن إذ قال: «عندما أخذ الحصن قتل خلق كثير» ولا يمكن تصديق ما جاء في المقريزي والسيوطي أن عدد القتلى من الروم الذي أصابتهم سهام المسلمين بلغ ١٢,٣٠٠ ممن كان بالحصن بعد انتهاء الحصار.

(٢) يذكر المقريزي حديثاً لابن وهب نقلاً عن عبد الرحمن بن شريح جاءت فيه هذه العبارة وهي قريبة إلى الأذهان. وكانت الملابس عبارة عن جبة وبرنس وعمامة وخفين، فإذا قلنا إن عدد العرب كان عند ذلك قد نقص إلى ١٢,٠٠٠ أمكن أن نفسر ما ذكره بعض الكتّاب من أن الجزية قد بلغ قدرها ١٢,٠٠٠ دينار ويخطىء من يقول إن هذا هو مجموع الجزية التي فرضت على مصر جميعها. وسبب ذلك أن اسم مصر يطلق كما هو حادث في كثير من الأحوال على القطر كله فيسمى باسم المدينة.

(٣) المقصود هو الطبري وعندما يذكر الجنود القبط نظن أنه يقصد المصريين الذين كانوا في الجيش الروماني وهم كتيبة «الحرس الوطني» وهي كتيبة كانت موجودة بغير شك كما يدل =

فلما رأى هؤلاء ما كان عليه العرب من الرثاثة قالوا «ما أرث العرب وأهون عليهم أنفسهم! ما رأينا مثلنا دان لهم»[1] فلما سمع عمرو مقالتهم دعا جماعة من كبارهم إلى وليمة فنحر جزوراً[2] وصنع لهم المرق بالماء والملح وجعل ذلك أمامهم وقد جلس القبط إلى جانب العرب فجعل العرب ينهشون اللحم نهشاً حتى بشع القبط ذلك وعادوا بغير أن يأكلوا. فلما كان اليوم الثاني أمر عمرو قومه أن يأتوا بألوان الطعام في مصر، وأن يهيئوا منها وليمة عظيمة، ففعلوا ذلك وجاء أهل مصر فجلسوا إلى ذلك الطعام وأصابوا منه فلما فرغوا من أكلهم قال عمرو للقبط[3]: «إنني أرعى لكم من العهد ما تستوجبه القرابة بيننا، وقد علمت أنكم ترون في أنفسكم أمراً تريدون به الخروج، فخشيت أن تهلكوا. فأريتكم

= عليه كتاب حنا النقيوسي وإن العبارة التي ذكرها عمرو مشيراً للقرابة والنسب لا يكون لها معنى إذا قصد بها الروم وإنه من العدل أن نذكر أن الطبري يذكر لفظ القبط في أحوال كثيرة لا يمكن أن يكون المقصود فيها غير الروم وعلى كل حال ليست هذه القصة ذات شأن كبير غير أنها تبين شيئاً من خلق عمرو.

(١) نقلنا هذه الكلمة عن الطبري لأن نصه أقرب النصوص إلى المعنى الوارد في الأصل الإنجليزي على أن المؤلف لم يذكر الموضع الذي نقل عنه تلك القصة. (المعرّب).

(٢) جاء في الطبري «فأمر بجزر فذبحت... إلخ» وهذا أقرب إلى الأذهان بما جاء في الأصل الإنجليزي من أنه «نحر جزوراً» وكذلك يقول الطبري إن الأكل إنما طاف على العرب وحدهم ولم يذكر مشاركة القبط لهم. (المعرّب).

(٣) قد راجعنا ما جاء في الطبري وآثرنا أن ننقل عنه بعض نص الخبر وفيه خلاف كبير وتصرف في اللفظ ولكن لبّ المعنى قريب من الأصل الإنجليزي. وقد جاء في الطبري ذكر يوم ثالث وأن عمراً دعا فيه أهل مصر وعرض عليهم جنوده في السلاح، ولعل هذا أكبر ما في القصة مما قصد إليه عمرو، ولكن المؤلف لم يورد ذكر هذا العرض الحربي. وأما ما قاله عمرو بحسب رواية الطبري فهو: «إني قد علمت أنكم قد رأيتم أنفسكم في شيء حين رأيتم اقتصاد العرب وهون تزجيتهم فخشيت أن تهلكوا فأحببت أن أريكم حالهم وكيف كانت في أرضهم ثم حالهم في أرضكم ثم حالهم في الحرب. فظفروا بكم وذلك عيشهم وقد كلبوا على بلادكم قبل أن ينالوا منها ما رأيتم في اليوم الثاني فأحببت أن تعلموا أن من رأيتم في اليوم الثالث غير تارك عيش اليوم الثاني وراجع إلى عيش اليوم الأول». (المعرّب).

كيف كان العرب في بلادهم وطعامهم من لحم الجزر، ثم حالهم بعد ذلك في أرضكم وقد رأوا ما فيها من ألوان الطعام الذي قد رأيتم. فهل تظنون أنهم يسلمون هذا البلد ويعودون إلى ما كانوا فيه؟ إنهم يسلمون قبل ذلك حياتهم ويقاتلونكم على ذلك أشدّ القتال، فلا تلقوا بأنفسكم إلى التهلكة وادخلوا في الإسلام، أو ادفعوا الجزية وانصرفوا إلى قراكم»[1].

وهذه القصة عجيبة إذ أنها تظهر جانباً آخر من الخلق يختلف عما سمعناه من قول عبادة بن الصامت من احتقار هذه الحياة ونعيمها، وهو القول الذي عجب له قيرس وردّده. ولتلك القصة شأن آخر وذلك أنها تدل دلالة واضحة على أن بعض القبط أخذوا عند ذلك يختارون الإسلام ويفضلون الدخول فيه على دفع الجزية، فقد رأى هؤلاء أن الإسلام يجعل لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، ويساويهم بالفاتحين في شرف محلهم ويجعلهم إخوانهم في كل شيء، يسهم لهم في الفيء، ولا يفرض عليهم الجزاء. فكان في ذلك باعث قوي لكثير منهم على الدخول في الإسلام لا سيما وقد طحن المقوقس عقيدتهم طحناً، وحطم يقينهم باضطهاده. وكذلك دخل في الإسلام كثير من الروم بعضهم جنود وبعضهم ممن حل في مصر منهم. وفي هؤلاء يقول حنا النقيوسي «قوم ارتدوا عن دينهم المسيحي ودخلوا في دين البهائم». وكان هؤلاء المسلمة يتظاهرون بأنهم من أشدّ الناس في أمر الدين يدفعهم ذلك إلى مساعدة إخوانهم العربِ المسلمين على استصفاء أموال المسيحيين الذين أخرجتهم الحرب من ديارهم، وصاروا يستبيحون لعنهم ويصمونهم بأنهم «أعداء الله»[2].

---

(١) يذكر ابن الأثير رواية مخالفة لهذا الخبر فإنه يقول إن عمراً علم أن القبط تكلموا في العرب وفقرهم وخشونة عيشهم فخشى أن يدفعهم ذلك إلى الثورة فعزم على أن يخيفهم بأن يظهر لهم الفرق بين ترف مصر وخشونة عيش العرب ويبين لهم أنهم بهذه الخشونة استطاعوا أن يغلبوا من هم أكثر منهم عدداً من جند عدوهم وقد كان لهذا أثر كبير في المصريين فقالوا إن العرب قوم لا يغلبون وقد وطأونا تحت أقدامهم. فلما بلغ ذلك عمر بن الخطاب قال إن عمراً يقاتل بالقول ويقاتل غيره بالسيف. (المؤلف).

(٢) حنا النقيوسي صفحة ٥٦٠ وقد جاء في كتاب أبي صالح خبر عجيب وهو أن الجهة =

ولكن هؤلاء الذين أسلموا لم يكونوا إلا قليلاً وبقي جمهور القبط على دينهم يزدرون الذين خرجوا من نصرانيتهم، وينفرون من ذلك الدين الجديد الذي دخلوا فيه، وهذا ظاهر في قول الأسقف المصري «حنا». ويجدر بنا أن نعيد هنا ما سبق لنا قوله، وذلك أن القبط في ذلك العصر لم يكن لهم زعيم يأتمرون بأمره ولا جماعة يلزمونها. فلم تكن بهم قدرة على أن يتعاونوا على أمرهم، فكان الرجل منهم يرى لنفسه وكانت الطائفة منهم يرون لأنفسهم بين حين وحين، ولكن لم يكن فيما بينهم تساند أو تعاون إذ لم يكن لديهم سبيل إلى توحيد قصدهم أو التكاتف في السعي إليه. وعلى ذلك فمن أكبر الخطأ أن يقول قائل إن القبط عامتهم دخلوا في عهد الصلح الذي كتبه عمرو عند فتح بابليون، فإن ذلك العهد إنما دخل فيه أهل ذلك الموضع. على أن شروط ذلك الصلح نفسه عرضت فيما بعد على من كانوا على كثب من تلك الناحية. فإن عبد الله بن حذافة السهمي سيره عمرو إلى عين شمس ليعامل أهل المدينة والكورة التي حولها[1]. وهذا يدل على أن المسلمين عند فتحهم للمدينة أول مرة لم يأخذوا أمرها في يدهم ويقيموا فيها حكم الإسلام.

= القريبة من مصر إلى الجنوب وكانت تسمى «الحمراء» زمناً طويلاً سميت كذلك لأنها موضع الراية الحمراء التي أقامها العرب عند فتحهم لمصر وكان يجتمع حولها من يستأمن إلى المسلمين ويسير خلفهم (صفحة ١٠٢) ولكن ابن دقماق في وصفه أخبار مدينة الفسطاط يقول إن الحمراوات الثلاث كانت تسمى بذلك لأن الروم كانوا يسكنونها فقد كانت فيها خطط بلي بن عمر بن الحاف بن قضاعة، وبني بجر وبني سلامات، ويشكر بن لخم وهذيل بن مدركة، وبني نيد، وبني الأزرق؛ وكانوا من الروم (الجزء الرابع صفحة ٥). ولست أدري ما العلاقة بين «الحمراء»[١-م] وبين «الروم». ولكن قد جاء في الكتاب أن هؤلاء الروم ويهودي اسمه «روبيل» ساروا من الشام إلى مصر وكانوا من غير العرب من أهل الشام الذين أسلموا قبل وقعة اليرموك.

(١-) جاء في المقريزي اسم «بنو سلامان» وليس «بني سلامات» و «بنو نبه» وليس «بني النيد». (المعرّب).

(١-م) يظهر أن المؤلف لا يعرف أن العرب كانوا يسمون الرومان بالحمر والصفر. (المعرّب).

(١) أخذنا هذا عن البلاذري والخبر بلا شك صحيح وهو أصل الخلط بين أول فتح =

ولكن هذا الصلح أحدث في دولة الروم أثراً كبيراً، مع أنه لم يكن إلا صلحاً مقصوراً على جماعة صغيرة. وسبب ذلك مكانة ممفيس أو بابليون، فإنها وإن لم يبق لها المحل الأول في البلاد إذ مضى عليها زمن طويل وليست هي عاصمة البلاد، كانت لا تزال ذات شأن عظيم إذ كانت باب إقليم الصعيد وإقليم مصر السفلى. وكان حصنها منيعاً لا يكاد ينال، فإذا هو وقع في يد عدو دانت له بلاد الصعيد جميعاً وهابته بلاد مصر السفلى في الشمال. ولسنا ندري ماذا كان قواد الروم يصنعون طول مدة الشتاء وما الذي حملهم على أن يخلوا ما بين المسلمين وبين الحصن حتى استطاعوا على مر الزمن أن ينزلوا من فيه. ولكنا نعلم حق العلم أن الروم ضعفت قوتهم وخارت عزيمتهم عندما فتح العرب ذلك الحصن، في حين أن العرب زادوا قوة وجرأة وأصبح في يد عمرو ملك الفرما وبلبيس وأثريب وعين شمس. فكان باسطاً سلطانه على الجانب الشرقي كله من مصر السفلى، فلما دان له الحصن صار سلطانه ثابتاً على مجمع النهرين، وجمع في يده أزمة وادي النيل الأوسط، وتم له بذلك الشطر من فتح مصر.

وإنا نرى أن عمرو بن العاص بعدما فرغ من فتح الحصن أمر بإقامة الجسر من السفن في النهر، أو بقول آخر أمر بإعادة إقامته بين الحصن والروضة، وبين الروضة والجيزة، فوصل بذلك بين شاطىء النهر واستطاع أن يملك ناصيته ويشرف على ما ينتقل فيه من السفن والبضائع. وهذا على خلاف ما جاء في كتب التاريخ إذ جاء فيها أن عمراً أمر بذلك قبل فتح الحصن. وكان عمرو شديد الرغبة في أن يسير جنوده نحو الإسكندرية، بعد أن طالت مدة إقامتهم بالعسكر في مصر. وكان يعرف أنه لن تمر ثلاثة أشهر حتى يكون النيل قد أخذ يعود إليه مدة وفيضة، فكان الوقت دونه غير متسع وفي ضياعه مضيعة وخسارة، فأرسل

= لهليوبولس وبين خضوعها الأخير وذلك الخلط هو الذي يفسد رواية الطبري وغيره. وقد ذكر أبو المحاسن أن الناس الذين شملهم هذا العهد كانوا قليلين وهم ٦٠٠٠ نفس، ولكنه يروى عن عبد الله بن لهيعة أنه قال إن الذين فرضت عليهم الجزية كانوا ٨٠٠٠ (صفحة ١٩).

إلى عمرو بن الخطاب يصف لـه ما كـان ويستمده. على حين شـرع يدبـر أمر المدينة التي فتحها وما حولها من إقليمها، وأخذ يـرمم بناء الحصن وجعـل فيه مسلحة من المسلمين عليهم خارجة بن حذافة السهمي[1]. وما كان أعظم سرور عمرو إذ رأى نفسه على ظهر جواده مرة أخرى يسير مع جيشه إلى وجه جهاد، وقد جعلوا الحصن وراء ظهورهم وسـاروا نحو الشمـال يتبعون شـاطىء الفرع الغربي للنيل. وتركت خيمة القائد في مكانها، فـإنه عنـدما أزمـع السير وأمـر الجند أن ينزعوا خيمته وجدوا في رأسها عش يمامة قـد باضت. فقـال عمرو: «لقد تحرم هذا اليمام منا بمتحرم فأقروا هذا الفسطاط في مـوضعه حتى يفـرّخ ويـطير» وقيـل ترك على الفسـطاط حارسـاً يمنع تلك اليمـامة أن يمسهـا أحـد بأذى[2].

وليس من اليسيـر أن نصف سير العـرب في وقتهم ذاك، فإن ديـوان حنا النقيوسي لا يذكر من حوادث تلك المدة إلا قطعاً من الأخبار لا نظام لها، وإذا نحن جمعنا تلك القطع وأردنا أن نجعل منها قصة متصلة كان فيها اختلاف كبير عما يرويه مؤرخو العـرب. على أننا نستـطيع أن نـوفق بعض التوفيق بين تلك الروايات المتضاربة، لا سيما وإنّا نجد اتفاقاً عجيباً بينها في بعض المواضع.

ولا شك أن أول ما قصد إليه عمرو في سيره نحو الإسكندرية كان مدينة نقيـوس، وكانت مـدينة ذات شـأن عظيم وحصنـاً ذا منعة وقـوة[3]، وهي على الشاطىء الشرقي لفرع النيل الغربي الذي هو فرع رشيد، على مسيرة يوم من

(١) قد سبق أن ذكرنا أن هذه العبارة التي ذكرها المؤرخون العرب قد دعمتها وثيقة تخلفت من ذلك العصر رقم ٥٥٣ من مجموعة «Karabacek» وهي «Paqyrus Ergherzog Rain-er. Fuhrer durch bie ausstellung».

(٢) قد أوردنا رواية ياقوت لهذا الخبر المعروف وهي تتفق مع الوقت الذي ترك فيـه عمرو حصن بابليون وهو آخر إبريل. وإنا لنتبين في تلك الرواية صورة الحقيقـة والصدق، فقـد كان الجوار والاعتصام به مقدساً عند المسلمين ولو كان المستجير عدواً.

(٣) قد بينا في هامش صفحة ٥٩ أن موضع نقيـوس القديمـة هو القـرية الحـديثة المسمـاة (شبشير) وهي في الشمال الغربي من منوف على نهر النيل.

حصن بابليون، وعلى ساعتين من مدينة منوف، وكانت منوف إذ ذاك في ملك العرب. وكانت نقيوس فوق عظمها مدينة قديمة بها الآثار الجليلة من أيام الفراعنة، وكانت مقر أحد كبار رؤوس الدين المسيحي، ولها مكانة حربية كبرى في حفظ الطريق بين حصن بابليون والإسكندرية. فكان لا بد للروم أن يجتمعوا هناك مرة أخرى للقاء العرب.

والظاهر أن عمراً ابتدأ سيره أولاً على الضفة الغربية للنهر من ناحية الصحراء، ففيها مجال أوسع لخيله لا يعوقها هناك ما يعترض مصر السفلى من الترع الكثيرة[1]. وكان الروم على توقع أنه يفعل ذلك فلاقوه هناك، وكان أول ما التحموا بجيشه عند مدينة قديمة معروفة وهي (طرنوتي) أو (طرنوط) أو كما يسميها العرب (الطرانة). وكان في تلك المدينة فرضة يعبر النيل عندها في الذهاب إلى الإسكندرية[2]، وفيها كذلك بدء الطريق المؤدية إلى أديرة القبط في صحراء لوبيا. فكان لا بد للروم على ذلك من أن يقفوا وقفة في الدفاع عنها.

(١) إن اسم وردان الذي لا يزال محفوظاً في قرية على الجانب الغربي للنيل إذا أضفنا إليه ما جاء في المقريزي من الأخبار بدا لنا أن عمراً سار أولاً على الجانب الغربي للنيل في مسيره إلى نقيوس. حقاً إن هذا الطريق كان قليل العقبات وأسهل سيراً من الأرض التي بين فرعي النيل وهي تعترضها الخلجان والترع ما دام واثقاً من أنه يستطيع عبور النيل عند العتريس أو بني سلامة وقد قال المقريزي «وكان عمرو حين توجه إلى الإسكندرية خرب القرية التي تعرف اليوم بخربة وردان واختلف علينا السبب الذي خربت لأجله. فحدثنا سعيد بن عفير أن عمراً لما توجه إلى نقيوس عدل وردان لقضاء حاجته عند الصبح فاختطفه أهل الخربة فغيبوه ففقده عمرو وسأل عنه وقفاً أثره فوجدوه في بعض دورهم فأمر بإخرابها وإخراجهم منها (وقيل كان أهل الخربة رهباناً كلهم فغدروا بقوم من صحابة عمرو ووجه إليهم وردان فقتلهم وخربها فهي خراب إلى اليوم)». (المؤلف).

ملاحظة: آثرنا ذكر رواية المقريزي بتمامها إلى آخر الرواية الثانية وقد اقتصر المؤلف على الرواية الأولى واختصر الثانية من أول «وقيل كان أهل الخربة... إلخ». (المعرّب).

(٢) انظر كتاب أميلنو «Geog. Copte» صفحة ٤٩٣ وقد جاء فيه «كان هناك الموضع الذي عزم أباتير أن يعبر فيه النيل في مجيئه من الإسكندرية إلى حصن بابليون في مصر» وقد ذكر فيه المراجع الأخرى.

فقاتلوا العرب هناك[1] وأبلوا بلاء حسناً غير أنهم انهزموا واستطاع عمرو أن يستأنف السير إلى مدينة نقيوس.

وقد مر بنا أن مدينة نقيوس على الشاطىء الشرقي للنهر على مقربة من الموضع الذي تتصل فيه بالنيل الترعة التي بين أثريب ومنوف. وكان عمرو لا يستطيع أن يتركها على جانبه ويسير عنها، إذ هي حصن منيع. فعبر النهر إليها حتى إذا ما فتحها عاد إلى الغرب وواصل السير، وكانت تلك فرصة دون القائد الروماني (تيودور) إذا أراد المناجزة، ولكنه لم يغتنمها فلم يخرج للعرب بنفسه في عامة جيشه، بل أرسل القائد الجبان الضعيف (دومنتيانوس) ليذوذ عن نقيوس، وبعث معه كتيبة ضعيفة. وكان عند (دومنتيانوس) كثير من السفن قد أعدَّها لكي يدافع بها عن المدينة، أو لكي يهبط بها على جيش عمرو في أثناء عبوره للنهر، وكان عمرو لا بدّ له من عبور النيل إذا فتح المدينة، وإذا هو فشل ولم يفتحها كان أغلب الظن أنه يحاول العبور. غير أن قائد الروم عندما رأى المسلمين على كثب منه خانه جنانه، وترك جيشه وسفنه ولاذ في سفينة هارباً نحو الإسكندرية. فلما رأى الجنود أن قائدهم يفر عنهم ذلك الفرار وضعوا سلاحهم وهبطوا إلى الترعة سراعاً[2]، وقد أذهلهم الخوف، يريدون أن يقتحموها أو يبلغوا السفن فيها. ولكن عدوى خوفهم أعدت نوتية السفن فلم يأبهوا لشيء إلا لسلامتهم، فحملوا سفنهم مسرعين وهبطوا بها إلى الشمال

---

(١) قد ذكر ياقوت هذه الوقعة وقال إن عمراً حارب الروم في وقعة عند (طرنوط). وقد أخطأ المقريزي خطأً غريباً في ذلك الأمر فإنه عندما ذكر سير عمرو من بابليون إلى الإسكندرية قال: (الجزء الأول صفحة ١٦٣ طبعة بولاق) «فلم ير أحداً حتى بلغ مريوط فلقي فيها طائفة من الروم» ثم قال بعد بضعة أسطر من ذلك: إن عمراً بقي في مريوط في حين كانت طلائعه عند كوم شريك! ويمكن أن يصحح ذلك الخطأ بأن نجعل (طرنوط) محل (مريوط) وهو الصحيح. وهذا الخطأ يوضح لنا نوع الخطأ الذي يضلل التاريخ من جراء تحريف الكتاب أو النساخ الذين يجهلون وصف البلاد.

(٢) هذا الوصف يدل على أن الترعة كانت في شمال نقيوس ويثبت أن موضع نقيوس هو شبشير.

يطلبون النجاة، فعمد كل منهم إلى قريته. وعند ذلك طلع العرب على جنود الروم وهم في الماء بغير سلاح فقتلوهم عن آخرهم، فلم ينج منهم إلا رجل اسمه (زكريا) بدت منه شجاعة عظيمة عند ذلك، ولعل نجاته كانت لما بدا منه من الشجاعة. ثم دخل العرب المدينة من غير مقاومة إذ لم يكن فيها جندي واحد يقف في سبيلهم، ومع ذلك فقد أوقعوا بأهلها وقعة عظيمة. قال حنا النقيوسي «فقتلوا كل من وجدوه في الطريق من أهلها ولم ينج من دخل في الكنائس لائذاً ولم يدعوا رجلاً ولا امرأة ولا طفلاً[1]، ثم انتشروا فيما حول نقيوس من البلاد فنهبوا فيها وقتلوا كل من وجدوه بها، فلما دخلوا مدينة (صوونا)، وجدوا بها (اسكوتاوس) وعيلته وكان يمت بالقرابة إلى القائد (تيودور)، وكان مختبئاً في حائط كرم مع أهله، فوضعوا فيهم السيف فلم يبقوا على أحد منهم. ولكن يجدر بنا أن نسدل الستار على ما كان فإنه لا يتيسر لنا أن نسرد كل ما كان من المسلمين من المظالم بعد أن أخذوا جزيرة نقيوس في يوم الأحد وهو الثامن عشر من شهر (جنبوت) في السنة الخامسة عشرة من سني الدورة»[2] ويقع ذلك التاريخ في اليوم الثالث عشر من شهر مايو سنة ٦٤١.

وقد أثبتنا هنا نص قول الأسقف القبطي لأنه يدل على ما كان عليه القبط

---

(١) أغلب الظن أن هذه مبالغة من الكاتب (حنا النقيوسي) دفعته إليها غيرته وعقده على الغالبين من العرب إذ كان من أول أصول العرب في الحرب ألا يقتلوا من استسلم وألا يقتلوا امرأة ولا شيخاً ولا طفلاً، يأمرهم بذلك دينهم ويحضهم عليه أمر خلفائهم الأولين إلى القواد والجنود. (المعرّب).

(٢) حنا النقيوسي صفحة ٥٦٨ ولأجل معرفة التاريخ يرجع إلى الذيل الرابع لكتابنا هذا وقد قال زوتنبرج إن اسم المدينة هو (صا) ولكن صا هي مدينة (سايس) القديمة وهي في الشمال عند دمنهور وكانت لا تصل إليها يد العرب عند ذلك. وقد جاء في عنوان ذلك الفصل أن اسم المدينة هو (صوونا). وقد أخذنا هذا الاسم وأخذنا اسم (Esquâtâos) الذي ذكره زوتنبرج فجعلناه (Scutoeus) فإنه كان لا بد من وجود حرف متحرك في أول الكلمة حتى يمكن نطقها في اللغة العربية وقد نقل كتاب حنا إلى الأثيوبية عن اللغة الغربية.

من قلة حب للعرب الفاتحين، ولكي نظهر أنهم ما كان لهم أن يحبوهم، وقد كان منهم ما كان. وقد كان نقيوس معقلاً من معاقل الدين القبطي، ولا شك أن الناس كانوا مع ما نزل بهم من الاضطهاد لا يزالون على عقيدتهم يضمرونها في قلوبهم، ولو أظهروا الخروج منها تقية لما نالهم من عسف قيرس. وكان العرب في وقعتهم لم يفرّقوا بين قبطي ورومي. وليس فيما وصلنا من أخبار ذلك لفظ واحد يدل على أن القبط كان لهم شأن آخر في معاملة العرب. وكذلك ليس من شك في أن الشقاق والاضطراب قد دهما البلاد واجتاحاها كما يجتاح الطاعون الأرض، فلم يمض طويل زمن حتى عمت الفوضى واندفع لهيب الحرب الأهلية بين أهل مصر. فكان ذلك ضغثاً على إبالة فانقسمت مصر السفلى إلى حزبين: حزب مع الروم، وحزب يريد أن يتفق مع العرب. ولسنا ندري إذا كان الفارق بين ذينك الحزبين فارقاً من جنس أو من مذهب أو من تشيع سياسي. على أننا نرجح الرأي الأخير. وقد أصبح من الأمور المعتادة في ذلك النضال بين الحزبين أن يتقاتل الناس وينهب بعضهم بعضاً، أو يحرقوا البلاد في حين كان العرب ينظرون إلى كِلا الحزبين نظرة الازدراء، ولا يأمنون لأيهما ولا يتعاهدون مع أحد منهما.

ولما فتحت مدينة نقيوس[1] وتفرّقت السفن الرومانية التي كانت بالنيل هناك، أصبح الطريق خالياً من العقبات دونهم إذا شاؤوا السير إلى الإسكندرية. وكان جيش الروم عند ذلك يقوده (تيودور) ويتراجع به شيئاً فشيئاً نحو تلك العاصمة.

وأقام عمرو في نقيوس بضعة أيام ثم عبر النيل إلى الغرب، ولكنه قبل أن يستأنف سيره أرسل أحد رجاله وهو شريك ليتتبع العدو المنهزم. وكان الطريق

---

(١) لا يعرف المؤرخون العرب شيئاً عن هذا الحادث وهم يمرون عليه بغير ذكر شيء عنه. وأما موقعة نقيوس التي جاء ذكرها في كتاب ياقوت فهي الموقعة التي حدثت في أثناء ثورة منويل.

على جانب النيل الأيسر مما يلي الصحراء، وكان دهساً للخيل، فلحقت طلائع المسلمين بالروم عند موضع على ستة عشر ميلاً إلى الشمال من الطرانة. ولكن المسلمين وجدوا عدوهم أكثر عدداً مما كانوا يحسبون، فلم يستطيعوا أن يهزموهم بحملتهم الأولى. بل لقد قيل إن القتال استمر ثلاثة أيام، واستطاع الروم مدة أن يردوا العرب ويلجئوهم إلى نهدٍ من الأرض ظلوا عليه حيناً، والروم تحمل عليهم حملات شديدة وقد أحاطوا بهم من كل جانب. فلما رأى شريك ما يحدق بالمسلمين من الخطر بعث مالك بن ناعمة ليَخرج على فرس له أشقر لا يشق له غبار، وأمره أن يقتحم العدو أو يدور حوله حتى يأتي عمرو بن العاص فيحمل إليه النبأ، ففعل مالك ذلك، وأراد جماعة من الروم أن يلحقوا به فأعجزهم. ولما بلغ عمراً ما يهدد شريكاً من الخطر أرسل إليه الإمداد سريعاً. وقيل إن العدو فر هارباً عندما بلغه مجيء ذلك الإمداد. ومهما يكن من أمره فقد نجا شريك مما كان فيه، ولم يستطع الروم أن يغلبوا تلك الجريدة العربية، فأضاعوا بذلك فرصة كما أضاعوا من قبل كل فرصة أتاحها الحظ لهم. وقد سميَ ذلك الموضع الذي وقع القتال فيه باسم القائد العربي فهو معروف إلى اليوم باسم (كوم شريك)[1].

وسار عمرو يدفع العدو أمامه، ولعله سار إلى الشمال الغربي على جانب الترعة التي تلي الصحراء حتى بلغ الدلنجات، ومنها سار إلى الشمال في تجاه دمنهور. فوجد الروم مرة أخرى يعترضون سبيله عند سنطيس[2]، وهي على ستة أميال في جنوب دمنهور. ووقعت هناك وقعة شديدة انهزم فيها الروم

(١) نقلنا هذا الخبر عن المقريزي ويظهر أنه ينقل عن ابن عبد الحكم وقد جاء في (Ockley) ذلك الاسم الغريب (كرام الشريك) على أنه اسم الموضع ولكن كل ما ذكره ذلك المؤلف عن فتح العرب خلط وتحريف وتحوير يضارع ما جاء به المؤرخون العرب ويسمي ابن بطريق ذلك الموضع باسم (كرم شريك)، ولكن من المستبعد أن يكون قد وجد كرم هناك.

(٢) جاء اسم هذا الموضع في المقريزي هكذا (سلطيس)، وجاء ذلك الاسم في ترجمة ابن بطريق هكذا (Salstan) وهو تحريف ظاهر وقد قال (Weil) عند ذكره ذلك الاسم سلطيس =

وتقهقروا أمام العرب. ولم يحاولوا أن يقفوا لعدوهم في دمنهور أو يملكوها، بل تدافعوا نحو الشمال فانتهى بهم الانهزام إلى الطريق الأعظم المؤدي إلى الإسكندرية، فعبروا الترعة وكانت عند ذلك لا يكاد يوجد بها شيء من الماء، ثم ساروا حتى أظلهم حصن (كربون) بعد مسيرة نحو عشرين ميلاً. وكانت مدينة (كريون) آخر سلسلة من الحصون بين حصن (بابليون) والإسكندرية وكان لها شأن عظيم في تجارة القمح سوى ما كان لها من خطر عظيم في الحرب، إذ كانت تشرف على الترعة التي عليها جل اعتماد الإسكندرية في طعامها وشرابها. ولكن حصونها لم تكن في المنعة على مثل ما كان عليه حصن بابليون ولا ما كان عليه حصن نقيوس[1]، مع أن الروم رمموا حصونها وزادوها قوة. ومهما يكن من الأمر فقد عزم (تيودور) على أن يقف هناك وقفته الأخيرة، ولم يكن في وسعه أن يختار مكاناً أليق من ذلك. فكانت حصون المدينة تساعد

= إنه لا بد أن يكون (سمياتيس) أو كما زعم (Ewald) أنه (سنطيس) ولا شك أن الاسم الأخير هو الصحيح وسنطيس قرية كبيرة في نحو منتصف المسافة بين كريون وكوم شريك.

(١) فيما يتعلق باسم كريون انظر أميلنو (Geog. Copte) صفحة ٢١٧ وفيه يذكر الصورة القبطية ⲭⲉⲣⲉⲩ والاسم اليوناني (انظر) (٢٧*) (كذا) ولكنه لا يذكر الاسم الأشهر وهو (Choereum) وجاء في حنا النقيوسي فصل ٦٧ أن الترعة العذبة (ويسميها في عنوان الفصل ترعة كريون) قد حفرتها كليوبطره ويقول بروكوبيوس في كتابه (The Buildings of Justinian) إن النيل لا يجري إلى الإسكندرية ولكنه بعد مدينة (كيريوم) يعرج إلى اليسار وقد حفر القدماء مجرى عميقاً من (كيريوم) وأجروا فيه جزءاً من ماء النيل ليصل إلى بحيرة (مارية) وليس هذا المجرى صالحاً في أي جزء من أجزائه لسير السفن الكبرى، فالقمح ينقل في (كيريوم) من السفن الكبرى إلى قوارب تحمله إلى الإسكندرية «Palestune Pilgrims. Text Soc.» (الجزء الثاني صفحة ١٥٢) ويقول حنا على وجه التخصيص إن ترعة كليوبطره كانت صالحة للسفن الكبار ولكن السير فيها كان بحسب حال الماء. وقال ابن حوقل إن (كريون) كانت في أيامه مدينة عظيمة جميلة على ضفتي ترعة الإسكندرية وكان التجار يركبون منها القوارب إلى الفسطاط في وقت الصيف إذا علا النيل... وفي المدينة حاكم تحت إمرته مسلحة من الفرسان والمشاة (عن كاترمير «Mem. Geog. et Hist.» الجزء الأول صفحة ٤١٩).

الجنود وتشدّ أزرهم، وكان جنوده أكثر عدداً من العدو، وكانت الترعة تحميهم من بين أيديهم، وكان البطريق من ورائهم يفضي إلى الإسكندرية ومن السهل عليهم حفظه.

وقد قاتل جنود الروم في هذا الوقت قتالاً شديداً حتى شهد بذلك مؤرخو المسلمين أنفسهم، ولم يخذلهم ما أصابهم من قبل من النكبات من سقوط بابليون ونقيوس في يد عدوّهم، ولا ما حل بهم من خيانة بعض قوادهم أو جبنائهم. ولم يكن الروم في قلة إذ أتتهم الأمداد من وراء البحر من (قسطنطينية)، وكان قائدهم (تيودور) غير متهم في شجاعته ولا إقدامه في القتال، غير أنه لم يكن قائداً ذا رأي في الحرب. وقد عرف الناس جميعاً فيما يحيط بذلك الموضع كما عرف الجنود الذين كانوا بالإسكندرية أن ذلك اليوم، يوم كريون، له ما بعده، فأتت الكتائب تترى من كل مكان إلى لواء الروم من سنطيس ومن مدائن أبعد منها، مثل (خيس) و (سخا) و (بلهيب)[1]. ولم تكن

---

(١) نقلنا هذا عن البلاذري (صفحة ٢١٠) وهو يجمع القبط والروم في معركة كريون. أما سخا فهي بين فرعي النيل على نحو عشرين ميلاً في الشمال الغربي من سمنود ولا نستطيع أن نجد موضعاً في خرائط مصر الحديثة يشبه اسمه اسم بلهيت (أو بلهيب كما جاء في ياقوت وهو أصح) وهذا وفق الاسم القبطي πελϩιπ لكن الموضع كان معروفاً وحدثت فيه ثورة للقبط سنة ١٥٦ هجرية (كاترمير «Recherches» صفحة ١٩٨) وقد بحث كاترمير في موضعها في (Obs. Sur Quelques points de la Geog. de . L'Eg.) صفحة ٤٥ وما بعدها وهو يبين أن ابن حوقل يجعلها على ست (ساكات) إلى الشمال من سنديون على نهر النيل عند ملتقى فرع صغير بفرع رشيد. فإذا جعلنا الـ (ساك) نحو ميل وربع كانت بلهيب (كما جاء في كاترمير) على مقربة من منطوبس كما يسميها هو) ولكن الاسم الموجود على خريطة الدومين هو (مطوبس) ومن الظاهر أن بلهيب كانت على الجانب الغربي للنهر وليست على الشرقي، وقد زال الفرع الصغير من زمن طويل وصار موضعه مستنقعاً ولكن هناك قرية صغيرة اسمها (دبي) في الموضع المطلوب، ولعل هذا الاسم صدى للاسم القديم (بلهيب) وهي عند ثنية النهر على نحو عشرة أميال أو إثني عشر ميلاً إلى جنوب رشيد وقد أخطأ أميلنو (Geog. Copte) في صفحة ٣١٤ إذ قال إن الملتقى الذي ذكره ابن حوقل كان قديماً عند مدينة (ديروط) فإن ديروط قريبة من (سنديون) ولو أنها على الناحية الأخرى من النهر. ولعل أميلنو لم يحسن قراءة كاترمير. =

تلك الوقعة قتال يوم انجلى عن مصير (كريون)، بل كان قتالاً شديداً استمر بضعة عشر يوماً، وحدث في وقت من أوقاته أن وردان مولى عمرو المعروف كان يحمل لواء المسلمين، فأصابت عبد الله بن عمرو جراحة شديدة وكان إلى جانبه، فأجهضته شدة القتال، فسأله أن يرتد قليلاً يطلب الروح. فقال له وردان: «الروح تريد؟ الروح أمامك وليس خلفك» ثم أقبلا على القتال. فلما سمع عمرو بما أصاب ولده بعث إليه من يسأل عن حاله فتمثل عبد الله بأبيات من الشعر[1] يطمئن بها والده، فلما سمع عمرو بذلك قال «إنه ابني حقاً». وحمل المسلمون[2] مرة بعد مرة حملات شديدة، ولكن الفتح أبطأ عليهم، وصلّى عمرو بالناس صلاة الخوف. ويلوح لنا أن تلك الوقعة لم تكن نصراً لإحدى الطائفتين بل تساوت فيها الكفتان، ولكن مؤرخي العرب يقولون إنها كانت نصراً عظيماً للمسلمين. ومهما يكن من الأمر فلا شك في أن المسلمين لاقوا نصراً بعد قتالهم في تلك الأيام العشرة، وذلك أنهم استطاعوا أن يفتحوا مدينة كريون وحصنها وهزموا الروم عنها. ولا نستطيع أن نقول شيئاً عما حدث بعد ذلك في ارتداد تيودور. فلا ندري أكان ارتداد جنوده انهزاماً لا يلوون فيه على شيء حتى بلغوا أبواب الإسكندرية، أم كان تقهقراً وئيداً في نظام على أن

= وكانت خيس في جوار دمياط. انظر كاترمير (Mem. Geog. et Hist.) الجزء الأول صفحة ٣٣٧، ويذكر ياقوت (فرطسا) أو (قرطسا) بين البلاد التي قاومت عمراً ثم يقول إن عمراً صالح (بلهيب).

(١) جاء في المقريزي أنه تمثل بهذا البيت وحده.

أقول لها إذا جشأت وجاشت رويدك تحمدي أو تستريحي

ثم ذكر الأبيات التي من بينها هذا البيت ونسبها إلى قائلها عمرو بن الأطنابة. (المعرّب).

(٢) ذكر المقريزي هذا الخبر وهو الذي أخذنا عنه مدة الأيام العشرة للقتال ولم يذكر البلاذري إلا وقعة عند كريون. وأما حنا النقيوسي فمن سوء الحظ أنه قد أجمل هنا واختصر فقال إن عمراً أرسل جيشاً عظيماً من المسلمين إلى الإسكندرية فملكوا كريون فسار من فيها مع قائدهم تيودور إلى الإسكندرية.

ديوان (حنا النقيوسي) يشتم منه أن التقهقر كان وئيداً وهو لعمري قول لا يتهم صاحبه.

ولا بدّ قد خسرت الطائفتان كلتاهما في ذلك القتال بين الطرانة وكريون خسارة كبرى، وكان الروم أقدر على احتمال تلك الخسارة من العرب. وإذا نحن حسبنا ما تركه العرب من المسالح في (بابليون) وسواها من بلاد مصر السفلى، يتضح لنا أن عمراً ما كان ليستطيع السير إلى الإسكندرية ما لم تكن قد أتته أمداد عظيمة في الشتاء المنصرم أو في الربيع. فلم يكن ليجروء أن يطلع على الإسكندرية بأقل من خمسة عشر ألفاً. وإنه لأقرب للحق أن نجعل عدد جيشه عند ذلك عشرين ألفاً. ولما فتح العرب كريون خلا أمامهم الطريق إلى الإسكندرية، ولم يبطىء عمرو إلا ريثما يستريح جنده من عناء القتال الأخير، ثم سار في سبيله ولم يلق كيداً حتى بلغ الإسكندرية.

ولا بدّ أن كثيرين ممن كان في جيش العرب عند ذلك رأوا جميل المدائن في فلسطين والشام مثل أذاسا ودمشق وبيت المقدس وقد يكون منهم من وقعت عينه على أنطاكية الشهيرة أو رأى عجائب تدمر، ولكن ذلك كله لم يكن شيئاً إذا قيس بعظمة المدينة التي تبدّت لهم عند ذلك، وهي عظمة بارعة نادرة، تتجلى لهم إذ يسيرون بين الحدائق وحوائط الكروم والأديرة الكثيرة بأرباضها. فقد كانت الإسكندرية حتى في القرن السابع أجمل مدائن العالم وأبهاها، فلم تبدع يد البناء قبلها ولا بعدها شيئاً يعدلها، اللهم إلّا رومة وقرطاجنة القديمتين. فما سرحت العين لا تقع إلا على أسوار وحصون لا نظير لها، بقيت بعد ذلك قروناً وهي مثار إعجاب من رآها من أهل الأسفار. وكانت تشرف وراء هذه الأسوار والحصون بدائع من قباب ومن عمد بعضها أسطواني وبعضها مربع (مما يسمى بالمسلات)، تقوم فوق قواعدها، ومن تماثيل ومعابد وقصور تتلألأ وتتألق، فإذا ما تياسرت[1] رأيت دون ذلك معبد السرابيوم، وقد أناف بسقفه المذهّب والقلعة

---

(١) جاء العرب إلى المدينة من ناحية الجنوب الشرقي.

التي كان يشرف فوقها عمود دقلديانوس[1]، فإذا ما تيامنت بـدت لك الكنيسـة العـظمى كنيسة القـديس مرقس تليهـا العمـد المـربعـة التي سميت (مسـلات كليوبتره)[2]، وكـانت عند ذلـك قد عمـرت نيفاً وألفي عـام وذلك ضعفـا عمر المدينة نفسها. وفيما بين يسارك ويمينك كان البناء الجليل يبدو ظـاهره مشـرقاً ويلوح من ورائـه ذلك الأثـر العظيم المعـروف المعروف باسم (فـاروس)، وكان النـاس يعدّونه إحـدى العجائب السبـع في العالم وحق لهم أن يفعلوا. ومـا كان هـذا الجلال الفائق والجمال البارع وما يبدو من عظمته وقوته إلا ليقع من قلوب غزاة الصحراء موقعاً عجيباً، وقد رأوا ما رأوا من المدينة التي جاؤوا يفتحونها[3].

(١) البرهان على أن العمود المعروف بعمود بومبي كان على القلعة ما قام به من البحث حديثاً المسيو (بوتي) مدير المتحف الإسكندري.

(٢) كان مقدوراً لهذه المسلات أن يسلبها البريطانيون والأمريكانيون من مصر: وإحداها اليوم على شاطىء نهر التايمز، والأخرى في نيويورك وكانتا حملتا من هليو بوليس قديماً في أيام أغسطس وكان علو الواحدة منها ٦٨ قدماً فكان أعلاها على الأقل يمكن رؤيته على مسافة من خارج الأسوار.

(٣) تروي قصة أن عمرو بن العاص جاء الإسكندرية قبل ذلك فقد قيل إنه في صغره أنجى حيـاة شمـاس رومي مـرتين: فمـرة أنجـاه بـأن أعـطاه مـاء وقـد أشـرف على الهـلاك عـطشـاً. وأنجـاه مـرة أخـرى بـأن قتـل أفعى كـانت على وشـك أن تلسعَـهُ في نـومـه فـوعـده الشمّاس بـأن يعـطيـه ألفي قـطعـة ذهبيـة (١٠٠٠ جنيـه) جـزاء لـه على إحسـانه إذا هـو جـاء معـه إلى الإسكنـدريـة فصحبـه عمـرو على ذلـك فلمـا كـان في المدينة وجد قوماً يلعبون بكـرة عليها نقش التـاج في ميدان السبـاق فاشتـرك معهم ووقعت الكرة في كمه. وقد روى مؤرخو العرب أن هذا شيء لم يحدث من قبل لأحد إلا صار حاكم مصر» ولم تكن تلك الجائزة أقل أجزاء القصة نصيباً من الخيال، فإن عمراً قد يكون زار مصر من قبل من أجل تجارته وقد يكون اشترك في لعب بالكرة يسمى فيه الظافر «ملكاً». ويمكن أن نقرأ هـذه القصة في كتـابي (Weil, Ockley) وهي منقولـة عن ابن عبد الحكم وقد أخذها المقريزي عنـه مفصلة. وتروى روايـة أخرى تجعـل لقاء عمـرو للشمـاس في بيت المقدس وأخـرى تجعل ذلـك بقـرب الإسكنـدريـة، وقـد جـاء في أبـي صالح (صفحة ٧٥) «وقد زار عمرو مصر من قبل في أيام الجـاهلية وعـرف الطرق المؤدية إليها منذ كان يتاجر هناك مع رجل من قريش، وهذا أقرب إلى الحقيقـة. ونجد خبر المقريزي في كتاب الخطط الجزء الأول صفحة ١٥٨.

وكانت مسلحة المدينة عند ذلك نحواً من خمسين ألفاً، وكانت قوات وفيرة فيها إذ هي على البحر، ولم يكن فيه للمسلمين بعد سفينة واحدة تنقص من سلطان الإمبراطور عليه. وكانت الأسوار منيعة تحميها الآلات القوية، وهي الآلات التي رأيناها في زمن (نيقتاس) تفتك بأسطول العدو في النهر وتغرق سفنه. ولم يكن عند العرب شيء من آلات الحصار إذ لم يستطيعوا نقل ما غنموه منها قبل ذلك من الروم، ولم تكن لهم خبرة ودراية في فنون الحصار وحربه. وعلى هذا كان في يد الروم من العدّة والعدد ما يستطيعون به أن يقووا على حرب فرسان المسلمين، وليس لهم من العدة إلا سقيمها. على أن العرب كانوا قبل ذلك قد فتحوا الفتوح العجيبة في مصر والشام، فلم تقف دونهم حصونها، فكانوا كلما ذكروا ذلك امتلأ قلبهم إيماناً وقوة ووثقوا من أن العاقبة لهم. ولكن ذلك الإيمان كان بطيء الأثر، فإن عمراً عندما حمل بجيشه أول مقدمة على أسوار المدينة كانت حملته طائشة غير موفقة، فرمت مجانيق الروم من فوق الأسوار على جنده وابلاً من الحجارة العظيمة، فارتدوا باعدين عن مدى رميها، ولم يجرؤوا بعد ذلك على أن يتعرضوا لقذائفها. وقنع المسلمون أن يجعلوا عسكرهم بعيداً عن منالها وانتظروا أن يتجرّأ عدوهم ويحمله التهور على الخروج إليهم.

وليس في أيدينا من الأخبار الموثوق بها ما يدل على وقوع قتال من هذا القبيل، فليس في ديوان (حنا النقيوسي)[1] شيء آخر في وصف القتال بالإسكندرية سوى ما ذكرناه من تهوّر عمرو في حملته الأولى، وما أصاب العرب من فعل المجانيق التي لم يطيقوا عليه صبراً فارتدوا، ولا نستطيع أن نفهم من ذلك الإغفال إلا أمراً واحداً وهو أنه لم يكن ثمة حصار للإسكندرية بالمعنى الصحيح. فقد كان البحر يحمي المدينة من جهة الشمال، وكانت الترعة وبحيرة مريوط تحميانها من الجنوب، وكان إلى غربها ترعة (الثعبان)، فلم يبق من فرج إلا شرقها وجنوبها الشرقي، ولم يستطع المحاصرون أن يقتربوا من الأسوار من

---

(١) صفحة ٥٧٠.

ذلك الفرج، فلم يكن لهم بد من أن يقنعوا بالوقوف والرصد ولم يكن رصدهم تاماً ولا مجزياً. وعلى ذلك لم يتحقق للعرب حصار المدينة حتى من جانب البر. ومع ذلك فقد كان لوقوف العرب بعسكرهم على كثب من المدينة أثر كبير، إذ كانوا هناك يحادون الروم ويقطعون صلتهم بسائر البلاد. ولسنا نعرف عين الموضع الذي كان فيه عسكرهم، فإن تعيين ذلك من أشق الأمور. فقد قال السيوطي إنه كان «فيما بين الحلوة وقصر فارس وما بعده»، وقصر فارس كان في الجهة الشرقية[1] ولعل الفرس قد بنوه ليستعينوا به على الحصار. فإنا نعرف أن دقلديانوس لم يستطع أن يحدث أثراً في حصون المدينة حتى بنى قلعة في شرقها[2]، ولكنه مع ذلك لم يستطع أن يقتحم المدينة وأسوارها المنيعة التي لا تكاد تنال إلا بجيش قوي ظل على الحصار زمناً طويلاً، وكان في داخل المدينة خونة يساعدونه. فلا بد لنا من أن نقول إن المسلمين عجزوا عن أن يقوموا بعمل ما وقنعوا بالوقوف والمرابطة في عسكرهم، ولم يكن عسكرهم حيث كان إلا مرصداً يرقبون فيه عدوهم. ولعمري إننا لفي شك من أن العرب أقاموا عسكراً في جوار الإسكندرية، فلعلهم لم يبعدوا به عن مدينة كريون.

مضى عند ذلك أكثر شهر يونيه ولم يكن قائد العرب بالرجل الذي يخادع نفسه عن المدينة ويعلل نفسه باستطاعة فتحها عنوة. فقد علم حق العلم أنه لن يستطيع أخذها بالهجوم، وإنما كان واثقاً من شيء واحد، وهو أن أصحابه إذا خرج لهم العدو وناجزهم القتال صبروا وثبتوا وغلبوه، وإن كان أكثر منهم عدداً. وعلى ذلك عول على أن يخلف في عسكره جيشاً كافياً للرباط، وأن يسير هو مع

---

(١) انظر ما سبق في هامش صفحة ١٢٩ والقول الذي أشرنا إليه من قول ابن العبري. وقد اتفق أبو الفداء مع السيوطي في حين أن ابن عبد الحكم يقول إن العرب بعد أن أقاموا في الحلوة شهرين ساروا إلى المقس على الجانب الغربي.

(٢) حنا النقيوسي صفحة ٤١٧، وأقواله جديرة بالذكر: «ولم ينجح في أخذ الإسكندرية إلا بعد أن بنى قلعة المدينة وأقام هناك مدة طويلة ثم أتى إليه بعض أهل المدينة ودلوه على موضع يدخل منه إليها. ولكنه لم يستطع أن يقضي على مقاومة المدينة إلا بجيش كبير بعد عناء شديد».

من بقي من الناس فيضرب بهم في بلاد مصر السفلى، قبل أن يتعذر[1] على المسلمين السير بها إذ كان فيض النيل يقترب أوانه وكان الروم قد هاجروا من حول الإسكندرية فصارت قصورهم البديعة ومنازلهم الجليلة فيما وراء أسوار المدينة فيئاً للعرب، فغنموا منها غنيمة عظيمة وهدموا كثيراً منها ليأخذوا خشبها وما فيها من حديد، وأرسلوا ذلك في سفن بالنيل إلى حصن (بابليون) كي يقيموا به جسراً ليعبروا عليه إلى مدينة لم يستطيعوا من قبل أن يعبروا إليها[2].

---

(١) لعلنا لا ينبغي أن نمر على عبارات مؤرخي العرب في قبط هذا العصر بغير أن نقول كلمة فيه. فقد قال ابن عبد الحكم إن القبط ساعدوا العرب في كل ما احتاجوا إليه وإن رؤساء القبط حفظوا الطرق وأقاموا لهم الجسور وفتحوا الأسواق في سيرهم إلى الإسكندرية. وقد نقل عنه المؤرخون الآخرون هذا الخبر. ولكن من سوء الحظ أن ابن عبد الحكم يغير ترتيب الحوادث ولا نستطيع أن نعتمد على هذا القول، ونذهب إلى أنه يدل على حالة عامة كان القبط عليها في هذا الوقت، وفي الوقت عينه نقول كما قلنا من قبل إن تلك المساعدة قدمها مسلمة القبط كما قدمها غيرهم من القبط الذين أرغموا على الخدمة. ولكنا لا نشك في أن هذه العبارة إنما يقصد بها مساعدتهم للعرب في وقت ثورة منويل. والبلاذري أقل جدارة بالتصديق إذ يقول إن العرب منذ جاؤوا إلى الإسكندرية أراد القبط في المدينة أن يصالحوهم فطلب المقوقس هدنة ولكن العرب أبوا ذلك عليه ثم يقول إن المقوقس أراد أن يخيف العرب بإيهامهم أن عدد من المدينة من الجند عظيم فجعل على الأسوار النساء والأطفال وأمرهم أن يتجهوا بوجوههم إلى داخل المدينة وأن يتجه الرجال بوجوههم نحو العدو. فأرسل إليه عمرو عند ذلك يقول: «إننا لم ننتصر بكثرة العدد، فقد لقينا ملككم هرقل وقد علمت بما كان» فعرف المقوقس صدق قوله ونصح الناس بالإذعان فلامه الناس على خوفه وخيانته وأبوا إلا القتال. وكل هذا خيال محض. فقد كان المقوقس منذ زمن في المنفى. وهذه القصة إنما هي صدى ما حدث في حصن بابليون وقد كان بعض الروم والقبط يلحقون بالعرب أفراداً ولكن جماعتهم لم تساعد العرب ولم تنضم إليهم.

(٢) نقلنا هذا عن حنا النقيوسي، الفصل الخامس عشر بعد لقائه. وقد أساء تأويل هذا وصححه زوتنبرج وهو مخطىء (في هامش ١ صفحة ٥٦٢) فقد قال زوتنبرج إن الواجب تصحيح العبارة الآتية «فذهب عند ذلك ولحق بجنده الذين كانوا في حصن بابليون وحمل إليهم الغنائم التي غنمها من الاسكندرية وكان قد هدم مساكن أهل الإسكندرية الذين =

ولم تكن السرية التي سار بها عمرو بن العاص في مصر السفلى سرية كبيرة، فما كان يتوقع كيداً كبيراً ولا قتالاً شديداً اللهم إلا عند البلاد المحصنة، ولم يكن في الوقت متسع لحصارها لو شاء. وكان عمرو إنما يريد القفول إلى (بابليون)، ولكنه أحب أن يعلم أهل مصر السفلى بقربه ويشعرهم شوكته. فسار إلى كريون ومن ثم إلى دمنهور ثم سار إلى الشرق يجوس خلال الإقليم الذي يعرف اليوم باسم الغربية، حتى بلغ (سخا). وكان ذلك الموضع إلى شمالي المدينة الحديثة (طنطا) على نحو إثنين وعشرين ميلاً منها، وقد ظل إلى ما بعد ذلك الوقت بزمن طويل وهو قصبة الإقليم، وكان موضعاً حصيناً[1]. ولم يفلح عمرو في تحقيق ما كان يريده من النزول على تلك المدينة بغتة وأخذها على غرة، ورأى العرب أنفسهم مرة أخرى وقد عجزوا عن أخذ مدينة تحيط بها الأسوار وتكتنفها المياه. فساروا نحو الجنوب ولعلهم اتبعوا (بحر النظام) حتى بلغوا (طوخ) وهي على نحو ستة أميال في الشمال الغربي من موضع (طنطا). ومن (طوخ) ساروا إلى (دمسيس)[2]، وقد ارتدوا كذلك عن هاتين القريتين ولم

= هربوا» وجعل لفظ (بابليون) بدلاً من «حصن بابليون» ولكن القول الأخير لا خطأ فيه فقد كان العرب يملكون الحصن. ثم قال إن قوله: «الغنائم التي غنمها من الإسكندرية» وقوله: «أهل الإسكندرية» خطآن آخران في الترجمة. ولكن الغنائم التي أخذت من ضواحي الإسكندرية يصح أن يقال إنها أخذت من الإسكندرية. وليس من تعسف أن نسمي الناس الذين يسكنون ضواحي الإسكندرية من «أهل الإسكندرية» ونتفق مع زوتنبرج في أن نقول إننا لا نستطيع فهم القول الذي يصف الغرض الذي أخذ له الخشب والحديد فلا يمكن أن يكون المقصود من «مدينة النهرين» هو جزيرة الروضة، بل لا بد أن يكون ذلك بلداً في مصر السفلى ولا بد أن يكون من الضروري للوصول إليها أن تقام جسور.

(١) جاء في ياقوت أن سخا حصن كورة الغربية وفيها مقام الوالي وقد فتحها خارجة بن حذافة عند فتح عمرو لمصر (الجزء الثالث صفحة ٥١) ولكن خارجة كان قائداً على الحصن «بابليونوقد قال حنا النقيوسي بوضوح صفحة ٥٦١ إن عمراً لم يستطع أن يحدث أثراً ما في سخا عند ذلك ولم يفتحها إلا فيما بعد. وسخا من المواضع القليلة في مصر السفلى التي ذكرها العرب وحنا النقيوسي جميعاً.

(٢) قال حنا النقيوسي في وصف هذا الأمر: «وسار إلى سخا (طوخو - دمسيس) (ترجمة =

يستطيعوا فتحهما ولم يجد أهلهما مشقة في صد العرب. ويرد مع هذه الأخبار ذكر غزوة للقرى التي على فرع النيل الشرقي، قيل إن العرب قد بلغوا فيها مدينة دمياط، ولعل تلك الغزوة كانت على يدي سرية عمرو في هذا الوقت نفسه. ولم يكن من أمرها غير إحراق المزارع، وقد أوشكت أن ينضج ثمرها، فلم تفتح شيئاً من المدائن في مصر السفلى. ولنذكر أن العرب قضوا في عملهم في هذا الإقليم إثني عشر شهراً[1] إلى ذلك الوقت. وبعد ذلك الغزاة التي أوقع فيها عمرو بالبلاد وغنم منها عاد إلى حصن (بابليون) ومن معه دون أن يجني كبير فائدة، وإن لنا لدلالة في غزاته تلك في مصر السفلى، وما لاقاه فيها من القتال في مواضع كثيرة، وعجزه في جل ما حاوله من الفتح في بلاد الشمال القصوى. فإن ذلك يزيدنا برهاناً على ما تحت أيدينا من البراهين على فساد رأيين يذهب إليهما الناس: أولهما أن مصر أذعنت للعرب بغير أن تقاتل أو تدافع، وثانيهما أن المصريين رحبوا بالفاتحين ورأوا فيهم الخلاص والنجاة مما هم فيه.

= روتنبرج) ويزعم أميلنو أن الاسم الأخير تحريف في اللغة الأثيوبية بخلط الإسمين العربيين «طوخ» و«دمسيس» بأن جعل حرف العطف (الواو) آخر حروف الكلمة الأولى (Geog. Copte) صفحة ٥٢٥ وهذا قول مقنع وأما طوخ فإن في مصر السفلى على الأقل ست قرى بهذا الاسم طوخ لا كلام في الدقهلية، وطوخ دلكة، وطوخ بلفظه، وطوخ طبشا في المنوفية، وطوخ الملك في القليوبية، وطوخ مزيد في الغربية؛ ولعل الأخيرة هي المقصودة هنا نظراً لموضعها. وأما (دمسيس) واسمها الآن (ميت دمسيس) فعلى نحو تسعة أميال إلى شرق طوخ مزيد وهي على الجانب الشرقي لفرع دمياط وقد جاء اسمها خطأ في خريطة الدومين (١٨٨٨) للوجه البحري فجعلت هناك (ميت رمسيس) بالراء وهي غلطة عجيبة وقد أوردها (نيبور) على الصورة الصحيحة (ميت دمسيس) انظر كتاب (Voyage en Arabie Etc.) صفحة ٧١ الجزء الأول.

(١) جاء في ديوان حنا النقيوسي أن عمراً «قضى إثنتي عشرة سنة في حرب المسيحيين في شمال مصر السفلى ولكنه أخفق في فتح بلادهم (ترجمة الدكتور شارلس) ويزعم زوتنبرج أن المقصود لا بد أن يكون سنتين بدل إثنتي عشرة سنة، ولكن هذا يكون خطأ في تاريخ الحوادث، ولكنا إذا قرأنا إثني عشر شهراً بدل إثنتي عشرة سنة كان التاريخ صحيحاً فإن الوقت كان عند ذلك شهر يوليه سنة ٦٤١ وقد بدأ القتال في مصر السفلى لفتح بلادها بعد وقعة هليوبولس وكانت في يوليو سنة ٦٤٠.

الفصل العشرون

حوادث القسطنطينية

آخر أيام هرقل ـ قسطنطين وهرقل الثاني يليان الأمر مع الإمبراطورة ـ رجوع قيرس من المنفى ـ موت قسطنطين ـ عصيان فلتين ـ خطة إرجاع قيرس إلى الإسكندرية ـ البواعث التي دفعت قيرس إلى الاذعان للعرب ـ تولية قنسطانز ـ مرتينه ترى الصلح مع المسلمين ـ تيودور وقيرس يرجعان إلى مصر ـ خطة تيودور في الهرب إلى بنطابوليس وحبوطها ـ نزولهما في الإسكندرية .

فيما كانت هذه الحوادث التي نصفها تجري في مصر كانت القسطنطينية تشهد من الغير أجلها . ولقد أشرنا من قبل إشارة موجزة إلى موت هرقل وقلنا إنه حدث في آخر أيام حصار بابليون . وقد كان منذ وداعه المحزن لبلاد الشام في سنة ٦٣٦ يقيم في عزلة في مدينة (خلقيدونية) ، وجعل يسترجع قوة عقله شيئاً فشيئاً بعد أن كان قد مسه شيء من الخبل من قبل ، حتى لقد استطاع أن يعالج أمور دولته في أوروبا ويحل مشكلاتها، مبدياً في ذلك شيئاً مما عهد فيه من الكياسة وأصالة الرأي في أمور السياسة . ولكن جسمه كان قد اعتل ، وزاد في سقمه وآلام دائه ما كان ينتاب الدولة من المصائب والنكبات تلي إحداها الأخرى . فمصائب في الشام تليها نكبات في مصر ، ورأى الدولة وقد فقدت بيت المقدس ثم أنطاكية وقيصرية ، ثم نزعت كل بلاد الشام عنها وأخذها العدو . فأحب أن يخلص مصر من ذلك العدو لما يعرفه من عظم شأنها في دولته . وكانت الحرب الطاحنة التي استمرت طوال السنين قد استنزفت أموال الدولة ورجالها ، ولكنه كان لا يزال يستطيع أن يبعث من جيوشه وخزائنه

المنتقصة أمداداً كبيرة للدفاع عن النيل . ويقول مؤرخو العرب إنه كان عازماً على قيادة تلك الجيوش بنفسه[1] ، غير أنهم إذ يقولون ذلك لا يذكرون أن غزو مصر لم يقع إلا قبل موته بسنة تزيد قليلاً ، وأنه كان عند ذلك صريعاً لدائه الذي قضى عليه ، وقد سلبه السقام قوته ونشاطه إذ لم تقل إنه قد سلبه القدرة على الحركة ذاتها . ثم مات الإمبراطور في يوم الأحد الحادي عشر من فبراير من سنة[2] ٦٤١ بعد أن حكم إحدى وثلاثين سنة ، وكان عمره إذ ذاك ستة وستين عاماً ، وكانت وفاته قبل فتح حصن بابليون بشهرين .

---

(١) مثل السيوطي فإنه يقول: «ورسل ملك الروم تختلف إلى الإسكندرية في المراكب بمادة الروم وكان ملك الروم يقول لئن ظفرت العرب على الإسكندرية إن ذلك انقطاع ملك الروم وهلاكهم لأنه ليس للروم كنائس أعظم من كنائس الإسكندرية وإنما كان عيد الروم حين غلبت العرب على الشام بالإسكندرية (يقصد عيد الفصح) فقال الملك لئن غلبوا على الإسكندرية لقد هلكت الروم وانقطع ملكها، فأمر بجهازه ومصلحته لخروجه إلى الإسكندرية حتى يباشر قتالها بنفسه إعظاماً لها وأمر ألا يتخلف أحد من الروم وقال ما بقي للروم بعد الإسكندرية حرمة. فلمّا فرغ من جهازه صرعه الله فأماته وكفى المسلمين مؤونته» (صفحة ٧٠). ونفهم من التاريخ الذي أورده ومن سياق كلامه أنه يقصد هرقل الأكبر.

(٢) يمكن أن نعتمد على ثبوت هذا التاريخ ولكن الاضطراب المعهود ماثل في هذا الأمر مثوله في غيره. فقد قال تيوفانز وقيدرينوس إن التاريخ هو ١١ مارس في السنة الرابعة عشرة من سني الدورة القسطنطينية بعد أن حكم ثلاثين عاماً وعشرة أشهر وهذا مستحيل لأن حكمه ابتدأ في أكتوبر. والديوان الشرقي يجعل موت الإمبراطور في ٩ فبراير أو (١٥ أمشير) بعد حكم إحدى وثلاثين سنة وخمسة أشهر، والتاسع من فبراير يقع حقيقة في ١٥ أمشير ولكن مدة الحكم التي ذكرها إذا أحصيناها نجد آخرها في مارس سنة ٦٤٢ ولكن (نيقفوروس) يجعل مدة حكمه ثلاثين سنة وأربعة أشهر وستة أيام بالضبط وقد وليَ هرقل الأمر في ٥ أكتوبر سنة ٦١٠ «Later Rom. Emp.» (الجزء الثاني صفحة ٢٠٦).
فإذا أحصينا تلك المدة التي جاء بها نيقفوروس من أول حكمه كان موته في ١١ فبراير سنة ٦٤١ وكان هذا يوم أحد وهو ما يقوله الديوان الشرقي في حين أن يوم ٩ فبراير الذي جاء في هذا الديوان كان يوم جمعة وقد جاء التاريخ الصحيح في (ليبو) ولكن ناشر كتابه (Saint Martin) وكتابه هو (Histoire du Bas Emp.) علّق تعليقاً في صفحة ٢٨٣ من =

وهكذا ختمت تقلبات عجيبة الحوادث في حياة عظيمة . وكان هرقل يقصد في حياته قصداً ، وذلك أن يعيد بناء ما تهدّم من الدولة الشرقية . وكان لا أمل في نجاحه عندما ابتدأ ذلك العمل ، غير أنه أتمه أو خيل إلى الناس أنه أتمه ، وكان إتمامه إحدى العجائب التي قد تبلغ حدّ الإعجاز . ولكن فشله ابتدأ حيث كان إنتصاره ، فإن البناء الذي أقامه لم يكن متماسك الأجزاء ، وكانت جريرته فيه أنه أخطأ وضل ، فحل ما كان يجدر به عقده . وقطع ما كان يجب عليه أن يصله من أواصر التعامل والإشتراك بين الناس في حياتهم ، ومن روابط الدين. وكانت تلك لعمري روابط كفيلة بأن تجمع الناس وتوحد كلمتهم لو أحسن الحاكم وتسامح في حكمه ، وأباح للناس ما يشاءون من أمور دينهم . وإن من أعجب ما اتفق وقوعه في التاريخ أن يقع خطأ هرقل في سياسته في الوقت الذي قامت فيه دعوة الإسلام الجديد في مجاهل بلاد العرب . ولكن هكذا جرت مشيئة الله في قدره وقضائه في العالم . وعاش هرقل حتى تبدى له خطؤه الذي قارفه ، أو لقد استطالت به الأيام كي يندب سوء حظه الذي أفسد عليه أعماله وأحاط بثمارها . وقد كان في أمور الدين يسير على ما تعارف عليه الناس في زمنه، وكان في ذلك سوء حظه ، إذ لم يرتفع فوق ذلك ولم يبتدع في سياسة الدين خطة جديدة تصلح لعصره وما جدّ فيه من الأحوال . وإنه لجدير بنا أن لا نلومه بل نرحمه ونعطف عليه لما لحق به من الفشل ، وحسبه ما لا بد قد لاقاه من غصة الندم فوق ما كان به من ألم الداء في آخر أيامه . وقد عهد قبل أن يموت بما يؤول إليه الأمر بعده ، فجعل ابنه قسطنطين يقسم الأيمان على أن يعفو عمن كانوا في السجن والنفي ، وأن يرجع كل طريد طرده[1] . ودفن

= الجزء الحادي عشر فضل فيه التاريخ المخطىء الذي جاء به تيوفانز وقيدرينوس وقال: «ولما كان المؤرخون لم يورد أحد منهم التاريخ الصحيح كان لا بد أن ما جاء في هذا النص تاريخ مخطىء» ويجدر بنا أن نضيف بعد أن حنا النقيوسي يقول إن موته كان في شهر (بكاتيت) وهو فبراير عند الروم، ويقول إنه كان في العام الرابع عشر من سني الدورة وسنة ٣٥٧ للشهداء وهو تاريخ دقيق في كل ما جاء فيه.

(١) سبيوس.

الامبراطور في كنيسة (الرسل المقدّسين) وبقي قبره مفتوحاً ثلاثة أيام . وقد جعل مع جثمانه تاجه الذهبي فنزعه قسطنطين عنه ثم أعاده إليه هرقل الثاني ووهبه للكنيسة[1] .

وُلِيَ الأمر بعد هرقل بعهد منه ولداه ، قسطنطين ولد زوجه (أودوقية) ، وهرقل ابن زوجة الأخرى مرتينه ، وجعلت الإمبراطورة شريكة لهما ، ولكن ذلك الإشتراك لم يكن مما يتيسر الحكم معه ، وما كانت الإمبراطورة مرتينه لترضى بمثل هذا الإشتراك في الحكم وهي من هي ، ذات العزم القاطع التي حكمت الدولة لا يكاد يشاركها أحد في أواخر أيام زوجها . وكان قسطنطين أكبر الأخوين وآثرهما عند الناس ، وكان من حزبه خازن الدولة (فلاجريوس) و (فلنتين) الذي جعل عند ذلك قائداً ، وبعث ليكون قائد الجند في آسيا الصغرى[2] ، وعلى ذلك لم توفق مرتينه في سعيها في أمر ولدها هرقل أو (هرقلوناس) كما كانوا يسمونه تمييزاً له ، بل وجدت في سعيها ذاك مقاومة شديدة . وكان البطريق سرجيوس قد سبق الامبراطور إلى أجله ، واختير لولاية أمر الدين بعده راهب اسمه (بيروس) . ويلوح لنا أنه كان في أوّل أمره مع قسطنطين ممالئاً على مرتينه ، فبايع لقسطنطين بالملك ولم يشرك معه مرتينه ولا أحداً من أولادها[3] . ولكن داود و (مارينوس) عملا على اختطاف (بيروس)

---

(١) نيقفوروس وهو الذي قال إن التاج قدر بسبعين رطلاً من الذهب.

(٢) أخذنا هذا عن سيبوس وقد علق الأستاذ (بيوري) على ذلك بحق بقوله: «ويخيم على تاريخ خلفاء هرقل ستار كثيف من الظلمة، ويأسف لأنه ليس ثمة مؤرخون وممن كانوا يعيشون في ذلك الوقت (Later Rom. Emp.) (الجزء الثاني صفحة ٢٨١) ولكن سيبوس وحنا النقيوسي يكادان يكونان معاصرين وكلاهما يذكر طائفة عظيمة من أخبار هذا العصر، وكان سبيوس بلا شك يكتب على الأكثر أخبار أرمينية. وأما حنا فقد كان ميدان أخباره واسعاً، غير أن معظم عنايته كان بأخبار مصر بطبيعة الحال وكلاهما على أي حال صعب على الافهام.

(٣) حنا النقيوسي صفحة ٥٦٤ وعبارته واضحة ولكنها تناقض ما يقرره التاريخ. وعلى ذلك كان (بوري) يقول إن «مرتينه كانت على وفاق وثيق مع البطريق المونوثيلي (بيروس) انظر =

وحملاه سراً إلى جزيرة في غرب أفريقيا[1] .

وقد قام قسطنطين بإنفاذ أمر أبيه فأرسل أسطولاً عظيماً ليعيد (قيرس) من منفاه[2] ، وكان يود الإجتماع به كيما يستشيره في أمر مصر ، وكانت مرتينه تلح في إرجاعه إذ كانت عالمة بما ينطوي عليه قلبه من الولاء لها والمواتاة في مقاصدها وأمانيها . ولا نعرف عن يقين متى كان إجتماع قسطنطين (بقيرس) ، ولا ما إنتهى إليه أمر ذلك الاجتماع ، لأننا لا نعرف أين كان منفاه ولا المدة التي استغرقها رجوعه من ذلك المنفى إلى عاصمة الدولة . وقد دعي كذلك (تيودور) من مصر لكي يشير على الامبراطور بما يراه ، واستخلف (أنستاسيوس)[3] على حكم الإسكندرية ومدائن الساحل التي لم يفتحها المسلمون إلى ذلك الوقت . وكان من رأي (تيودور) ألا يدخل الروم في أي

= الكتاب السابق الذكر صفحة ٢٨٢ . ولا بد أن يكون (بيروس) قد غير رأيه ودخل في حزب غير حزبه الأول، فقد أورد حنا نفسه صفحة ٥٧٩ خطاباً قيل إنه أرسل من مرتينه وبيرس إلى داود (المترجويم) يحرضانه على قتال الفرع الأكبر من أسرة هرقل.

(١) لعل المقصود هو (مالطة) أو (جوزو).

(٢) قال المستر بروكس في مقالة له في (Byzantinische Zeitschrift) تعليقاً على هذه الفقرة من كتاب حنا (١٨٩٥ صفحة ٤٤١) أن الأسطول إنما أرسل لإحضار قيرس من القسطنطينية إلى خلقيدونية، ولكن كلمات حنا هي «فجمع قسطنطين عدداً عظيماً من السفن وأرسلها بقيادة قيريوس وساركريوس لإحضار البطريق قيرس إليه» ومن المحقق أن مثل هذه الرحلة القصيرة لا تدعو إلى أسطول كبير فلا بد أن قيرس كان في منفاه وإذا كنا لا نعرف أين كان ذلك المنفى فإنّا لا نشك في أنه كان منفياً. ويعزو حنا استرجاع قيرس إلى مرتينه فهي التي حرضت قسطنطين على ذلك بغير شك.

(٣) لقد تصرفنا هنا بعض التصرف في قول حنا النقيوسي بأن بدلنا موضع الإسمين. فقد جاء في الأصل «أنه أرسل أمره إلى أنستاسيوس ليأتي إليه وترك تيودور على حراسة الإسكندرية ومدائن الساحل» (صفحة ٥٦٤) ولكننا نرى أن هذين الإسمين قد بدل وضعهما: (١) لأن تيودور كان القائد العام ورئيس أنستاسيوس. (٢) لأنه جاء في صفحة ٥٧٤ أن أنستاسيوس كان حاكم الإسكندرية فعلاً قبل عودة قيرس. (٣) لأنه جاء في صفحة ٥٧٣ أن تيودور كان مع قيرس في رودس في طريقه عائداً إلى مصر.

صلح مع العرب ، ومهما يكن من رأي (قيرس) ومشورته في ذلك الأمر فقد استطاع تيودور أن يحمل الامبراطور على أن يعد بإرسال أمداد كبيرة إلى مصر في أثناء فصل الصيف . ثم أمر الملك بتجهيز السفن لنقل الجنود ، وما كاد كل ذلك يعدّ حتى مرض قسطنطين مرضاً مخطراً ، وكان منذ وليَ الملك يضعف جسمه ويعتل ، ثم مات في الخامس والعشرين من شهر مايو من سنة ٦٤١ بعد أن حكم مائة يوم . ولا نعرف هل مات الموت المعتاد أم قد فتك به غدراً على يد الامبراطورة مرتينه ، وإن تهمة الفتك به لتتردّد في أخبار ذلك العصر[١] ، وقد جهر بها ابنه قنسطانز فاتهم الإمبراطورة معلناً .

أما مرتينه فقد اتخذت موت قسطنطين ذريعة توسلت بها إلى المبايعة لابنها (هرقلوناس) بملك الدولة ، وأرادت أن تتملق الناس فأنفذت تعيد البطريق (بيروس) من منفاه . ولكن ذلك النصر الذي صادفته أثار في قلوب الناس حقداً لم يلبث أن أشعلَ نار العصيان . فما سمع (فلنتين) بما حدث من موت قسطنطين وما تبعه من عزل (فلاجريوس) ، حتى جاء بجيشه إلى (خلقيدونية) . وكانت مرتينه هناك ، وطلب إليها إرجاع (فلاجريوس) . وقد لقي مساعدة على طلبه ومواتاة من جند الإمبراطورة ، ثم رضي به هرقلوناس وأقره في خطاب ألقاه . غير أن فلنتين لم يقنع بما أصاب من النصر ، بل عَبَرَ المضيق مع (دومنتيانوس) وصحبهما جماعة من أعيان الدولة حتى بلغوا العاصمة ، فبايعوا لابن قسطنطين وهو (قنسطانز) الثاني وجعلوه شريكاً (لهرقلوناس)[٢] في الحكم .

---

(١) يقول حنا إن مرض قسطنطين بدأ عند توليته ولكن موته كان من قيء دموي ولعله نشأ من إنفجار عرق . ويوافق نيقفوروس على أن مرضه طالت مدته والظاهر أن تيوفانز يتهم بيروس بتدبير موته مع مرتينه ولكن بيروس كان في منفاه ولم يكن مع مرتينه في تدبيرها ولعل المقصود هو قيرس فإن هذين الاسمين كثيراً ما يختلطان (أنظر هامش زوتنبرج على صفحة ٥٦٤ من كتاب حنا) وأكبر الظن أن هذه التهمة لا أساس لها وقد جاءت في سبيوس عبارة عجيبة إذ قال أن قسطنطين مات وقد خدعته أمه .

(٢) يقول سيبوس أن فلنتين قبض على مرتينه عندما وصل إلى قسطنطينية وقطع لسانها وقتلها=

ويلوح لنا أن هرقلوناس كان قبل تلك الثورة التي ثارها (فلنتين) قد أعدَّ العدَّة لإرجاع (قيرس) إلى حكم الإسكندرية ، ولا بد أن المبايعة لقنسطانز كانت في أوائل سبتمبر من سنة ٦٤١[1] . وذلك بعد أن سافر قيرس في وجهه إلى مصر . وكانت مع قيرس طائفة كبيرة من القسوس ، ولم ينقص شيئاً من سلطانه الدنيوي بل أباح له الإمبراطور أن يصالح العرب ، وأن يقضي على كل قتال بعد ذلك في البلاد ، وأن يعمل على إقرار الأمر فيها وإدارة شئونها . وإنا لنلمح من ثنايا ما تقدم به الإمبراطور إليه أنه كان لا يزال يساوره الأمل في أنه يستطيع الإبقاء على سلطان الدولة في مصر ، ولكنه من غير شك قد حمل الإمبراطور وهو غرير لا رأي له على الإذعان للعرب والتسليم لهم، كما حمل على رأيه هذا مجلس الشيوخ المستضعف ، ورجال البلاط وهم من أهل العجز والخور . ولا ندري أكان في ذلك يصدر عن نية طاهرة أم كان يرمي عن مكر وخديعة . ومن الجلي فوق ذلك أنه استمال الإمبراطورة مرتينه إلى رأيه الضعيف ، لا سيما وقد كان أنصارها ممن يرون مصالحة العرب مهما كلفهم الأمر ، وكانت هي أبداً في سياستها ترمي إلى التسليم والإذعان ، وذلك رأي قيرس الذي ظل يجاهر به في كل حين .

أما ما كان يجول في قرارة نفس ذلك البطريق من مختلف النزعات فأمر لا

= وقتل معها أولادها وألبس قسطنطين الأصغر التاج . ويقول حنا النقيوسي (صفحة ٥٨٠) إن الجند ثاروا في بيزنطة يقودهم تيودور وهو الذي قبض على مرتينه وأولادها الثلاثة ورمى عنهم التيجان وجدع أنوفهم ونفاهم إلى رودس وهاتان الروايتان مختلفتان ولكنهما تصفان ثورة فلنتين الثانية التي حدثت فيما بعد . والظاهر أن سبيوس يقول أن (فلنتيان) و (فلنتين) كانا شخصاً واحداً (الفصل الثاني والثلاثون) ولكن الأستاذ (بوري) يشك في ذلك في كتابه (Later. Rom. Emp.) (الجزء الثاني صفحة ٢٨٧) ولكنا نظن أن أسبابه ليست وجيهة في ذلك .

(١) يدلل المستر بروكس (الكتاب الأول صفحة ٤٤٠ هامش ٢) على أن مجمع رومه الذي عقد في ٥ أكتوبر سنة ٦٤٩ قيل عنه إنه كان في السنة التاسعة من حكم (قنسطانز) ولكن قنسطانز لم يتوج على أنه الحاكم وحده على الدولة إلا بعد ذلك في نوفمبر .

يصل إليه الحدس ولا يبلغه التصور ، فقد أظهر الجبن والضعف إذا لم يكن قد أظهر الخيانة منذ أشهر عدة ، قبل أن ينقسم الناس ويتفرقوا شيعاً في أمر ولاية الملك بعد قسطنطين ، ذلك التفرق الذي كاد يبلغ حد الحرب الأهلية . فماذا كان الدافع له على الفرار من ميدان أعماله ، وإن شئت قلت الهروب من جرائر سعيه . فقد قضى عشر سنين وهو يعسف بقبط مصر حتى بدا منهم ما يشبه الإذعان ، ولكنه كان يعرف أنهم لن يلبثوا أن يعودوا إلى عقيدتهم إذا ما رفع عنهم وطأته . فهل كان قد أدرك عند ذلك أن سياسته في العسف والإضطهاد كانت جناية لم تلق نجاحاً ؟ إنه لا شيء أبعد عن الحقيقة من تصور هذا . وإنه لأقرب إلى الحقيقة أن نقول إنه قد أيس من أمر الدولة في مصر منذ رأى ما حل ببلاد الشام . ومنذ بلغ به اليأس ذلك المبلغ عزم على أن يسعى لكي يباح مذهبه الديني في مصر ، لا بل سعى إلى أكثر من ذلك ، فقد طمع في أن يثيبه المسلمون على مساعدته لهم بأن يبسطوا يده على الكنيسة القبطية في مصر ، ويكون عند ذلك مالكاً للأمر ليس لأحد في القسطنطينية سلطان عليه .

إذن كان (قيرس) يريد أن يزيد في سلطانه الديني بالإسكندرية ، ويقيمه على أطلال الدولة بعد خرابها . ولسنا نجد رأياً آخر أكثر ملاءمة لما بدا منه ، فهو خير رأي نستطيع به أن ندرك ما كان بينه وبين عمرو من صلات خفية ، وما قارفه من خيانة دولته الرومانية . فلنصفه بأنه خائناً للدولة في سبيل ما توهمه صلاحاً للكنيسة .

وقد قنع بأن يتبع خطوات الإمبراطورة أو أن يشير عليها برأيه ، وخالف أمر دينه وهو يحظر أن يلي الملك من ولدوا من زواج غير مباح . والدليل واضح على أن قيرس عاد إلى مصر ومعه جيش قد أعد ليكون إمداداً لجند مصر يساعدهم على قتال العرب ، إذا لم يسفر الأمر عن صلح معهم . ولعل ذلك الجيش قد أرسل معه ليكون قوة لحزب الإمبراطورة بين جند مصر . وأرسل معه قائد جديد لمسلحة الشرطة اسمه قسطنطين ليحل محل القائد المعزول (حنا) . وأما (تيودور) فإنه بين أحد أمرين : إما أن يكون قد حل في الوقت عينه إلى مصر ، وإما أن يكون قد ذهب إلى جزيرة (رودس) عند مقدم

(قيرس) وأقام بها حتى يوافيه الجيش فيلحق به . وكانت الإمبراطورة (مرتينه) بتلك الجزيرة كذلك ، ولا ندري علة مقامها فيها أكان ذلك هرباً من وثبة (فلنتين) وظهور أمر ثورته ، أم كان عن ذعر أصابها عندما علمت بمبايعة (قنسطانز) . ولعلها أرادت أن تجتمع (بقيرس) و (تيودور) كي يشير عليها بما يريانه فيما جد من الحوادث . وعلى أي حال فقد كانت قمينة أن يقلق بالها لما كان حولها من اختلال الأمور في العاصمة ، واختلاف الكلمة واضطراب الأحوال بين رجال الحاشية .

وقد كان فلنتين في كيده وغدره عِدلاً (لقيرس) ، لا يتورع في وسيلة ولا يقف عند حد . وكان قد سبر قلوب الجند وفحص عما للامبراطورة فيها ، فألفى أن الكثيرين لا يحملون لها إلا نفاقاً ورياء ، وأن حبها والإخلاص لها لم يتغلغل في نفوسهم . ووضع يده في خزائن (فلاجريوس) فأنفقها في العطاء لجند مصر ليستميله إليه ، وأوقع بينهم الفرقة والعداوة فجعلوا بأسهم بينهم ، وكفوا عن قتال المسلمين . فكانت الحرب الأهلية على ذلك قد اشتعل لهيبها ، ولم تكن بحرب بين القبط والروم[1] ، بل بين طائفتين من جيش الدولة ، وكان (تيودور) ذا شأن عظيم في عين الثائرين ، وكان لا بد لهم أن يستوثقوا من أنه معهم وأنه لن يعين الإمبراطورة . ولم يكن ثمة شيء يستحيل في مثل تلك الحال المضطربة وما فيها من مكائد ومكر . وكان (تيودور) يخفي في نفسه آمالاً يتمنى أن يحققها ، فجاءته في (رودس) رسالة في السر بعث بها إليه (فلنتين) يَحُضُّهُ على أن يخذل الإمبراطورة وينقض ما عقد لها من ولائه ، وعلم أن (فلنتين) قد بعث بمثلها إلى (بنطابولس) وإلى سائر بلاد الدولة ، ورأى أن يد الكيد تعمل في التفريق بين الجنود الذين جاءوا إلى مصر مع (قيرس) ، فأعمل الفكر في أمره حتى استقرّ به على أن يقطع اتصاله بالإمبراطورة ويرحل خفية إلى (بنطابولس) . ولسنا ندري ما الذي دفعه إلى هذا العزم ، فقد يكون أراد الإعتزال والإبتعاد عن العواصف المقبلة ، وقد يكون

(١) أنظر ما سبق في صفحة ٣١١ .

أراد التشبه بهرقل في المخاطرة بنفسه في سبيل التاج ، فيقيم دولة جديدة في قرطاجنة . وقد يكون اعتزم أن يستجم القوة ويجمع المال ويقف بالمرصاد لما تنجلي عنه الحوادث ، فمنذ كره أن يذعن للمسلمين أراد أن يستعد بجيش يهبط به عليهم من قرطاجنة . وكان تدبيره أن ينفصل في ظلام الليل عن الأسطول الذي مع (قيرس) ، ولم يعلم بذلك إلا ربان السفينة التي كان فيها . والظاهر أن ذلك الربان وعده بإنفاذ ما أراد ثم ندم على وعده ، وادعى أن الريح تصدّ السفينة عن المضي في تجاه بنطابولس . ففشل تدبير (تيودور) ورأى نفسه مع سائر السفن مصاحباً (لقيرس)[1] في ميناء الإسكندرية ، قبل أن يطلع نهار (يوم الصليب المقدس) ، وذلك في الرابع عشر من سبتمبر من سنة ٦٤١ .

---

(١) قد عالجنا مسألة تاريخ عودة قيرس ووصوله إلى الإسكندرية في الذيل الذي كتبناه عن تاريخ الفتح العربي وقد وجدنا بعد كتابته أدلة جديدة تدعم اعتقادنا أنه جاء مع تيودور في اليوم الذي ذكرناه . ومن المحتمل أن تيودور قد جاء على سفينة أخرى غير سفينة قيرس ولعله تسلل من رودس بغير أن يخبر قيرس بخطته ، فإذا صح ذلك فلا بد أن تكون سفينة قيرس قد لحقته في طريقه .

الفصل الحادي والعشرون

تسليم الإسكندرية

الحرب الأهلية بمصر ـ الإضطراب في العاصمة ـ وصول قيرس ـ موكبه الحافل إلى القيصريون ـ خطبته هناك ـ استئناف إضطهاد القبط ـ رحلة قيرس إلى بابليون في السر ـ أحوال مصر العليا ـ اجتماع قيرس وعمرو ـ يوافق قيرس على تسليم المدينة ـ صلح الإسكندرية ـ شروط ذلك الصلح بحسب الروايات المختلفة ـ رواية حنا النقيوسي ـ النص العربي وتعليق المؤرّخين العرب عليه.

حدث في أثناء غياب قيرس في منفاه أن ثارت بمصر فتنة بين الناس ، يتقد لهيبها بين حين وحين ، فثار القتال مرة بين أهل كورة مصر وأهل الكور في الشمال ، ثم عاد السلام بينهم بعد أحداث كثيرة ، وما كاد الأمر يستقر حتى استعر القتال في العاصمة ذاتها . وكان كبار الروم أحزاباً وشيعاً ، تباعد بينهم الإحن ويغري بينهم التحاسد . وكان حرص كل من الحزبين الأخضر والأزرق على القتال فيما بينهم أعظم من حرصهم على حرب العدو الرابض عند أبواب مدينتهم . فكان (دومنتيانوس) الذي أسلم الفيوم و (نقيوس) يناصب (ميناس) العداء وينافسه في التطلع إلى القيادة العامة في الجيش ، وكان (ميناس) يحقد على (أودوقيانوس) أخي (دومنتيانوس) لما كان منه من شنيع الأفاعيل بالقبط الذين كانوا في حصن بابليون[1] في يوم عيد الفصح المشهور ،

(١) وهذا يدل بغير شك على أن ميناس كان قبطياً أو أنه كان يميل إلى القبط . وميناس هذا الذي ذكره حنا (صفحة ٥٧٠) لا بد أن يكون غير ميناس حاكم مصر السفلى في أيام هرقل (صفحة ٥٧٧) وقد وصف بأنه كان يكره القبط . وهذا الإختلاف في الميول دليل =

وكان (تيودور) لا يزال غاضباً على (دومنتيانوس) لما كان من جبانته في الهروب من (نقيوس) تاركاً جيشه ومتخلياً عن واجبه . وإنه لمن العجيب أن يبقى (دومنتيانوس) في منصبه لم يؤاخذ أو يقتص منه بالقتل ، فليس غضب رئيسه عليه بالجزاء الوفاق على ما جناه . ولعله لم ينج مما كان يحق عليه من القصاص إلا لمحاباة الإمبراطورة له ولقرابته من قيرس إذ كان صهراً له بزواجه من أخته . على أن (دومنتيانوس) لم يرع في (قيرس) إلاَّ ولا صداقة ، ولم يحفظ له جميلاً ، إذ كان لا يظهر له إلا إزدراءً وحقداً غلب عليه عقله . وكان معه الحزب الأزرق ، فاتخذ من رجاله عصبة استعان بها في نضاله . فلما رأى (ميناس) ذلك استعد له بمثل عدّته فاتخذ من الحزب الأخضر له عصبة .

وفيما كان الأمر على هذا التحرّج المخطر ، نزل إلى الإسكندرية رجل اسمه (فيليادس) وكان حاكم الفيوم وأخاً (لجورج) وهو سلف (قيرس) على بطرقة المذهب الملكاني . وكان (ميناس) قد أحسن إلى (فيليادس) ولكنه أساء جزاءه ، وكان (فيليادس) فوق هذا مقارفاً للخيانة إذ كان يضع يده في الأموال العامة ، وكان الجند يكرهونه كراهة تعدل حبهم (لميناس) . ولم يمض زمن طويل حتى اشتدّ الأمر وتأزمت الأزمة ، ففيما كان (ميناس) يوماً يصلي بإخوانه الأقباط في الكنيسة الكبرى كنيسة (قيصريون) إذ ثار أهل المدينة بفيليادس يريدون قتله . ولكنه فرّ منهم ولجأ إلى منزل صديق له فاختبأ فيه ، فذهب الثائرون إلى بيته فنهبوه وأحرقوه ، وكانوا من الحزب الأخضر ، وعند ذلك أخرج (دومنتيانوس) إليهم عصبته من الحزب الأزرق ، والتقت العصبتان في قتال شديد في طرق المدينة فقتل منهم ستة وجرح كثيرون ، ولم يستطع (تيودور) أن يقضي على الفتنة إلا بعد مشقة وعناء . وبعد أن إنتهى الأمر أعيد إلى (فيليادس) ما سلب منه ، وعزل (دومنتيانوس) من مرتبته في الجيش . ولكن يلوح لنا أنه أعيد فيما بعد إلى ما كان عليه ، وذلك بعد أن أمر

= قاطع على أن الأسماء لا تدل على شيء من ميول الناس بكونها أسماء قبطية أو غير قبطية .

(تيودور) بالعودة إلى القسطنطينية . فالحقيقة أن (دومنتيانوس) كان مع عداوته لقيرس يـ ى رأيـه في السياسـة ، وكانـا كلاهمـا سواء في تقـريـب الإمبراطـورة والحظوة عندها ، وكان كلاهما يشير عليها ويزين لها رأي الإذعان للعرب .

ولنذكر هنا أن (حنا النقيوسي) يصف نضال الأحـزاب في الإسكندريـة وكأنما يقرّ بأنه عاجز عن إدراك أسبابه . فإن سياق قوله يدل على أن منشأ ذلك النضال كان بعضه من عداوات خاصة . وبعضه كان من أثر الشيع السيـاسية . على أنه يذكر بعد ذلك أن بعض الناس يـذهبون إلى أن اشتـداد ذلك النضـال واستعار لهبه إنما يرجع إلى اختلاف المذاهب الدينية . ولكنه لا يوضح الأمر ولا يجلو الظلمة عن حقيقة ذلك النضـال ، فلا نـدري أكان بين (المـونوفيسيين) و (الملكانيين) ، أم كان بين (الملكانيّن) و (المونوثيليين) ، أم بين اليهود والمسيحيين ، فالحق أن الأمر مشكل لا يستبين المرء فيه وجهاً للرأي . ولكنـا إذا ذكـرنا أن كثيـرين من أهل مصـر السفلى والصعيـد أتـوا إلى الإسكنـدريـة لاثذين ، وإذا ذكرنا أن (حنا النقيوسي) يروي لنـا خبر اجتمـاع القبط بكنيسة (القيصريون) للصـلاة[1] ، إذا ذكرنـا ذلك أمكن أن نقـول إن عدد القبط في الإسكندرية زاد في ذلك الوقت زيادة كبرى ، وأنهم استطاعوا أن يتنسموا شيئاً من نسيم الحرية وأن يعود إلى نفوسهم شيء من القوة منذ غاب المقوقس عنهم في منـفـاه ، وارتفع عنهم عسفـه واضطهـاده . فلعلهم عنـد ذلـك شعـروا من أنفسهم بالقوة فرموا سهمهم مع الرامين ، ينـاصرون من أحبـوا ويحاربـون من كرهوا ويلقـون بدلـوهم في دلاء الإسكندريـة ، التي كانت تضـطرم من عداوة الأحـزاب ونضالهـا . وإن تعجب فعجب أن يقرأ الإنسـان نبأ نـزول المقـوقس بالإسكندرية في ذلك الصباح من شهر سبتمبر ، وأن أهل المـدينة طرا ملكهم الفـرح فخـرجـوا « يـظهـرون سـرورهم ويشكـرون الله على عـودة بـطريق

(١) ما كان ليصف أية صلاة أخرى غير الصلاة القبطية بقوله « اجتماع المؤمنين » (صفحـة ٥٧١) .

الإسكندرية »[1] وتوافد الناس من كل جانب يحيونه ويكرمونه من رجال ونساء كباراً وصغاراً ، فما كنت تسمع كلمة مخالف ولا همسة خوف . ولكن ما كان للقبط أن يدخل إلى قلبهم فرح بمقدم (المقوقس) ، بل ما كان لهم أن يبقى أمل في قلوبهم من وراء عودته . ولا يسعنا على هذا إلا أن نذهب إلى نتيجة من هذا القول . وذلك أن القبط ما كانوا في الإسكندرية مهما بلغ عددهم إلا فئة قليلة ضائعة بين أهلها الكثيرين لا يحس أحد بهم .

أما قيرس فإنه عمد قبل أن تصحو المدينة ويذيع بين أهلها نبأ مقدمه، فذهب سرًّا مع (تيودور) إلى دير رهبان (التبنيسي) ولعله كان قريباً من الموضع الذي نزل فيه من البحر[2] وأمر بإقفال باب الدير، وأنفذ إلى (ميناس) يدعوه للحضور إلى الدير، فلما جاء جعله (تيودور) قائد مسلحة المدينة وعزل (دومنتيانوس) عن تلك القيادة، فأسرع أهل المدينة إلى إخراجه منها. وكانت عودة قيرس في مثل اليوم الذي أقيم فيه الاحتفال بإعلاء الصليب، وقصد بذلك

(١) هذه كلمات الدكتور شارل في ترجمته للنص الأثيوبي . وليس أدل من هذا الوصف لعودة قيرس على نقاء ضمير حنا النقيوسي وقلة تحيزه . ولقد كان من السهل عليه أن يصف مقابلة الناس له بالفتور أو أن يغفل ذكرها ، ولكن حنا يصفها بأنها كانت بحفاوة عظيمة وأن السرور لم يكن سرور بمقدم قيرس شخصه بل بمقدم « بطريق الإسكندرية » صفحة ٥٧٤ . ومن العجيب أن أميلنو يعلق على ذلك القول تعليقاً يلوم فيه الكاتب على وصفه فيقول « وفيما عدا ذلك فإني في عجب عظيم من حنا النقيوسي وهو الأسقف اليعقوبي إذ يصف قيرس بأنه بطريق الإسكندرية وهو الذي كان يجب عليه أن يذمه ويلعنه في حين أن (بنيامين) وهو البطريق الحقيقي في نظره كان في ذلك الوقت طريداً في الصعيد (حياة البطريق القبطي إسحاق صفحة ٧١ XX) ولكنا نرى أن صراحة حنا تزيد من ثقتنا فيه واعتمادنا على أخباره كمؤرخ .

(٢) كان (Tabenneai) موضعاً على عشرة أميال من Tentyria وهي (دندرة في الصعيد) وكان مقر إخوة طائفة (الباخوميين) أنظر كاترمير (Mem. Geog. et Hist.) الجزء الأول صفحة ٢٨١ وأميلنو (Geog. Copte) صفحة ٢٦٩ وما ذكره هؤلاء من المؤلفات . ولقد كانت هذه الطائفة قبطية محضة . ولكن هذا الدير الذي كان في الإسكندرية استولى عليه قيرس وجعله للملكانيين وإلاّ فإن من فيه من الرهبان لا بدَّ كانوا بين الألوف الكثيرة التي نزعها الاضطهاد من مذهب القبط .

أن يعيد إلى نفوس جند الروم ما ضاع من قوتها، ويدل الجهد في الانتفاع بتلك الذكرى ما وجد إلى ذلك سبيلاً. ولنذكر عندما بعث حنا قائد الشرطة إلى مصر وقد وجهه إليها هرقل يحمل المذهب الديني الشهير إلى (قيرس) حمل معه إلى البطريق صليباً من أجل الصلبان شأناً ، لعله كانت فيه قطعة من الصليب الأعظم نفسه[1] ، وقد أودع هذا الأثر الثمين في دير رهبان (تبنيسي) . فلا عجب إذا حمله (قيرس) في موكبه إلى الكنيسة العظمى كنيسة (القيصريون)، التي أقيمت فيها صلاة التحية . وقد فرشت النمارق في طريق ذلك الموكب من الدير إلى الكنيسة ، وكانت الرايات والألوية من الحرير تخفق فوق رأس (قيرس) إذ يسير بين عبق البخور وترتيل الأناشيد ، وازدحمت طرق المدينة العظمى بالناس على سعتها حتى ركب بعضهم بعضاً ، ولقيّ الحبر الأعظم مشقة كبرى في السير في ذلك الزحام إلى الكنيسة . ولكن الموكب سار على أي حال سيراً وئيداً حتى بلغ (المسلتين) المصريتين القديمتين فمر بينهما ثم سار في فناء ذي أروقة إلى أن بلغ باب كنيسة قيصريون فولجه داخلاً .

ولما أن صار في الكنيسة أقام الصلاة وجعل عيد الصليب[2] وإعلاءه

---

(١) أنظر ما سبق في صفحة ٢١٥ هامش ١ وصفحة ٢٥٢ هامش ١ .

(٢) لا بد أن هذه الفقرة في كتاب حنا (صفحة ٥٧٤) قد لحقها تحوير أخرجها عن معناها وقد أساء تأويلها زوتنبرج فجعلها هكذا : « وقد فتح (؟) الحوض الذي كان فيه الصليب المقدس الذي جاءه قبل نفيه من القائد حنا . وقد أخذ كذلك الصليب المحترم من دير الـ (Tabennesiotse) » وقد وضع زوتنبرج نفسه علامة الاستفهام بعد عبارة (وقد فتح) فإنه قد رأى أن الجملة كلها صارت بذلك لا معنى لها . وأما الدكتور شارل فيترجمها هكذا « ومدح البئر الذي وجد فيه الصليب المقدس » والكلمات التي تأتي بعد ذلك في نظرنا قد تغير موضعها فإن قيرس لم يبعث إليه حنا بالصليب نفسه قبل منفاه وما كان هرقل ليرسله إلى مصر ولم يرسله إليها وهو أعظم الآثار وأقدسها ؟ فالصليب الذي أتى إلى قيرس كان الصليب الذي حفظه رهبان (Tabennesi) . وعلى ذلك فالعبارة يجب أن تكون هكذا « ثم حمل أيضاً (إلى القيصريون) من دير رهبان (Tabennesi) الصليب الذي كان قد جاءه من القائد حنا » وهذا يصبح له معنى بعد أن كانت العبارة لا معنى لها .

موضوع خطبته كما ينبغي له، وكانت الكنيسة الشرقية في ذلك الوقت ولا تزال إلى وقتنا هذا تحتفل بهما معاً. وإنه لمعنى جليل ذلك المعنى الذي جعله (قيرس) قطباً لخطبته، معنى يخلع على قائله رونقاً إذا أعوزته الفصاحة. فما بالك بقيرس وهو رب البيان والبلاغة. فجعل يذكر الناس بحوادث الماضي وما فيها من عجب، منذ قام هرقل بجهاده في سبيل الصليب حتى ظفر به فأعاده من يد أعدائه الفرس، ثم أقامه في بيت المقدس في ذلك اليوم المشهود يوم النصر والفوز. ولقد كان قيرس يرمي إلى غرض من سوق تلك القصة، فما كان ذلك القصد الذي رمى إليه؟ لقد صار بيت المقدس في أسر المسلمين عند ذلك، وقد صار المسلمون على أبواب الإسكندرية ذاتها، فكان الأمر على مثل ما كان عليه من البلاء والشدة عندما كان كسرى يملك فلسطين والشام ومصر. فهل تجرأ قيرس في خطبته على الإشارة إلى المغزى الذي تدركه الأفهام من قصة جهاد هرقل؟ وهل أثار في قلوب سامعيه الأمل في الخلاص والإيمان بالنصر واستفزهم إلى جهاد عدوهم باسم الصليب؟ إنه ما كان ليجرؤ على ذلك وقد خذل الصليب وعمل على أن يذله للإسلام ويحنيه لألويته. إنه قد يكون تحاشى الاقتراب من أمور السياسة في خطبته، ولكن لا شك في أنه في خطبته ذلك اليوم لم يزح عن قلبه ما كان يثقله من الأسرار.

ولكن تلك الصلاة لم تنته إلا على كدر ونحس. فإن المصلين أقبلوا بعد الخطبة على الصلاة فقرأ الشماس بدل ما كان يجب عليه قراءته من الأناشيد في ذلك اليوم مزمورة أخرى فيها إشارة لرجعة البطريق، يريد بذلك أن يتملقه ويهنئه. فلما سمع الناس ذلك ضجوا قائلين: إنه قد خالف السنن وتطيروا به على البطريق. وجاء في تلك القصة أنهم قالوا إن البطريق لن يشهد عيداً للفصح بعد ذلك[1]. ولا شك أنهم قد رأوا عليه تغيراً

---

(١) قد ذكرنا في ذيل الكتاب عن تواريخ حوادث الفتح العربي أمر إتفاق عودة قيرس وعودة تيودور، وذكرنا فيه تاريخ اليوم الذي غنى القسوس فيه المزمورة التي كانت في غير موضعها.

واعتلالاً إذ كان النفي قد أسقم جسمه، وكان السير في الزحام ذلك اليوم قد أتعبه، ثم أجهدته بعد ذلك الخطبة وما بذل فيها. ولا بد فوق كل ذلك أن وجهه كان ينم عما كان في قلبه من أشجان تجيش به فتمزقه، فقد كان يرى الناس من حوله يثقون به ويرفعون ذكره ويرونه نصيراً لهم ومعيناً في محنتهم، وكانوا جميعاً عند ذلك قد طهرت قلوبهم وامتلأوا إيماناً بالصليب حتى ليجاهدون في سبيله ويلقون النصر على وعده، ولكن فيما كانوا والآمال تطلع عليهم وتملأ نفوسهم، كان الحبر الأعظم يحس في نفسه وكساً ووهناً ويشعر في قلبه الوخز الأليم، إذ كان مقبلاً على خيانتهم بعد قليل مقدماً على خذلان الصليب والإيقاع بدولة الروم. لقد كان في مقامه ذلك بين شجون شديدة تنتابه، ولا غرابة أن يَنِمّ مظهره الكليل على ما كان يثقله ويهزهز نفسه العاتية، ولا عجب أن يرى الناس في أمارات وجهه أمارات الموت.

قضى قيرس مدة قصيرة بعد مقدمه يعالج طائفة من أمور الدين والدولة كان لا بد فيه من الإسراع بمعالجتها في الإسكندرية، ويلوح لنا أن (أنستاسيوس) كان الحاكم المدني للمدينة في مدة غياب (قيرس). ومن الجائز أن يكون (جورج) الذي استخلفه (قيرس) عند خروجه من مصر على ولاية الدين هو بعينه البطريق الذي كان قبله[1]، وكان (جورج) عند ذلك شيخاً كبيراً. ولكنه كانت له في قومه عزة، وكان كل الناس يظهرون له الإجلال والإعظام لا فرق في ذلك بين حاكم المدينة ومن هم دونه، ولم تكن له يد في اضطهاد القبط. وفي الحق أن القبط تنفسوا الصعداء منذ رحل عنهم قيرس ومنذ انقطعت الصلة بين سلطان الروم وبين قطع كبيرة من بلاد مصر، ولكن (قيرس) لم ينس بعد عودته ما كان في قلبه من الحفيظة على ديانة القبط، فكان يرضى بالإذعان

---

(١) هذا مجرد احتمال . فيقول حنا النقيوسي أن هرقل هو الذي اختاره ولكنه لم يذكر العمل الذي اختاره له ولكنه كان أحد عملين : إما أن يكون بطريقاً أو حاكماً على المدينة وقول حنا يفيد الأمر الأول (أنظر ما سبق في صفحة ٢٠٥ هامش ١) ولكن إذا كان جورج هذا حاكماً أيكون هو جورج الذي ذكر العرب أنه كان الحاكم في سنة ٦٢٧ وقت إرسال النبي كتابه إلى مصر وهو (جورج بن مينا) الذي سمي المقوقس خطأ ؟ .

للعدو وإسلام البلاد له ومصالحة من لا يؤمنون بدين المسيح، ولكنه ما كان ليرضى بأن يسالم القبط أو يعفو عنهم. فاستل سيفه مرة أخرى، ولم يلن قلبه لما حل به من مصائب الدهر ونوازله، بل عاد إلى عسفه بالقبط وظلمه لهم بقلب لا رحمة فيه، وجعل يوقع بمن كان منهم في منال(1) يده.

وإنه لمن العجيب أن يرى المقوقس جدوى في العودة إلى اضطهاده وعسفه. فلعله كان يتستر وراء ذلك ليداري عن أهل الإسكندرية حقيقة أغراضه وهي إسلام بلاد مصر جميعها للعرب. ولا شك في أنه كان في ذلك ينفذ أمراً من مليكه، ولكن أي أمر! لقد كان أمراً غصبه من مليك لا حول له ولا طول، وتوصل إليه بالخداع والدناءة، حتى أنه لم يستطع أن يظهره لكبار قادة الدولة في الإسكندرية، ولا أن يعلنه للناس. فخرج وحده ذاهباً إلى حصن (بابليون)، أو لعله قد استصحب جماعة من قسوسه كانوا على علم بسره، وكان النيل عند ذلك مرة أخرى في أوان فيضه(2)، وذلك في أواخر شهر أكتوبر بعد نحو عام من صلح بابليون الذي لم يتم، إذ مزقه الامبراطور الشيخ (هرقل) في غضب وحنق. وكان عمرو بن العاص عند ذلك قد عاد منذ قليل إلى (بابليون)، ولا ندري فيم قضى الوقت إلى ذلك الحين، أقضاه في قتال بلاد مصر السفلى قتالاً لم يخرج منه بطائل، أم قضاه في غزو بلاد الصعيد يقود سرية إليها بنفسه(3). وليس أمر السرية ذاتها بموضع للشك، فقد خرجت كتيبة صغيرة من المسلمين إلى الصعيد حتى بلغت مدينة (انطنويه) المعروفة الآن باسم (انصنا) وكانت إذ ذاك عاصمة إقليم (طيبة)، وكانت جنود الروم لا تزال منها بقية في ذلك الإقليم. فذهب الناس إلى حاكم الإقليم وهو (حنا) وكلموه في الأمر وطلبوا إليه أن يقفوا

(1) حنا النقيوسي صفحة ٥٦٦ .

(2) إذا علمنا أن المقوقس فاوض العرب مرتين في أوان فيضان النيل إتضح لدينا سبب الخلط الذي وقع فيه العرب بين حصار بابليون وحصار الإسكندرية ورأينا في ذلك عذراً لهم .

(3) جاء في كتاب ابن قتيبة أن عمرا عاد من مصر السفلى في ذي القعدة سنة ٢٠ هجرية (وذو القعدة يقع بين ١٢ أكتوبر ٦٤٠ - ١٠ نوفمبر سنة ٦٤١) ولكن حنا النقيوسي يجعل عودته قبل ذلك ويقول إنه ذهب بنفسه إلى الصعيد صفحة ٥٦٢ .

لقتال العرب، ولكن (حنا) أبى كل الإباء أن يقف للقتال، ثم استولى على الأموال العامة التي جمعت وحملها معه وخرج بجنوده ضارباً في الصحراء إلى الغرب يقصد الإسكندرية، إذ لم تكن به رغبة أن يلقى ما لقيه جنود الفيوم. وكان يرى من نفسه العجز عن مناجزة المسلمين، وعلى ذلك لم يلق العرب مشقة كبرى في فتح بلاد الصعيد. وقال حنا النقيوسي في وصف ذلك الفتح أن المسلمين عندما رأوا ضعف الروم وعداوة الناس للامبراطور (هرقل)، لما أوقعه من الاضطهاد والعسف بأهل مصر كلها ودينهم الصحيح بتحريض قيرس البطريق الخلقيدوني، زادت جرأتهم واشتد ساعدهم في القتال[1]. والحق أن القبط لم يحبّوا العرب، ولكنهم في الصعيد كانوا يحملون في قلوبهم أشد الضغن على من اضطهدهم وعذبهم، حتى أن أهل الفيوم بعد أن استقرت بهم الحال في حكم العرب على دفع الجزية، بلغ الأمر بهم أن صاروا يقتلون من وجدوه من جند الروم. وكان أهل البلاد التي في جنوب الفيوم أقل رغبة من هؤلاء في نصرة الروم.

ولكن القائد العربي كان قد عاد إلى بابليون بعد أن فتح بلاد الصعيد أو على الأقل بلاد مصر الوسطى كيما يستريح بأصحابه في أوان فيض النيل. وفيما كان هناك في ذلك الحصن وافاه (قيرس)، وقد جاءه يحمل عقد الإذعان والتسليم. فرحب به عمرو وأكرم وفادته، ولما علم منه ما جاء من أجله من أمر الصلح قال له: «لقد أحسنت في الشخوص إلينا». فقال البطريق له إن الناس قد عوّلوا على دفع الجزية كيما تقف رحى الحرب. ثم قال: «إن الله قد أعطاكم هذه الأرض فلا تدحلوا بعد اليوم في حرب مع الروم»[2]. ولعل المفاوضة والمشاورة قد استطالت مدّة أيام كعادة أهل الشرق في مفاوضاتهم ثم انتهى

---

(١) لحنا النقيوسي (الفصل الأول) .

(٢) جاء في قول آخر قول قيرس في ذلك الكتاب ما يلي : « لم تكن بيننا وبينكم عداوة قبل اليوم » ويضيف زوتنبرج لفظ « طويلة » وصفاً للفظ « عداوة » ولكن هذا لا يصح النص المخطىء ، ولا بد أن النسخة المخطوطة فيها شيء من الخطأ .

أمرها إلى صلح اتفق فيه الجانبان على شروطه جميعاً، وكتب بها عقد في الثامن من شهر نوفمبر من سنة ٦٤١، ولنسم هذا الصلح صلح الإسكندرية كي نميز بينه وبين الصلح السابق الذي عقد في بابليون، فإن هذا الصلح الجديد إنما كان خاصاً في معظم شروطه بالإسكندرية وتسليمها، وقد تم به فتح العرب لبلاد مصر. واختلفت الروايات في ذكر شروط هذا الصلح ولكن حنا النقيوسي أورد أكبرها وهي:

١ ـ أن يدفع الجزية كل من دخل في العقد.

٢ ـ أن تعقد هدنة لنحو أحد عشر شهراً تنتهي في أول شهر بابه القبطي الموافق للثامن والعشرين من شهر سبتمبر من سنة ٦٤٢[1].

٣ ـ أن يبقى العرب في مواضعهم في مدة هذه الهدنة على أن يعتزلوا وحدهم ولا يسعوا أي سعي لقتال الإسكندرية وأن يكف الروم عن القتال.

٤ ـ أن ترحل مسلحة الإسكندرية في البحر ويحمل جنودها معهم متاعهم وأموالهم جميعها، على أن من أراد الرحيل من جانب البر فله أن يفعل على أن يدفع كل شهر جزاء معلوماً ما بقي في أرض مصر في رحلته.

٥ ـ أن لا يعود جيش من الروم إلى مصر أو يسعى لردّها.

٦ ـ أن يكف المسلمون عن أخذ كنائس المسيحيين ولا يتدخلوا في أمورهم أي تدخل.

٧ ـ أن يباح لليهود الإقامة في الإسكندرية.

٨ ـ أن يبعث الروم رهائن من قبلهم مائة وخمسين من جنودهم وخمسين من غير الجند ضماناً لإنفاذ العقد.

---

(١) هذا تمام أحد عشر شهراً من الشهور القمرية وهي أقل إذا حسبت بشهور الروم (أنظر ذيل الكتاب عن تاريخ حوادث الحرب). وقد جاء ذكر الهدنة واضحاً في ابن الأثير ولكنه يجعلها مدة قصيرة تكفي لمكاتبة الخليفة عمر ومجيء رده عما سئل عنه في أمر الأسرى.

ولم يورد المؤرّخ القبطي هذه الشروط على هذا الترتيب الذي أوردناها به، فإنما قصدنا بترتيبها هكذا أن نجعلها سهلة المأخذ. ففي الشرط الأول ضمان للقبط في أنفسهم وأموالهم وكنائسهم. وإباحة لهم أن يتدينوا كما شاؤوا بحسب شعائر دينهم، فإن دفع الجزية والأموال جعلهم (أهل ذمة) لهم هذه الحقوق على الفاتحين. وقدّرت الجزية بدينارين على كل رجل إلا على الشيخ العاجز والولد الصغير، وقد بلغت الجزية إثني عشر ألف ألف دينار، وذلك نحو ستة آلاف ألف من الجنيهات[1]. وكان على أهل مصر فوق هذه الجزية أن يدفعوا الأموال على أرضهم وعقارهم. وأما الشرط الثالث فالأجدر بنا أن نجعله خاصاً بالإسكندرية، فإن (قيرس) وإن كان قد صالح العرب بالنيابة عن أهل البلاد كلها ما كان ليضمن أن ترضى بما رضيت به كل مدينة وكل طائفة، وما كان العرب ليمنعوا من قتال من قاتلهم من أهل البلاد ولا سيما قد وقع قتال في مدة الهدنة في بعض المواضع التي لم ترض بالتسليم ففتحت عنوة.

ويلاحظ القارىء أن رواية (حنا النقيوسي) لا تذكر شيئاً عن موعد حلول أول قسط من الجزية، ولا عن مواعيد ما يلي ذلك منها، ولكنه يدل دلالة واضحة على أن العرب طلبوا أول قسط منها عاجلاً، ويتفق معه في ذلك المؤرخ العربي ابن خلدون إذ يذكر ذلك ذكراً صريحاً[2].

---

(١) قد اختلف العرب في تقدير عدد القادرين من الذكور من أهل مصر واختلف تقديرهما للجزية بين ١٢,٠٠٠ دينار وثلثمائة ألف ألف دينار ولكن التقدير الأقرب إلى التصديق هو ١٢,٠٠٠,٠٠٠ وكان الخراج في أول الأمر يؤخذ عيناً ، وهذا يبرر ما جاء في الأخبار عن أن القبط أمدوا العرب بالمؤونة بعد فتح بابليون . وقال أبو صالح إن عمراً فرض جزية سنوية قدرها $\frac{٢}{٣}$ ٢٦ درهم، ولكنه كان يفرض على أهل اليسار من الناس دينارين وثلاثة أرادب من القمح وقال إن ما كان يؤخذ من الجزية بهذه الطريقة بلغ ١٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار سوى ما كان يفرض على اليهود من أهل مصر (صفحة ٧٥) ولكنه قال في صفحة ٧٤ غير ذلك وتلك لا شك رواية نقلها عن مصدر آخر .

(٢) يقول حنا إن العرب جاءوا بعد الصلح بمدة وجيزة ليأخذوا الجزية من الإسكندرية . ويقول ابن خلدون عند ذكر شروط الصلح إن أهل مصر كان عليهم أداء الجزية عند =

والآن قد بلغنا مبلغاً نستطيع معه أن ندرك ما وقع فيه مؤرخو العرب من الخلط والاختلاف عند معالجتهم مسألة يحبون الخوض فيها وهي مسألة فتح مصر، وهل كان عنوة أو صلحاً. ولا بد لنا هنا من أن نذكر أمراً وقع بالإسكندرية فيما بعد ونعجل به قبل موضعه، وهو أن الروم عادوا إليها فأخذوها بعد ثلاث سنوات أو أربع من وقت مصالحة قيرس وتسليمه للعرب. ثم فتحها العرب مرة أخرى وكان فتحها هذه المرة عنوة لا صلحاً. فدوننا الآن اتفاق عجيب في حوادث عدة. فقد أراد المقوقس أن يسلم حصن بابليون في أوان فيض النيل وكان ذلك بعقد وعهد. فلم يرض به الإمبراطور وأبى الموافقة عليه، فبقي الحصن إلى أن هاجمه العرب، ولكن قبل أن يدخل فيه الفاتحون خرج أهل الحصن فسلموا لهم ونزلوا على عقد وعهد. ثم سلمت الإسكندرية كذلك في أوان فيض النيل وكان تسليمها صلحاً، وذلك بغير أن تجد كيداً كبيراً من القتال. ولكن الروم عادوا إلى الاستيلاء عليها بعد أن بقيت في حكم العرب مدة، ولم يخرج الروم منها إلا بعد حصار انتهى بفتحها عنوة.

فإذا نحن راجعنا هذه الحوادث العجيبة وذكرنا أن أول من كتب تاريخ الفتح من مؤرخي العرب كتبه بعد نحو مائتي عام منه، وإذا ذكرنا أنه من أشق الأشياء أن تبقى هذه الحوادث على حقيقة صورها وهي صور متشابهة فيها الاتفاقات العجيبة فتبقى مدة قرنين لا حافظ لها إلا الرواية وأكثرها أحاديث شفوية، إذا ذكرنا ذلك لم يكن عجبنا من ذلك الخلط الذي وقع في الرواية والتشويه الذي أصابها، بل كان أعجب العجب أن نجد بقية من الحقيقة لا تزال محفوظة في نتف كثيرة من الأخبار مهما كان اضطرابها وانقطاع نظامها وصلتها، وذلك لأن عهدنا بكتاب العرب لا يحسنون تفهم التاريخ ولا يدركون نظامه ولا يعبأون بإحكام الصلة بين حوادثه. فنستطيع الآن أن ندرك السبب الذي من أجله نجد بعضهم يذكر فتح حصن بابليون صلحاً وبعضهم يذكر أن فتحه إنما كان عنوة، وكذلك ندرك السبب الذي من أجله نجد مثل هذا الاختلاف في فتح

= الإتفاق على العقد وإذا ما إنتهى أوان الفيض وهذا الخبر له دلالة أخرى وهي أن عقد الصلح كان في أوان الفيض.

الإسكندرية. فالواقع أن كلًا من الروايتين صحيح من جانب واحد ولكن صحتهما لا تتم إلا بعد إضافة وتعديل.

وقد رأينا من المستحسن أن نفحص روايات بعض المؤرخين من العرب الذين أتوا في أخبارهم بشيء من التفاصيل شائق لذيذ، ومن هؤلاء (البلاذري) وهو من مؤرخي القرن التاسع. فإنه يروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال إن عمراً اجتمع بأصحابه من زعماء المسلمين بعد أن فتح حصن بابليون عنوة، واستشارهم فيما أراده من مصالحة المصريين. ثم عقد معهم صلحاً على أن يفرض دينارين على كل رجل قادر منهم، وأن يجعل على أصحاب الأرضين[1] ضريبة يؤدونها عن أرضهم، واشترط عليهم فوق ذلك أن يأتوا لكل رجل من المسلمين بكسوة كاملة كل عام. وطلب إليه الحاكم (المقوقس) أن يدخل في ذلك العهد كل بلاد مصر ولكن أبيح لمن شاء من الروم أن يخرج من البلاد. ويقول البلاذري وهو مخطىء في قوله إن هذا الصلح قد نقضه الإمبراطور، فإنه من الواضح أن الصلح الذي يذكره هو صلح الإسكندرية. ونجد هذا المؤرخ في موضع آخر يدل على أن مصر إنما فتحت عنوة، فيروي أن عمرو بن العاص خطب مرة على المنبر فقال: «لقد جلست مجلسي هذا في هذا البلد وليس لأحد فيه على عهد ولا عقد، إن شئت قتلت وإن شئت سبيت». وهذه الرواية إذا صحت كانت دليلًا على أن القبط لم يكن لهم من الأمر شيء وأن العقد إنما كان بين العرب والروم. ولقد كان هذا صحيحاً فإن العقد كان بين الروم والعرب، على أن القبط كانوا داخلين فيه. وقد ذهب (البلاذري) إلى هذا الرأي وجعل يدلل عليه، فإنه يذكر أن معاوية كتب إلى وردان يأمره بزيادة الجزية على القبط فأجابه وردان أنه لا يستطيع أن يفعل ذلك، لأن فيه نقضاً للعهد الذي لهم. وكذلك يذكر رواية عن أحد ولد الزبير أنه قال: «لقد أقمت في مصر سبع سنوات وتزوجت فيها وكان الناس فيها يفرض عليهم من الأموال ما لا طاقة لهم

---

(١) ذكر أن هذه الضريبة كانت ثلاثة أرادب من القمح وقسطين من الزيتون وقسطين من العسل وقسطين من الخل، وكان ذلك يجمع ويجعل في بيوت المال (صفحة ٢١٥).

به، فآذاهم ذلك، مع أن عمرو بن العاص كان قد عقد لهم عهداً جعل لهم فيه شروطاً معلومة». ويقول البلاذري بعد ذلك إن في الأخبار سوى ذلك ما يدل على أنه كان بين العرب والمصريين عهد ولكنه مع ذلك لم يقدر على أن يمحو من ذهنه أن الإسكندرية لم تفتح عنوة مع إقراره «بأن عمرو بن العاص لم يقتل أهلها ولم يسبهم بل جعلهم أهل ذمة». والفتح عنوة لا يتفق بحال مع جعل أهل المدينة أهل ذمة، فإقرار البلاذري بأن أهل الإسكندرية كانوا أهل ذمة دليل على أنه عندما ذكر فتح الإسكندرية وقال إنه كان عنوة إنما كان يقصد الفتح الثاني.

وقد جاء في كتاب الطبري ذكر شروط ذلك الصلح وهو يسميه صلح عين شمس بدل أن يسميه صلح الإسكندرية وذلك خلط عجيب منه[1]. وإليك نصها كما جاءت فيه: «هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينتقص ولا تساكنهم النوبة. وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم، خمسين ألف ألف[2]. وعليهم ما جنى لصوتهم (لصوصهم) فإن أبىٰ أحد منهم أن يجيب رفع عنهم من الجزية بقدرهم وذمتنا ممن أبى بريئة. وإن نقص نهرهم من غايته إذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك. ومن دخل في صلحهم من الروم والنوبة فله مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم. ومن أبى منهم واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه أو يخرج من سلطاننا. عليهم ما عليهم أثلاثاً في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم[3]. على ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذمم المؤمنين. وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأساً وكذا وكذا فرساً

---

(١) راجع الذيل السابع الذي ألحق بالكتاب في ذلك الموضوع.

(٢) وهذا بلا شك غير صحيح.

(٣) ترجم المؤلف هذا القول بما يفيد أن الجزية تدفع على ثلاثة أقساط كل منها ثلث مقدار الجزية. وعلق على ترجمته أن هذا ما فهمه من الفقرة الغامضة وهي «وعليهم ما عليهم أثلاثاً في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم».

على ألا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة». وشهد عليه الزبير وعبد الله ومحمد ابناه وكتب وردان وحضر[1].

وهذا النص للصلح ليس فيه خلاف عما جاء في كتاب (حنا النقيوسي) وإن كان كلا النصين لا يشمل كل ما جاء في النص الآخر، فالحق أن كلاً من النصين يكمل الآخر. وقد جاء في كتاب ياقوت عن ابن عبد الحكم أن مصر فتحت كلها صلحاً وفرضت الجزية دينارين على كل رجل من أهل مصر، على أن لا تزاد. ثم جعلت على أصحاب الأرض ضريبة يؤدّونها خراجاً من ثمار أرضهم وفرضت على أهل الإسكندرية جزية وضريبة على عقارهم. وأما مقدار تلك الجزية وتلك الضريبة فقد جعل أمره في يد الحاكم لأن مدينتهم فتحت عنوة بلا عقد ولا عهد. ولا شك أن في هذا القول خلطاً بين الفتح الثاني للمدينة الذي كان عنوة والفتح الأول الذي كان صلحاً. وخير ما قيل في هذا الشأن ما جاء في كتاب المقريزي فإنه أثبت الآراء المختلفة وأوضحها إيضاحاً عظيماً وأسند كل رأي إلى صاحبه[2]، وأقوى الأدلة في كل ذلك هي ما دلت

---

(١) قد وردت هذه الشروط في كتاب ابن خلدون وقد أخذها عن الطبري ولكن الظاهر أنها غير موجودة في وصف فتح مصر في نسخة الطبري الموجودة الآن. أنظر طبعة زوتنبرج الجزء الثالث صفحة ٤٦١ وما بعدها ومع ذلك فإنه يفهم من الطبري أن الإسكندرية قد فتحت صلحاً.

(١) يرد ذكر هذا العهد في أكثر كتب التاريخ ويجعله المؤرخون صلحاً بين العرب والروم بعد وقعة عين شمس وليس صلح الإسكندرية. ومن العجيب أن المؤلف يزعم أن نسخة الطبري الحالية لا تأتي بذكر هذا الصلح ولكنه موجود فيها وقد أخذنا نصه عنها (المعرب).

وقد ألف المؤلف رسالة جديدة اسمها « The Treaty of Misr in Tabary » وفيها رجع عن رأيه هذا وقد جاء ذكر ذلك في الملحق السابع فليراجع (المعرب).

(٢) الخطط الجزء الأول صفحة ٢٩٤ وقد ذكر بعض مواضع صالح العرب فيها القبط ولكن قيل إن القبط جعلوا في عقدهم العام شروطاً ستة: (١) ألا يخرجوا من ديارهم. (٢) ألا يفرق بينهم وبين أزواجهم. (٣) ألا يطردوا من قراهم. (٤) ألا تنزع منهم أرضهم. (٥) ألا تُزاد عليهم الجزية. (٦) أن يحموا من عدوهم.

على أن الفتح كان صلحاً . وإن خير ما نلخص به الأمر كله أن نورد ما قاله شيخ من القدماء إذ سمع رجلاً يقول إنه لم يكن لأهل مصر عهد فأجاب : « ما يبالي ألا يصلي من قال إنه ليس لهم عهد »[1] .

= ويظهر أن هذه الشروط غير مترتبة ترتيباً عقلياً وليست دقيقة ولا يذكر فيها شيء عن حرية دينهم ولا بد أن ذلك كان من شروط الصلح .

وقد روي عن زيد بن أسلم أنه قال: إن الخليفة عمر كان عنده صندوق فيه كل عقود الصلح ولم يكن بينها عقد لأهل مصر . وقال ابن شهاب[-1] إن مصر أخذ بعضها عنوة وبعضها صلحاً ولكن عمر جعل أهلها جميعاً ذمة ، فمثلاً لما أراد عبد الله بن سعد أرضاً في مصر دفع ثمنها لأن البلاد كانت فتحت صلحاً ويذكر مالك بن أنس وعبد الله بن لهيعة ونافع بن يزيد أن مصر فتحت عنوة . وأما الليث وعبد الله بن جعفر ويحيى بن أيوب وسواهم فيقولون الحق وهو أن فتحها كان صلحاً .

(-1) قال المؤلف (Ibu Shihah) ويقرأ ذلك الاسم (ابن شيحة) ولكن المقصود بلا شك هو (ابن شهاب) فلا بد أن الاسم قد حرف في الكتابة الإنجليزية بإبدال الباء الأخيرة هاء (h) وإبدال الهاء الأولى حاء (h) لتقارب صورة هذه الحروف (المعرب) .

(1) قد نقلنا هذا النص عن كتاب النجوم الزاهرة لأبي المحاسن (المعرب) .

الفصل الثاني والعشرون

فتح بلاد الساحل

عمرو يرسل إلى عمر بن الخطاب بفتح الإسكندرية ـ تاريخ ذلك الفتح ـ يفضي قيرس بنبأ الصلح إلى زعماء الإسكندرية ـ وصول رسل العرب ـ ذيوع النبأ بين الناس ـ سخط العامة وإقناعهم ـ نقد خيانة قيرس ـ موقع الإسكندرية الحربي ـ أثر موت هرقل ـ إقرار هرقلوناس للصلح ـ بناء مدينة الفسطاط الإسلامية ـ بناء جامع عمرو ـ إعادة حفر ترعة تراجان ـ القتال في شمال الدلتا ـ الاستيلاء على إخنا وبلهيب والبرلس ودمياط وتنيس وشطا وسواها ـ قصة شطا وتاريخ فتحها وأهمية ذلك التاريخ ـ بعض غلطات تاريخية وتفنيدها.

لما انتهى أمر الصلح أوفد عمرو بن العاص معاوية بن حُدَيج الكندي وأمره أن يحمل أنباء ما حدث إلى عمر بن الخطاب[1]، فطلب معاوية منه أن يكتب معه كتاباً فقال له عمرو: «ماذا عساني أفعل بالكتاب؟ ألست امرءاً عربياً تقدر على وصف أمر شهدته؟» فسار معاوية في رحلته الطويلة في الصحراء حتى بلغ المدينة، ووافق مقدمه وقت الظهر فأناخ راحلته عند باب المسجد ودخل.

(١) هكذا ورد اسم الرسول في البلاذري وهو الأصح . وذكر المقريزي أنه ابن خديج وهو يذكر خبر إرساله على أنه وقع عند فتح الإسكندرية الثاني ولكن المقريزي (أو الذي يروي عنه وهو ابن لهيعة) يقول إن إرسال معاوية سبق خطاب عمرو الذي يصف فيه الإسكندرية . وقد كتب ذلك الخطاب عند دخول العرب أول مرة إلى المدينة وفوق ذلك كان عمر قد مات قبل الفتح الثاني إذ دفن في أول المحرم سنة ٢٤ للهجرة (٧ نوفمبر سنة ٦٤٤) ، أنظر ابن الأثير الجزء الثالث صفحة ٣٨ فموضع ذلك الخبر حيث وضعناه على الصحيح .

وفيما هو هناك خرجت جارية من بيت عمر، فلما رأت رجلاً غريباً عليه وعث السفر سألته عن اسمه فقاله لها ثم قال إنه جاء يحمل رسالة من عمرو بن العاص. فعادت الجارية إلى الدار فما لبثت أن جاءت إليه مسرعة حتى سمع معاوية خفق نقابها على أقدامها إذ تجري إليه، ثم أمرته أن يتبعها إلى البيت. فلما جاءه سأله عمر عن الأنباء فقال له: «خير يا أمير المؤمنين فتح الله علينا الإسكندرية». فقام معه عمر حتى عاد إلى المسجد وأذن المؤذن للصلاة، فأقام عمر صلاة الشكر لله على ما أولى، ولما عاد مع معاوية إلى داره صلى مرة أخرى ثم طلب الطعام، فقدّم له خبز وزيت يؤتدم به فوضع ذلك أمام الضيف فأصاب منه شيئاً خفيفاً على استحياء، ثم أتى بتمر فوضع له، وكان هذا أكبر ما عند الخليفة من لذائذ الطعام وأطايبه. ثم اعتذر معاوية بأنه لم يبادر إلى حمل نبأ الفتح لأنه ظن عمر نائماً وقت القيلولة، فقال له عمر: بئس ما قلت وبئس ما ظننت[1]، لئن نمت النهار لأضيعن الرعية، ولئن نمت الليل لأضيعن نفسي، فكيف بالنوم مع هذين؟.

وهكذا أرسل نبأ الفتح إلى المدينة وهكذا تلقاه الخليفة فيها بغير زينة ولا ضجة، وما كان أعظم الفرق بين هذا وبين ما حدث في الإسكندرية عندما أتاها ذلك النبأ.

أمضى عهد الصلح في (بابليون) في يوم الخميس الثامن من شهر نوفمبر من سنة ٦٤١[2]، وكان لا بد له من إقرار إمبراطور الروم كما كان لا بد له من

---

(١) في رواية المقريزي بئس ما قلت (أو بئس ما ظننت) . (المعرب) .

(٢) قد ذكرنا الأسباب التي من أجلها اخترنا ذلك التاريخ في الذيل . وقد ذكر الأستاذ (لين بول) عن الطبرى عبارة زياد وهي أن طلب الصلح جاء إلى عمرو وهو في بلهيب وأنه أرسل إلى الخليفة في ذلك وأن المسلمين إنتظروا رده في ذلك الموضع عينه وهو (بلهيب) . والخبر على هذه الصورة غير محتمل فإنه يخالف ما جاء في ابن قتيبة وحنا النقيوسي وكلاهما يقول إن عمراً جاء إلى بابليون في ذلك الوقت وإنه لمن المستبعد أن يكون جيش عمرو وقد بقي هذه المدة كلها في موضع واحد . فالحقيقة كانت بغير شك أن عقد الصلح كان في بابليون وأن إقرار الخليفة جاء إلى عمرو وهوفي بلهيب .

إقرار خليفة المسلمين عمر، وكان في مدة الهدنة وهي أحد عشر شهراً متسع يكفي لذلك وما يلزم له من الرسوم. ثم عاد قيرس مسرعاً إلى الإسكندرية يحمل معه كتاب الصلح.

وكان أول ما عنى به أن يرسل شروط الصلح إلى (تيودور) وهو القائد الأعلى، ثم إلى قسطنطين وهو قائد الحرس. ومن أعجب الأمور أن (تيودور) لم تكن له يد في مفاوضة الصلح ولم يحضر كتابته في (بابليون)، مع أنه كان حاكم المدينة من قبل الإمبراطور. والحقيقة أن كل ما يمس (تيودور) محير مدهش، فلسنا ندري من أمره شيئاً حتى لنجهل هل كان قد علم بعزم (قيرس) على تسليم المدينة للعرب قبل أن ينفذه. فإذا كان قد علم بذلك فلا بد أنه قد غير رأيه وأصبح من أشياع الصلح مع العرب. وأما إذا كان غير عالم بذلك فمن أعجب الأمور أن يسارع إلى الموافقة على أمر لا يمكن أن نصفه إلا بأنه كان تسليماً شائناً.

وكانت أنباء ذلك الصلح الذي عقد في طي الخفاء تتردد بين رؤساء موظفي الحكومة وبين زعماء الناس في العاصمة، يتناقلها بعضهم عن بعض همساً ووسوسة، يفضي بها الرجل إلى من يأمنه ويطمئن إليه. وأما العامة فإنهم ظلوا في جهالة لا يعلمون من جمره شيئاً، وأرسلت الرسائل إلى الإمبراطور هرقلوناس تفضي إليه بشروط الصلح وطلب إليه أن يقرها. والظاهر أن القائدين كانا كلاهما يعززان ذلك الصلح ويوافقان على طلب إقراره، وإن في تعزيزهما له وموافقتهما عليه لحجة يمكن الاستناد عليها في تبرير ما أتاه قيرس ورفع الوزر عنه بعض الشيء. على أنه من المعلوم ما كان عليه (تيودور) من العجز في قيادة الحروب وضعف الرأي فيها، فموافقته على الصلح على ذلك لا قيمة لها، وحكمه في أمر الحرب مدافع لا يعتمد عليه. ومهما يكن من الأمر فإن (قيرس) عندما أحس بأنه مهد السبيل إلى إعلان الأمر في الإسكندرية، دعا كبار قواد الجيش وعظماء رجال الدولة، ولما انعقد عقدهم جاؤوا وعليهم (تيودور) و (قسطنطين). حتى إذا مثلوا بين يدي البطريق (قيرس) أظهروا له الولاء وأعلنوا

له الطاعة. ولنا أن نصوره لأنفسنا، وقد جلس في أبهته واتخذ زينته وجعل يبين لهم ما تضمنه الصلح من شروط بما أوتي من فصاحة وبراعة، ويسهب في ذكر الضرورة التي استوجبت عقده وما فيه من مزايا، فما زال حتى فاز بما أراد من حمل سامعيه على الإيمان بقوله، ولكنه كان فوزاً ما أشأمه.

وبهذا خطا (قيرس) خطوة جديدة في سبيل إنفاذ خطته في الإيقاع بمصر. على أنه ما كان ليستطيع أن يبقي خطته في ستر الخفاء بعد ذلك طويلاً، فعلم الناس بما كان ولكن علمهم لم يأت عن مقولة قالها (قيرس)، ولا إشاعة ترددت وذاعت بينهم، بل علموا بالأمر بغتة وقد فاجأهم طلوع فئة من العرب على المدينة. فنفخت الأبواق إيذاناً بمقدمهم، وأسرع الناس من كل جهة ليقفوا في أماكن الدفاع من الأسوار والحصون، ولكن العرب ساروا على خيلهم لا يلوون على شيء ولا يعبأون بالضجة، وجاء قواد الروم عند ذلك بعد أن كانوا قد قضوا على حماسة الجنود وإقدامهم، فجعلوا يهدئون من روع الناس وينادون فيهم أن لا جدوى في القتال ولا أمل من ورائه. وقبل أن يقترب العرب حتى يصيروا على مدى رمي المجانيق أبصرهم الناس وهم يحملون أعلام الهدنة والسلام، فأشير إليهم بعلامة الرد فاقتربوا، حتى إذا ما صاروا بحيث يسمعون ويسمع منهم أفضوا إلى جنود الروم بما كان. وما كان أشد عجبهم ودهشتهم مما علموا، إذ عرفوا عند ذلك أن العدو لم يأت ليقاتلهم بل أتى ليحمل الجزية التي اتفق عليها مع (قيرس) المقوقس في عقد الصلح الذي طلبه من العرب وكتبه معهم على تسليم المدينة. فهاج الناس وثار ثائرهم لما سمعوا، وذهبوا غير مصدقين حتى أتوا قصر البطريق، فاطلع عليهم منه بعد لأي، وكان الخطر في تلك اللحظة محدقاً بحياته، إذ تهافت الناس إليه يريدون أن يحصبوه.

غير أن كبر سنه وعلو مكانته خذلا الناس عنه، وحمياه من الخطر. فأشار إلى الناس إشارة فهدأوا، ثم استطاع الكلام واستعان بما أوتي من بلاغة وفصاحة على تخفيف جنايته وتهوين خيانته في مقالته التي قالها بين الناس. وجعل يبرر ما كان منه قائلاً إنه إنما اضطر إلى ركوب الصعب اضطراراً إذا

يكن بد منه، وما قصد إلا مصلحة قومه وفائدة أبنائهم، فإن العرب قوم لا يقوم لهم شيء إلا غلبوه، وقد أراد الله أن يملكوا أرض مصر، فما كان للروم إلا أن يصالحوهم، فإنهم إن لم يفعلوا جرت الدماء في طرق مدينتهم ونهبت أموالهم وقتلوا، ومن بقي منهم حياً خسر ما كان يملك وضاع أمره. ولكن الصلح حقن دماءهم وأمنهم على أنفسهم وأموالهم وديانتهم. ومن أراد أن يعيش في أرض مسيحية كان له الخيار في ترك الإسكندرية، وما كان أمر الخيار بين الهجرة من مصر وبين الإذعان للمسلمين بالأمر الهين. فلم يتمالك البطريق معه، بل بكى وهو يطلب من الناس أن يصدقوا أنه إنما بذل جهده في أمرهم، وأن عليهم أن يرضوا بالصلح الذي عقده من أجلهم يقصد به صلاح حالهم.

بهذا استطاع (قيرس) مرة أخرى أن يفوز برأيه المشؤوم، فإذا بالناس وقد عادوا إلى رأي الجيش ورضوا بالتسليم والنزول عن مدينتهم العظيمة للعرب، على شرط العقد الذي تم. وجعل الثائرون يتلاومون على ما اقترفوا من الوثوب والحنق على ذلك الحبر الطاهر، في حين كان يسعى جُهد طاقته ليحول بينهم وبين الهلاك على يد الغزاة. وأخذوا يجمعون قسط الجزية التي فرضت عليهم وزادوا عليها مقداراً كبيراً من الذهب، ووضع ذلك المال في سفينة خرجت من الباب الجنوبي الذي تدخل منه الترعة وذهب به قيرس بنفسه ليحمله إلى قائد المسلمين[1].

وبذلك تم فتح الإسكندرية، وإذا حسبنا تاريخ ذلك وجدنا أن أداء ذلك القسط الأول من الجزية قد يكون في أول المحرم من سنة إحدى وعشرين من الهجرة، وذلك هو اليوم العاشر من ديسمبر من عام ٦٤١. وليس في مصادر التاريخ ما يثبت ذلك التاريخ وينص عليه صراحة، ولكن الرواية التي تناقلها العرب تجعل فتح المدينة في ذلك اليوم. ولعل منشأ تلك الرواية كان عمن حضر ذلك اليوم وشهد إذعان أهل الإسكندرية بحملهم أول قسط من جزيتهم.

(١) لم يرد هذا في متن الكتاب (أنظر صفحة ٥٧٦) ولكنه جاء في عنوان الباب العشرين بعد المائة صفحة ٣٥٨ من كتاب حنا النقيوسي .

ومع ذلك فإن مؤرخي العرب يجعلون أول المحرم في يوم الجمعة مع أن أول المحرم لم يقع في يوم جمعة في ذلك العام ولا في عام قريب منه إلا في عام ٦٤٥. وعلى ذلك يكون لنا أن نقول إن الرواية لا يمكن أن تكون صحيحة في كل أجزائها، بل لقد تكون كلها غير صحيحة. ولكنا نتردد في الأمر ونحمل أنفسنا على القول إنها لا بد أن يكون لها أساس من الحقيقة، لأنها رواية من أثبت الروايات في أخبار الفتح العربي[1]. وعلى أي حال فإنه من المفيد أن نوجه الأنظار إلى إنفاق عجيب آخر يلوح من خلال ما اختلط من تواريخ ذلك العصر، ولعله يفيدنا في بيان أسباب ذلك الخلط بعض التبيين، وذلك أن بعض مؤرخي العرب يقرر أن فتح الإسكندرية لم يقع إلا بعد ثلاث سنين من دخول جيش عمرو في مصر، في حين أن طائفة سواهم تقول إن فتح حصن بابليون وفتح الإسكندرية وقعا كلاهما في عام واحد وهو العام العشرون من الهجرة. ومع ما يظهر من الخلاف بين الطائفتين نقول إن كلاهما على الحق، فقد سلم حصن بابليون في شهر إبريل من عام ٦٤١، وسلمت الإسكندرية في شهر نوفمبر من ذلك العام، وكلا التاريخين واقع في سنة عشرين. ومن جهة أخرى قد دخل عمرو في أرض مصر في عام ٦٣٩ من الهجرة، ولكن جيشه لم يدخل الإسكندرية إلا بعد ثلاث سنوات من ذلك، أي في شهر أكتوبر من عام ٦٤٢ عندما انقضت مدة الهدنة وهي أحد عشر شهراً. وإنه لمما يسر النفس أن تفوز بكشف الحقيقة من وراء هذا الغطاء من خلاف يخمرها.

وماذا عسانا نقول في هذا الصلح العجيب؟ فليس في طاقتنا أن نملك أنفسنا ونلزم القصد في القول إذا ما أردنا أن نصف فعلة المقوقس، وما أتاه ذلك البطريق من المكر السيء، وما كان له من الصلة المريبة بقائد للعرب وحرصه المدهش في كل وقت من أوقات القتال مع المسلمين على أن يسرع بالإذعان

---

(١) يرى المستر (ا. و. بروكس) أن هذا التاريخ يوافق حقيقة الفتح الثاني للإسكندرية وهو يجعله في يوم الجمعة أول المحرم سنة ٢٥ للهجرة (٢٨ أكتوبر سنة ٦٤٥) ولكنا سنورد الحجج التي تنقض هذا الرأي في فصل تال.

والتسليم لهم. فليس مرّ الأيام بمستطيع أن يمحو عن ذكره وصمة جنايته في خيانة دولة الروم والقصد إلى تضييع أمرها بعد أن لطّخته من قبل جزيرة حمقه وقسوته في اضطهاد القبط مدّة أعوام عشرة. فالحق أنه لو كان منذ ولى أمر الدين قد قصر همه على هدم سلطان الروم وتضييع أمرهم في مصر لما سار إلا على سيرته تلك، ولما سلك إلا السبيل الذي سلكه. وإنه ليملؤنا العجب إذ نراه يسارع تلك المسارعة إلى اغتنام فرصة الخيانة والإيقاع بمصر، وهي فرصة ما سنحت له إلا من جرائر أفعاله، وما تهيأت إلا من عاقبة سوء حكمه. ولا يخفف من جرمه أن يقول قائل إنه كان يأتمر بأمر مولاه الإمبراطور هرقلوناس، وقد خوّل له أن يعقد ذلك الصلح. فلقد كان من أهون الأشياء على مثل قيرس أن يحمل مثل هذا الملك على رأيه، وهو ملك مستضعف لا علم له بأحوال مصر، تسير به مشيئة أمه أنّى شاءت.

ولم يكن صلح الإسكندرية أول العهد بخيانته، بل لنا بها عهد منذ أشهر في حصن (بابليون)، وحسبنا بما كان منه في أمر هذا الحصن رداً على من يرقد الدفاع عنه بأنه إنما نزل على حكم الضرورة في الحرب. فإذا كان العرب عند طلوعهم على الإسكندرية قد بسطوا سلطانهم على أكثر بلاد مصر، فإن الأمر لم يكن كذلك وهم واقفون حول حصن (بابليون) في الوقت الذي أراد فيه أن يعقد معهم صلحه الذي أنكره الإمبراطور. وبعد فلم تكن الإسكندرية قد نزل بها من حرب العرب ضيق، وكانت بلاد الساحل جميعها لا تزال بمنجاة عنهم. وقد حاول جيش المسلمين أن يصدم تلك العاصمة في أول الأمر فارتد عنها عاجزاً مخذولاً وقد ذكرنا من قبل أنه ليس في الأخبار ما يحملنا على الظن أن ذلك الجيش قد أقام عسكره وعلى مقربة منها، ويدلنا على ذلك دليلان: أولهما إغفال ديوان حنا لذكر عسكر لهم هناك، وثانيهما قوله إن أهل المدينة عندما رأوا الفئة من المسلمين التي أتت لتحمل الجزية انزعجوا وثاروا. ولو كان المسلمون على مقربة بحيث يراهم أهل الإسكندرية من فوق أسوار مدينتهم كل يوم مدة شهور كما يقول مؤرخو العرب، لما حدث مثل ذلك الانزعاج عند اقترابهم. فالحق أن مؤرخي العرب يخلطون في هذا الأمر بين تسليم الإسكندرية الأول

وفتحها عنوة في المرة الثانية، إذ أنهم في المرة الثانية حاصروا المدينة حصاراً صحيحاً نوعاً ما، وأما تسليمها الأول فلم تكن ثمة ضرورة من ضرورات الحرب تدعو إليه[1].

وإنا نعيد هنا ما سبق لنا قوله إن الإسكندرية كانت من المنعة بحيث لا تكاد تنالها قوة عمرو ومن جاء معه من الجنود، فكان دور أسوارها نحو تسعة أميال أو عشرة، ثلاثة منها مما يلي البحر، وأكثرها ما بقي منها تحميه الغياض والبحيرات والترعة. وإذ كان العدوّ لا يستطيع أن يقترب إلا من جزء يسير من تلك الأسوار فقد كان من السهل على جند المدينة أن تجعل همها دفع حملاته على هذا الجزء. وإن العرب لو استطاعوا إسكات ما على الأسوار من المجانيق القوية المريعة، وقدروا على الاقتراب منها، لما أمكنهم أن يصدعوا الأسوار بما لديهم من الوسائل وما كان أقلها وأضعفها. وإنا لا نكاد نعرف في تاريخ الإسكندرية أنها أخذت مرة عنوة بغير أن يكون أخذها بخيانة من داخلها.

---

(١) إنه لمما يؤسف له أن يزيل الإنسان كل هذا النسيج من القصص الذي نسجه خيال العرب في أخبار حصار الإسكندرية ولكنا لا نرى مفراً من ذلك. فالظاهر أن الحق يلوح من ثنايا ما ذكره السيوطي عن كتاب عمرو إلى الخليفة عمر، وهو يذكر فيه أن عدد من مات من المسلمين في هذا الحصار كان اثنين وعشرين مع أن هذا الخطاب قد قيل إنه كتب بعد فتح المدينة الثاني. والقصة المعروفة عن عمرو ومولاه وردان ووقوعهما أسيرين في أثناء حملة حملها العرب على المدينة وارتدوا عنها ما هي إلا خرافة، فقد ذكرت هذه القصة عينها عن هذين الرجلين في دمشق، وقد ذكرهما ابن بطريق كليهما وجعل ختام حصار الإسكندرية أن العرب طردوا الروم منها فهربوا في البحر والبر. وجاء في رواية أخرى مثل وصف هذه القصة وأنها قد وقعت في حصار غزة بفلسطين، والظاهر أن منشأ هذه القصة ما ذكره ابن عبد الحكم من الأقاصيص الخيالية، وقد قال المفتي الأكبر للديار المصرية في تعليق له على الطبري أعطاه المؤلف هذا الكتاب «ولم يرد في هذا الوصف أيضاً ذكر لوقعة عند الإسكندرية وقد جاء في الأخبار المروية أن هذه الوقعة لم تقع إلا بعد ثورة في سنة ٢٥» وهذا هو الحق بغير شك. ولكنه من المفيد أن نذكر ما قاله أبو صالح (صفحة ٧٦) أن عدد المسلمين الذين قتلوا في فتح مصر سوى من قتل منهم في الحصار (ولا ندري أي حصار هذا) كان ١٢،٣٠٠ وهو تقدير معتدل لمن قتل في المواقع الكثيرة في هذه الحرب الطويلة.

فمن ذلك نرى أن ذلك الصلح الذي عقده قيرس لم تكن ثمة من ضرورة في الحرب تدعو إليه، ما دامت أساطيل الروم تسيطر على البحر، والعرب بعد أبعد الناس عنه لا يمرّ بخاطرهم أن يتخذوا فيه قوة. قد يقول قائل: إن فتح بابليون قد أوهن الروم وإن جنودهم امتلأوا هيبة من العرب إذ رأوا أنهم لم يصبروا على لقائهم في موطن من المواطن منذ ابتدأت الحرب، وإن الجيش الروماني كان لا يثق في قواده ولا يرى منهم إلا الجبانة والعجز. وهذا كله صحيح لا شك فيه. ولكن كان في الاستطاعة تغيير الحال بأن ترسل جنود غير تلك الجنود وقواد غير أولئك القواد لا تزال في جنانها شدة وفي قلوبها قوة، غير أن ذلك لم يسع إليه أحد. فإن الدولة منذ مات عنها هرقل لم تجد حاكماً يلم شعثها ويصرف أمورها ويحملها على سبيلها. وكان أهل الإسكندرية شيعاً وطوائف، تقطع ما بينهم الأحقاد والأطماع، فما كانت تخلو من هيعة أو وثبة. وجاء بعد ذلك موت هرقل فزاد الحال سوءاً، إذ شطر حكومة قلب الدولة شطرين ليس بينهما إلا الشحناء والعداوة فالحق أن موته «كسر شوكة الروم» كما قال المؤرخ العربي، ولكنه كسرها كسر أبلغ مما قصده ذلك المؤرخ، فإن الدولة أغفلت بعده همها الأكبر وهو الدفاع عن حياتها. فشغلتها دسائس (مرتينه) ومكائد (فلنتين) فتركت مصر تجري في قضائها، وكانت الإسكندرية إذ ذاك قطب الحوادث يدور عليها أمر مصر ومصيرها، فلم تجد في الدولة من يأخذ بيدها. ولو وجدت نصيراً يمدّها لنجت من عدوها ولناجزته بعد ذلك على سواء حتى تخرجه من أرض مصر.

لسنا ننكر أن الروم عند فتح الإسكندرية لم يكن لهم أمل في أن يهاجموا العرب ويخرجوهم من البلاد، ولكن الإسكندرية كانت تطيق الصبر على الحصار مدّة سنتين أو ثلاث ريثما يلي الأمر حاكم صلب القناة. فإذا ما كان ذلك لم يكن بالمستبعد أن تعود مصر إلى الروم، ولا يمنع من ذلك ما كان من أثر الماضي وجرائره التي أدّت إلى تمكّن العرب في البلاد تمكناً تصعب زلزلته. فالأمر لم يكن بعد قد تفلّت من يد الروم إلى حيث لا يرجع إليهم. وقد كان قيرس صاحب الجريرة في ضياع مصر، لا يجديه دفاعه واعتذاره بأن الجيش

كان خائر النفس، وأن الناس كانوا شيعاً وفرقاً لا تجتمع لهم كلمة. فما كان ينبغي النزول عن الإسكندرية، بل كان أوجب الأمور الاحتفاظ بها مهما كان في سبيل ذلك من مشقة، ولكن قيرس أسلمها للعدوّ خفية وعفواً بغير أن تدعوه إلى ذلك ضرورة.

ولا نزال نسائل النفس عن السبب الذي حمل أهل الإسكندرية على قبول ذلك الصلح، والمبادرة إلى الرضى عن قيرس بعد أن كانوا قد وثبوا به وأرادوا أن يحصبوه لما رأوا من خيانته. فقد كانوا معروفين بالنزق والتقلب في الأحوال، ولكنهم لم يكونوا صادرين عن نزق في انصرافهم عن دولتهم وصدوفهم عنها ورضائهم بالإذعان لحكم الإسلام. وليس ثمة إلا رأي واحد فوق ما سبق لنا ذكره نفسّر به ما كان منهم، وذلك أنهم كانوا قد سئموا من كثرة ما أصابهم من الحدثان وكرهوا فساد الحكم الذي أثقل كواهلهم مدة أربعين عاماً، وقالوا في أنفسهم لعلنا نجد في حكم المسلمين قراراً واطمئناناً نأمن فيه على ديننا فلا نكره على شيء فيه، وعلى أموالنا فلا نتحمل من الخراج والجزية إلا قدراً نطيقه. ولعل أكبر ما حملهم على الرضى بحكم العرب رفع ما كان يبهظهم من الضرائب، فقد كان الروم يجبون من مصر أموالاً يتعذر علينا أن نعرف مقدارها، ولكنها كانت بلا شك كثيرة الأنواع ثقيلة الوطأة شديدة الأذى. فأحل العرب محلها الجزية وخراج الأرض، ومهما يكن من مقدارها فقد كانت لها فضيلة البساطة. وكانت ثابتة المقدار محدودة القصد، وكانت أقل في جملتها مما كان يجبيه الروم، أو لقد خيل إلى الناس أنها كذلك. ومنذ كان شعور المصريين الوطني ضئيلاً كان تأثرهم بما يمس أموالهم شديداً. ولعل ما كان الناس يتوقعونه من العرب من تخفيف حمل الضرائب كان من أكبر العوامل على فوز المسلمين في فتوحهم جميعها. وأما في الإسكندرية فلعل هذا الأمر كان أعظم الأمور أثراً[1]. على أن ما طمع فيه أهل الإسكندرية من تخفيف هذه الأحمال لم يتحقق لهم بل خاب أملهم خيبة ما كان أمرها.

---

(١) ذكر المستر (ملن) في كتابه « Egypt Under Roman Rule » طائفة عظيمة من أخبار =

أقرّ الامبراطور عهد الصلح، ولعل ذلك كان آخر ما أتاه في حكمه، إذ انتهى في ذلك الشهر عينه وهو نوفمبر. ويلوح لنا أن عمرو بن العاص كتب شروط ذلك الصلح وأفضى بها إلى أهل مصر، وكانت تلك الشروط تعدهم بالأمن على أنفسهم وأموالهم وذمتهم وكنائسهم وصلبهم، وبحمايتهم من أهل النوبة وسوأهم من أعدائهم متى دفعوا الجزية[1]. ولكن المقاومة لم يخب لهبها ولم يخذلها ما كان من تسليم الإسكندرية العظمى، ولا ما وعد به عمرو من الشروط الحسنة. فقد بقيت بعض البلاد في شمال مصر السفلى ترفع لواء الروم ولا ترضى بالتخلي عنه، مع أن فتح الإسكندرية كان قد قضى على الأمل كله في دولة الروم، وأصبح بعدها من أشدّ الحماقة أن تصر طائفة على القتال وتأبى الدخول فيما دخل فيه سائر الناس من العهد. فكان لا بد للعرب من فتح تلك البلاد حتى يتم لهم الأمر، وكان عمرو قد فرغ مما يشغله ويستطيع السير إليها في أي وقت شاء.

وكان عمرو في هذه الأثناء منصرفاً إلى عمل آخر في بابليون، إذ عزم على أن يبني للمسلمين مدينة جديدة في السهل الذي يلي الحصن الروماني، بينه وبين جبل المقطم وكان موضع عسكره. وقد روى البلاذري أن الزبير هو الذي اختط المدينة واتخذ فيها لنفسه داراً، وجعل فيها السلم الذي صعد عليه إلى سور الحصن، وبقي فيها ذلك السلم حتى احترق في حريق. وأما ياقوت فإنه

= الضرائب ولكنه لا يذكر جملة مقدار ما كان مفروضاً على أهل الإسكندرية أو على المصريين في ذلك الوقت ولا يذكر هل كان أهل الإسكندرية لا يزالون على ما كانوا عليه أيام حكم الرومان من الإعفاء من الجزية كما كانت الحال في أيام (يوسفوس) . أنظر صفحة ١٢٢ .

(١) أخذنا هذا الخبر عن أبي المحاسن وهذا نقله عن ابن كثير . وقال ابن كثير إن ذلك كان بعد فتح عين شمس ، ولكن هذا خطأ ، فالشروط التي يذكرها هي عين شروط صلح الإسكندرية ويزيد على ذلك أن أهل مصر جميعاً دخلوا في ذلك الصلح ، وهذا على وجه الإجمال يصح قوله عن صلح الإسكندرية ، على أنه لا شك في أنه لا يصح قوله عن أي صلح آخر ولم يكن ثمة أي صلح عقد في عين شمس . (المؤلف) .
وراجع الذيل السابع . (المعرّب) .

يذكر أربعة نفر أمرهم عمرو أن يقوموا على اختطاط المدينة وتقسيمها[1] بين أحياء العرب وقبائلهم. ومهما يكن من الأمر فلا شك في أن الذين اختطوا المدينة الجديدة وبنوها كانوا من القبط، إذ لم يكن عند ذلك في العرب من له علم بذلك الفن ولا دراية به. ومن الجليّ أن اسم الفسطاط الذي سميت به المدينة اسم أعجمي، وقد اختلف فيه مؤرخو العرب، فهم يقولون إجمالاً إن معناه (الخيمة)[2] تتخذ من الأدم أو من الجلد، وكان عمرو يتخذ لنفسه خيمة منها، أو يقولون إن معناها الموضع حيث يجتمع الناس. وجاء في رواية أن كل مدينة فسطاط. وقد أورد ياقوت ستة أوزان لذلك اللفظ[3]. ويمكننا أن نقول إن علاقة ذلك الاسم بسرادق عمرو وبقصة اليمامة فيها شيء من الصحة، فإن لفظ (فسطاط) يرجع بنا إلى اللفظ البيزنطي (٢٨*) وهو اللفظ الروماني (Fossatum) ، وكان في وقت الفتح لفظاً شائعاً على العسكر. وكان الرومانيون في حصن بابليون بلا مراء إذا ذكروا موضع عسكر العرب سموه «الفسطاطون» (٢٩*) فأخذ عنهم العرب ذلك اللفظ. وإنه لمن أعجب الأمور أن يظهر ذلك الرأي للناس كأنه جديد مستغرب[4].

---

(١) معاوية بن حديج وشريك بن سمي وعمر بن قحزم وجبريل بن ناشرة .

(٢) يشك أبو صالح في هذا التأويل ويقول إنها سميت بالفسطاط وهو مجتمع الناس ولم يقم العرب خيمة إذ لم يكن لهم عهد بذلك (صفحة ٧٤) .

(٣) الفُسطاط والفِسطاط والفُسّطاط والفِسّاط والفُستاط والفَستاط. ولكي نعرف الأدلة على أن الكلمة مشتقة من اللفظ الروماني (Fossatum) أنظر كتاب سفوكليز « القاموس البيزنطي »*(٣٠) ولعل العرب سمعوا هذا اللفظ في الشام كما سمعوه عند حصن بابليون . وأكثر ما يطلق على ما يتصل بالمدن المحصنة ، (ولعل هذا الإتصال هو الذي جعل العرب يذهب إلى أن الفسطاط معناها المدينة (أنظر خطط المقريزي الجزء الأول صفحة ٢٩٦) والخبر الذي أشرنا إليه في المتن ورد في ياقوت إذ يقول إنه قد جاء في الحديث ما معناه أن عليكم الإجتماع فإن يد الله فوق الفسطاط . ومعنى ذلك المدينة التي يجتمع الناس فيها ، وعلى هذا فإن كل مدينة فسطاط . ويقول ابن الفقيه إن البصرة كان يطلق عليها اسم الفسطاط .

(٤) يقرب الدكتور (وليس بدج) إلى الحقيقة في كتابه الصغير المسمى (النيل) صفحة =

وإنه لمن البعيد أن تكون مدينة الفسطاط قد جعلت عند اختطاطها مدينة عظيمة أو أنه كان يقصد منها أن تكون عاصمة للمسلمين[1]، فقد كان انحصار الجنود في الحصن مما أفسد حالهم ونغص عليهم عيشهم، وما كان من العدل ولا من المستحسن أن يخرج المسلمين أهل مصر من ديارهم ليحلوا محلهم. وعلى ذلك فقد رأى العرب أنهم يستطيعون البناء خارج أسوار الحصن لا يخافون شيئاً، بعد أن وضعت الحرب أوزارها وأمنوا الكيد أن يأتيهم من جانب ذلك الإقليم. ولكن المدينة وإن ابتدأت صغيرة، نمت نماءً سريعاً بعد سنة من إنشائها منذ أبى الخليفة عمر أن يبيح لعمرو أن يتخذ الإسكندرية عاصمة. فاتسعت عند ذلك فسطاط مصر وكانت تسمى بالإسمين معاً، حتى عمت الفضاء الفسيح الذي نرى به اليوم تلك الأكوام من الأقذار في جنوب القاهرة، ومنذ ذلك الوقت صارت عاصمة مصر. ثم نشأت بعد ذلك ضاحية في ظاهر الفسطاط من قبل الشمال وكان اسمها العسكر، وانتقلت إليها قاعدة الحكم. ثم تلا ذلك بناء القطائع في شمال العسكر، بناها أحمد بن طولون واتخذ فيها الطولونيون

= ١١٢ (ت . كوك وولده لندن سنة ١٨٩٠) ومع أنه يقول في تعليق له إن اللفظ العربي فسطاط صورة أخرى من فسطاط وهو لفظ يوناني بيزنطي* (٣١) فإنه يقول في المتن إن الفسطاط معناه الخيمة وإنه لمن المشكوك فيه أن يكون العرب قد اتخذوا الخيام في حروبهم في ذلك الوقت . ولكنا مع صرف النظر عن هذا الشك نرى أن القول إن معنى الفسطاط (العسكر) قول قائم على أدلة تاريخية ولغوية فهو في حكم الثابت المقرر .

(١) تاريخ إنشاء الفسطاط مختلف فيه طبعاً ، فالظاهر أن البلاذري يزعم أنه كان بعد فتح بابليون في حين أن أكثر المؤرخين يجعله بعد فتح الإسكندرية عندما أبى عمر أن يبيح لعمرو المقام في الإسكندرية . ونرى أنه من المحتمل أن يكون بناء المدينة قد بدأ بعد صلح الإسكندرية كما ذكرنا في متن الكتاب وأنها زادت فيما بعد حتى صارت مدينة وعاصمة ذات شأن كبير عندما قضى عمر بعدم المقام في الإسكندرية ، ونرى أن (Weil) قد أخطأ إذ قال إن بناءها كان بعدما دخل العرب الإسكندرية كما أنه أخطأ إذ زعم أن الإسكندرية فتحت عنوة . وقد قال أبو المحاسن صراحة إن عمراً بنى الفسطاط في سنة ٢١ هجرية بعد فتح الإسكندرية وقد وقع شتاء (٦٤١ ـ ٢) بعد ١٠ ديسمبر في سنة ٢١ للهجرة .

قصوراً[1] لهم. فلما انقضت دولة الطولونيين رجعت العسكر إلى شأنها الأوّل حيناً من الدهر، ثم قضى عليها في أواخر القرن العاشر، إذ جاء الفاطميون إلى مصر وبنوا لهم عاصمة جديدة وهي مصر (القاهرة) أي المنصورة. وقد أخذ أهل البندقية الوصف (القاهرة) ولم يأخذوا الاسم (مصر) ونقلوه محرّفاً إلى لغات أوربا وهو (كيرو).

وإنا نرى إلى اليوم جامعاً عتيقاً في شمال الحصن الروماني المتهدم ويبعد عنه بقليل، وهو أقدم مسجد في مصر يؤمه السفار ويعرفونه، فلا حاجة بنا إلى إثبات وصفه هنا، ونظن أن إنشاءه كان في ذلك الشتاء من سنتي ٦٤١ و ٦٤٢[٢] وقد اختار عمرو لبنائه الموضع الذي كان فيه لؤلؤه[٣]. وصار يعرف باسم مسجد أهل الراية[٤]. وكان ذلك الموضع بين بساتين وكروم[٥] تلي شاطىء النهر[٦]، وقد حل فيه قبل بناء الجامع أبو عبد الرحمن قيسبة بن كلثوم، فلما طلبه عمرو

---

(١) معنى لفظ القطائع ما يقطع من الأرض للأمراء (fiefs) وقد ترجم كاترمير من المقريزي وصفاً بديلا لذلك الحي المسمى بهذا الاسم وما كان فيه من الأبنية الجميلة (Mem, Geog, et Hist,) صفحة ٤٥٨ وما بعدها من الجزء الثاني ، وجاء قبل ذلك وصفه للعسكر (صفحة ٤٥٢) .

(٢) جاء في المقريزي ما يفيد أن ذلك اللواء لم يكن لواء جيش عمرو بن العاص بل كان راية أقامها لبعض البطون إذ لم يكن لكل بطن منهم من العدد ما ينفرد بدعوة من الديوان ، فكره كل بطن منهم أن يدعى باسم قبيلة غير قبيلته فجعل لهم عمرو راية ولم ينسبها إلى أحد فقال يكون موقفكم تحتها إلخ (المعرب) .

(٣) جاء هذا التاريخ (٢١ هجرية) في ياقوت وأبى المحاسن .

(٤) جاء هذا في ياقوت وإن الخبر الذي يذكر أن هذا موضع راية عمرو وليس موضع خيمته هو الأقرب ، وهذا يقرر الرأي الذي يقول إن اشتقاق ذلك الاسم (الفسطاط) من اللفظ الروماني (٣٢)* .

(٥) السيوطي عن ابن عبد الحكم .

(٦) أنظر كاترمير (Mem. Geog. et Hist.) الجزء الأول صفحة ٧١ وما بعدها وقد علق هامكر على الواقدي (Exqugegtıs Menphidis) صفحة ١٣٢ من الذيل ففند عبارته التي قال فيها إن المسجد بني في موضع كنيسة مسيحية ، وهذا الخطأ ولا شك قد نشأ من أن بعض الأعمدة التي أدخلت في بناء هذا المسجد فيما بعد أخذت من بعض أبنية مسيحية .

منه نزل عنه صدقة للمسلمين. وكان المسجد من أوّل ما يجب على المسلمين اتخاذه. ولقد كان جامع عمرو في الأصل مسجداً ساذجاً، وكان ذرعة خمسين ذراعاً في ثلاثين وسقفه مطأطأ، وكان أمامه فضاء، ولم يجعل لـه صحن، ومدّ الطريق حولـه وجعلت له ستـة أبواب. ثم ظهـر ضيقه بـالمصلين فكان النـاس يصطفون للصلاة في الفضاء الذي أمامـه. وقيل إن الـذين أقامـوا القبلة كانـوا ثمانية[1] من أصحاب الرسول. فيهم الزبير، والمقداد بن الأسود[2]، وعبادة بن الصامت؛ وكانت قبلته منحرفة إلى الشرق انحرافاً أكثر مما هي عليه اليوم. ولما تم بناؤه وضع فيـه منبر، وكـان عمرو يقـوم عليه في خـطبته[3] حتى تقـدّم إليه الخليفة عمر يعزم عليه في كسره، ولامه على أنه يطأ رؤوس المؤمنين إذ يقـوم عليه والمسلمون جلوس تحت عقبيه. وقد زيدت فيه زيادات كان أوّلها ما زاده مسلمة بن مخلد في سنة ٦٧٣ للميلاد[4]، فإنـه مدّه إلى جهـة الشمال وفـرشه بالحصر بدل الحصباء، وبنى فيه صومعة عند كل ركن من أركانـه. وجعل فيـه منائر نقش عليها اسمه، وزاد عدد المؤذنين وأمرهم أن يؤذنـوا للفجر إذا مضى نصف الليل[5]. وأمر ألا يضرب فيه بناقوس[6] عند الفجر كما كان يفعل أوّلاً.

(١) هذا عن السيوطي ويقول غيره بل ثلاثين وآخرون يقولون ثمانين .

(٢) جاء في الأصل الإنجليزي القداد بن الأسود وهو تحريف (المعرب) .

(٣) يذكر أبو المحاسن نقلاً عن ابن عبد الحكم خطبة طويلة خطها عمرو وهي على الأقـل خطبة بديعة اللفظ .

(٤) يذكر ياقوت والسيوطي سنة ٥٣ للهجرة في حين أن أبا المحـاسن يكتب سنة ٦٣ وهـذا التاريخ الأخير محرف من غير شك .

(٥) هذا مأخوذ عن المقريزي وقد جاء في الأصل الإنجليزي وأمرهم أن يؤذنوا (عند الفجر) ولعله تصـرف من المؤلف لأنـه نقـل هـذا عن المقـريـزي لإتفـاق بـاقي النص معـه . (المعرّب) .

(٦) الناقوس هو آلة من الخشب كان يستعمل عند المسيحيين قبل الأجراس ولا يزال إلى اليوم مستعملاً في كثير من بلاد الإسلام حيث تكره الأجراس أو تحرم ، وقد ذكر أبو المحاسن خبر إيصال المسلمين في مصر لإستعمالها . وكانت النواقيس تتخذ أحيـاناً من المعـدن وهي عبارة عن قطعة من الحديد أو النحاس معلقة في خيط أنظر كتاب His . do L'eg- » =

وفي حوالي سنة ٦٩٦[1] أمر عبد العزيز بن مروان بهدم جزء منه، ولعله أمر بهدم الزيادة التي زيدت فيه، وأعاد بناءه. ثم أمر الخليفة الوليد بن عبد الملك بعد ذلك في سنة ٧١١[2] واليه قرة بن شريك أن يهدم المسجد كله ويعيد بناءه، فصار بعد ذلك إلى صورته التي بقي إلى اليوم محتفظاً[3] بجلها مع ما دخل عليه من التغيير فيما[4] بعد.

ولا نعرف إلا قليلاً من وصف البناء الذي بناه الناس في الفسطاط، فقد كانت أكثر المنازل من اللبن، ثم علا فيها البناء حتى صار إلى طبقات أربع أو خمس. فإذا أردنا أن نصوّر لأنفسنا صورة تلك المنازل كان لا بد لنا أن نصورها

= (Vansleb) « lise d'Alex. » (صفحة ٥٩) وكتاب بتلر « Anc. Cop. Ch. » (الجزء الثاني صفحة ٧٩ - ٨٠) وكتاب (Pereira) « Vida do Abba Daniel » (صفحة ٥٠ هامش ١)

وكتاب (Hamaker) Expugn. Memph. صفحة ١٦٦ وما بعدها وقد ورد فيه هذا الأمر بتفصيل عظيم .

(١) سنة ٧٧ للهجرة .

(٢) سنة ٩٢ للهجرة .

(٣) هكذا قال السيوطي حوالي سنة ١٥٠٠ للميلاد ومن الثابت أنه لم يدخل بعد ذلك تغيير كبير عليه بعد هذا التاريخ .

(٤) ودخلت عليه زيادة في سنة ٧٥٠ عندما كان صالح بن علي حاكماً على مصر ثم في أيام هرون الرشيد حوالي سنة ٧٩١ زيدت عليه زيادات في سنة ٨٢٦ في زمن عبد الله بن طاهر وفي سنة ٨٧١ في زمن أبي أيوب أحمد بن محمد . ولكن ما زاده عبد الله بن طاهر تهدم سنة ٨٨٤ على أثر حريق فأعاده السلطان المجيد خمارويه وأدخلت عليه تحسينات عدة في القرن العاشر ولكن الخليفة المجنون الحاكم بأمر الله شوهه بأن نزع عنه الفسيفساء وجعل مكانه طلاء أبيض من الجير ، وإذا أراد القارىء الزيادة من هذا الوصف فإنا نصف له تاريخاً مفصلاً ووصفاً لمسجد عمرو في مقالة بديعة كتبها المستر (ا . ك كوربت) في جريدة الجمعية الملكية الأسيوية (شهر أكتوبر سنة ١٨٩٠ الجزء ٢٢) وتجد مع ذلك المقال رسوماً وإيضاحات وتجد أيضاً وصفاً دقيقاً بديعاً للمسجد في كتاب ابن دقماق (الجزء الرابع صفحة ٥٩ و ٦٧) وقد وجدت النسخة المخطوطة منه وطبعت بعد ظهور مقال المستر كوربت .

قطعاً عظيمة من البناء، قائمة على غير استواء ولا نظام، تدعمها أعمدة رومانية لا شيء فيها من الزينة ولا من جمال التنسيق، تشبه كل الشبه ما هو موجود أو ما كان لا يزال في مدينة رشيد من البناء منذ عشرين عاماً. وقيل إن بعض هذه المنازل الكبرى كان يسكن فيه نحو مائتي فرد وكانت الطبقة السفلى مما يلي الأرض لا يسكنها أحد إلا قليلاً. وقيل إن خارجة بن حذافة النائب المعروف الذي كان عمرو ينيبه عنه كان أوّل من اتخذ لداره مشربة أو طنفاً، فلما بلغ ذلك عمر بن الخطاب كتب إلى عمرو أنه ما فعل ذلك إلا ليشرف على من حوله ويطلع على عوراتهم وسرهم، وأمره أن يهدمها. وقد بنيت في الفسطاط حمامات كان يسمي أحدها (حمام الفار) إذ كانت صغيرة حقيرة البناء إذا قيست بحمامات الرومان العظيمة.

وكان لا بد للمدينة فوق مسجدها ومنازلها وحماماتها أن يكون لها مقبرة، وقد رويت في ذلك قصة عجيبة وذلك أن قيرس بعث إلى عمرو أن يبيعه قطعة من الأرض عند سفح الجبل بسبعين ألف دينار، فلما سئل عن سر ذلك الثمن العظيم قال إنه قد جاء في كتبهم أن ذلك الموضع روضة من رياض الجنة. فلما علم عمر بن الخطاب بذلك قال إنما روضة الجنة حيث يدفن المؤمنون وأبى ذلك البيع على المقوقس، وأمر بجعل تلك الأرض مقبرة للمسلمين. وقد دفن فيها فيما بعد عمرو بن العاص وأربعة من الصحابة.

ثم أقبل عمرو على عمل عظيم آخر وهو حفر خليج تراجان[1]. وكان

---

(١) قد حالفنا الكندي بجعل حفر قناة تراجان في هذا الشتاء من عام (٦٤١ ـ ٢) فإنه يقول إن ذلك كان سنة ٢٣ للهجرة وهي تبدأ في نوفمبر سنة ٦٤٣ ، ولكن من المعلوم أنه قبل موت عمر في ذي الحجة سنة ٢٣ كانت السفن المصرية تأتي إلى بلاد العرب تحمل البضائع إليها ولا يعقل أن كل هذا الخليج يمكن أن يحفر ويجهز لسير السفن في أقل من سنة ، وإنه من الممكن طبعاً أن هذا العمل عمل في الشتاء الذي قبله أي سنة (٦٤٢ ـ ٣) ، ولكن هذا التاريخ غير محتمل فقد كان عمرو عند ذلك مشغولاً في فتح بنطابولس وفوق ذلك نرى أنه لا شك في أن حنا النقيوسي يقصد أن يذكر أن هذا العمل كان في شتاء (٦٤١ ـ ٢) ، فهو يذكر على الأقل أن البدء في حفره كان في مدة حياة قيرس وقيل =

ذلك الخليج يخرج من النيل إلى شمال بابليون بقليل فيمرّ بمدينة عين شمس، ثم يسير في وادي الطميلات إلى موضع القنطرة حتى يتصل بالبحر الأحمر عند القلزم[1]، وقد أهمل الروم أمره حتى سده الطين. وكان أقدم عهداً من حكم تراجان، وإنما سمي باسمه لأنه أعاد كريه وأصلحه، كما عزم عمرو بن العاص على أن يفعل به عند ذلك. وقد أظهر العلامة (فيل)[2] أن جزءاً منه إن لم يكن

= مسير العرب إلى بنطابولس وهو يقول إن ذلك كان بعد أن استولى العرب على البلاد، ولكن من الواضح أن حنا يعتبر الفتح العربي قد تم قبل موت قيرس أي في هذا الوقت. ولا يوجد شيء من الوجاهة في صحة قول من يقول إن موضع ذكر هذا العمل في كتاب حنا (٥٧٧ ـ ٨) يدل على غير ذلك التاريخ لأن كتاب حنا غير مرتب ترتيباً حسناً، وقد يقال إن العرب لم يملكوا مصر ملكاً تاماً بصلح الإسكندرية وهذا صحيح إذا تقيدنا بالألفاظ، ولكن الأمر الواقع أن فتح مصر كان عند ذلك قد تم تقريباً إلا في أقصى الشمال من مصر السفلى، وفوق ذلك قد جاء في البلاذري ما يعزز التاريخ الأول وهو شتاء (٦٤١ ـ ٢)، فإنه يقول (صفحة ٢١٦) إن في عام المجاعة (سنة ٢١ هجرية) كتب عمر إلى عمرو يأمره أن يرسل الجزية عيناً (أي من القمح وغيره من الأشياء) إلى المدينة بالبحر، وقد بقيت على ذلك مع إنقطاع في بعض الأحيان إلى أيام أبي جعفر المنصور. وهذا لا يدل على أن الخليج تم حفره في تلك السنة (٢١ هجرية) التي تنتهي في ٢٩ نوفمبر سنة ٦٤٢، ولكنه يدل على أن عمراً عرف قيمة مثل ذلك الخليج الذي يجعل طريق البحر متصلاً. فعلى الإجمال نرى أن الدليل قوي على أن بدء حفر ذلك الخليج كان في أوائل سنة ٦٤٢، وذلك على رغم ما ذهب إليه (Weil) ولعله لم ينته قبل سنة ٦٤٣، ولكن (Weil) يذكر أن ابن عبد الحكم ذكر في وصفه المفصل أن عمر ذهب إلى (الجار) وهي فرضة المدينة ليرى مجيء السفن الآتية من مصر، وهذا يدل على أن ذلك الخليج كان تاماً ومستعملاً قبل وفاة عمر (نوفمبر ٦٤٤)، ولعله تم في شتاء (٦٤٣ ـ ٤)، واستعمل في فيضان سنة ٦٤٤ لأول مرة.

(١) أنظر كاترمير « Mem. Geog. et. Hist. » الجزء الأول صفحة ١٧٦ وما بعدها.

(٢) « Geschichte der Chalifen » الجزء الأول صفحة ١٣٠ وما بعدها ويشير (Weil) إلى الجزء الثاني صفحة ١٥٨ من كتاب (Mannert) وهو (Geog. der Cr. und Romer) الجزء العاشر (X. I S.) صفحة ٥٠٣ وما بعدها ومقال (Letronne) في مجلة العالمين (XXVII) ٢١٥، وتجد بعض الأخبار عن ذلك في كتاب أبي صالح صفحة (١٧٢ ـ ٣) =

كله يرجع الفضل في حفره إلى فرعون مصر (نخاو)، وهو الذي حفر خليجاً في برزخ السويس من البحر الأبيض إلى البحر الأحمر، وقد أصلحت الترعة مرة أخرى في مدة بطليموس الثاني (فلادلفوس) ولكنه جعلها تنفصل من النيل عند (فاقوس) بعد أن كانت تنفصل عنه عند (بوسطة). ولسنا نعرف الوقت الذي حفر فيه جزء الترعة الذي بين بوبسطة وبابليون. على أن هذه الترعة لم تكن ذات غناء كبير لأن الماء لم يكن يجري فيها إلا عند فيض النيل. ولما أهمل أمرها أصبحت من بعد القرن الثاني للميلاد غير صالحة لسير السفن، وكان لا بد للرمل أن يسدها بالسقوط فيها إذا ما قل تعهدها والاعتناء بأمرها. وقيل إنها كانت في ذلك الوقت خفية الأثر حتى احتاج عمرو إلى من يدله على موضعها من القبط فأجازه برفع الجزية عنه. ولكن سرعة حفرها وإعادتها إلى الصلاح تدلنا على أن بعض مجزاها الذي طوله تسعون ميلاً كان لا يزال صالحاً. على أن مثل ذلك الإسراع لم يكن عجيباً إذ كان يعمل فيها عدد عظيم من أهل البلاد يساقون إلى ذلك كأنهم أرقاء، يسوقهم من ورائهم مقدّمون وخول على ما جرت به سنة أهل مصر منذ أقدم الأزمان. ويلوح لنا أن العرب لجأوا إلى هذه السخرة بشدة لم تعهد من قبل حتى لقد وصفهم (حنا النقيوسي) وصفاً شديداً وتناولهم بالقول القاذع فقال: «وكان نيرهم على أهل مصر أشدّ وطأة من نير فرعون على بني إسرائيل، ولقد انتقم الله منه انتقاماً عادلاً بأن أغرقه في البحر الأحمر بعد أن أرسل صنوف بلائه على الناس والحيوان، ونسأل الله إذا ما حل حسابه لهؤلاء المسلمين أن يأخذهم بما أخذ به فرعون من قبل»[1] ولكن الظاهر أن هذه الشدّة إنما جاءت عفواً في وقت الفتح ولم تكن صفة ثابتة لحكومة عمرو في مصر.

وقيل إن عمراً كان ينوي حفر خليج بين بحيرة التمساح والبحر الأبيض المتوسط، فيكون بذلك قد قطع البرزخ بالبحر كما هو اليوم، ولكن عمر بن

= وهوامشها وهامش صفحة ٨٨ وقد ردم حديثاً مجرى الخليج الواقع في القاهرة ويجري فيه اليوم طريق الكهرباء.

(١) حنا النقيوسي صفحة ٥٧٨.

الخطاب أبى عليه ذلك وأنكره قائلاً إنه يمكن الروم من السير إلى البحر الأحمر وقطع السبيل على من أراد الحج، وليس في هذه القصة شبهة تمنع من تصديقها.

ولم ينصرف القائد العربي كل الانصراف إلى هذه الأعمال السلمية، فلم تشغله عن أمور الحرب والقتال، فإنه رأى البلاد قد صارت إلى الإذعان للعرب منذ عهد الإسكندرية لا ينقص من سلطانهم عليها إلا بعض بلدان في شمال مصر السفلى، ولا سيما ما كان منها على شاطىء البحر، إذ أبت أن تدخل فيما دخل فيه الناس من العهد. وكان لعمرو أن يسير إليها إذا شاء فيقاتلها ولو كان ذلك في مدة الهدنة. ويلوح لنا أنه قد وجه لقتالها جيشاً في ربيع سنة ٦٤٢؛ ومن العسير أن نصف ما كان من سير جيش العرب لا سيما وأن حنا النقيوسي لا يذكر شيئاً من أمر القتال في هذه المدة، فلا بد لنا من الاعتماد على مؤرّخي العرب وما جاء في أخبارهم، ومن أشق الأمور فهمها أو الربط بين أجزائها.

فلا نجد مع هذا ندحاً من أن نلجأ إلى التصور والحدس، فنقول إن جيش العرب لا بد قد سار من كريون نحو الشرق على ساحل النهر. وكانت في الإقليم الذي كان يعرف بالحوف الغربي مدينة اسمها (إخنا) ليست بعيدة عن الإسكندرية[1]. وكان حاكمها اسمه (طلما) فأتى إليه كتاب من عمرو يعرض عليه فيه شروط الصلح الذي صالح عليه (قيرس)، ولكنه لم يقنع بما جاءه في ذلك الكتاب، فأرسل إلى عمرو يطلب الاجتماع به، فسأله عن مقدار الجزية. فلم يطق قائد العرب احتمال هذه المراجعة وأشار إلى كنيسة قريبة وقال: «لو أعطيتني من الركن إلى السقف ما أخبرتك إنما أنتم خزانة لنا، إن كثر علينا كثرنا عليكم وإن خفف عنا خففنا عنكم»[2]. ولا بدّ أن (طلما) كره هذا الرد وعزم

---

(١) ياقوت الجزء الأول صفحة ١٦٦، ولسنا نستطيع أن نعرف موضع (إخنا) على الخرائط الحديثة ولا بين أسماء القرى.

(٢) هذا القول يخالف كل المخالفة الإتفاق المعقود الذي حدد الجزية وجعلها لا تتغير. وإذا صح أنه قيل عند ذلك كان لا بد ناشئاً من غضب، ولكن الأقرب إلى العقل أن هذه =

على ألا يذعن، وعلى ذلك سار المسلمون إلى (إخنا) وما لبثوا أن أرغموها على التسليم لهم. وقد أخذوا منها أسرى كُثُر وبعثوا بهم إلى الخليفة عمر في المدينة، مع أن تلك القرية سلمت إليهم صلحاً بعقد وعهد. وقد حدث مثل ذلك لمدينة (بلهيب)[1]، وكانت مدينة منيعة في جنوب رشيد تبعد عنها بضعة أميال. والظاهر أن عمر أتاه هناك رد الخليفة عمر بإقرار صلح الإسكندرية[2]. فقرأ عمرو كتاب الخليفة على الناس وقد جاء فيه أن يخير الأسرى، فمن رضي الدخول في الإسلام منهم أطلق سراحه وصار للمسلمين أخاً. فيروى أنه دخلت في الإسلام طائفة كبيرة من الأسرى، وكان المسلمون يكبرون فرحاً كلما أسلم منهم أحد. ولكن لم يقع مثل هذا كثيراً أن يُسلم جماعة مرة واحدة في مقام واحد، بل إن هذا الأمر ليس له نظير في وقت آخر، ولو صح أنه وقع لكان الباعث عليه طمعاً عظيماً في أمر من أمور الدنيا، في قلوب لم تكن عقيدتها ثابتة، ولعل تلك القصة قد داخلها تحريف ومبالغة.

ويذكر مع صلح (إخنا) صلح آخر عقد مع (قزمان) ـ ولعله قزماس ـ حاكم رشيد وصلح مع (حنا) حاكم البرلس[3]. ويلوح لنا أن الغرب ساروا من بعد

= الكلمات إنما قيلت فيما بعد عندما ضيق الحصار على إخنا وكان لا بد لها من التسليم، وفي هذه الحالة يكون قول عمرو له مبرر إذ يكون عمرو غير مقيد بصلح الإسكندرية بعد أن أبته تلك المدينة وقاتلت العرب حتى فتحوها عنوة.

(١) أنظر ما سبق في هامش ١ صفحة ٣١٥، ويسمي البلاذري هذا الموضع بلهيت، وهذا خطأ نقله أبو المحاسن والسيوطي ولكن ياقوت يذكر الاسم الصحيح.

(٢) قد سبق لنا ذكر الأسباب التي دعتنا إلى مخالفة ما جاء في قصة بلهيب التي جاءت في صفحة ١٠ من كتاب الأستاذ (لين بول) «مصر في القرون الوسطى» بأنه من المستحيل من الجهة التاريخية والجهة الجغرافية أن يكون عمرو قد قضى مدة الهدنة هناك.

(٣) كانت رشيد بالطبع مشرفة على مدخل فرع النيل الغربي وبلهيب مشرفة على المجرى الذي بين فرع رشيد والإسكندرية وكانت البرلس مدينة على مصب الفرع السبنيتي للنيل ولا تزال المدينة وإقليمها محتفظين بهذا الاسم إلى اليوم مع أن فرع النيل السبنيتي قد طم منذ زمن طويل وتكون منذ ذلك بحيرة لا يحجزها عن البحر إلا قطعة ضئيلة من الرمل وقد ذكر المقريزي أسماء البلاد أخنا والبرليس ورشيد مجتمعة.

البراس على شاطىء البحر حتى بلغوا دمياط[1] ولم يقف لهم حاكم المدينة (حنا)، وأصبح العرب بفتح دمياط مسيطرين على منافذ النيل إلى البحر جميعاً. ثم فتحت (خيس) في الإقليم المعروف بالخوف بقرب دمياط[2]، وأكبر الظن أن سلطان العرب صار يمتد عند ذلك على كل بلاد مصر السفلى، اللهم إلا بلاداً قليلة كانت في الجزائر التي في رقاق بحيرة المنزلة الفسيحة.

وكانت الأرض التي تغطيها مياه تلك البحيرة إلى ما قبل الفتح العربي بقرن[3] واحد لا تضارعها في بلاد مصر كلها أرض أخرى في جودة هوائها وخصبها وغناها، إلا إذا قلت بلاد الفيوم فقد تكون عدلاً لها. وكانت أرضها ترويها ترع لا تنضب مياهها تأتي من النيل فكانت تنبت نباتاً يانعاً من القمح

---

(١) جاء في البلاذري ذكر فتح دمياط فقال إن البعث الذي أرسل إلى تنيس ودمياط وتونة ودميره وشطا ودقهلة وبنا وبوصير كان أميره عمير بن وهب الجمحي وإنه أقرب من الإحتمال أن يكون عمر وقد وكل قيادة هذا البعث إلى أمير نائب عنه ولا يذكر البلاذري وقوع أي قتال بل يقول إن عميراً صالح أهل تلك البلاد على شروط الصلح العام الذي صالح عليه عمرو.

(٢) يختلف مؤرخو العرب كثيراً في أسماء البلاد التي قاومت العرب فيذكر البلاذري بلهيت (وهي بلهيب) والخيس وسلطيس في موضع ويذكر في موضع آخر كما رأينا أسماء البلاد سخا وبلهيت والخيس وسلطيس ويقول إنها ساعدت الروم في وقعة سنطيس ويضم ياقوت إلى هذه البلاد مدينة (فرطسا) ويقول إن عمرا بعد أخذ الإسكندرية أسر أهل تلك البلاد ويبعث بهم إلى المدينة ويعين ياقوت موضع الخيس ويذكر المقريزي عقود صلح مكتوبة مع إخنا ورشيد والبرلس وسلطيس ومسيل وبلهيب وكذلك يقول السيوطي وأما الخيس فيجب أن تكون المدينة التي يصفها ياقوت في الجزء الثاني صفحة ٥٠٧ بأنها في الحوف الغربي وأن الذي فتحها خارجة بن حذافة وقد وصف الحوف الغربي بأنه دمياط في حين أن الحوف الشرقي كان مما يلي الشام ولكن الخيس في الوصف الذي نقله كاترمير(Mem. Geog. et Hist.) الجزء الأول صفحة ٢٨٧ وما بعدها يظهر أنه في شرق الفرما ولعله موضع آخر.

(٣) في سنة ٢٥١ من التاريخ القبطي وإذا أردت معرفة شيء عن أخبار هذه البلاد التي غمرتها البحيرة فارجع إلى كاترمير(Mem. Geog. et Hist.) الجزء الأول صفحة ٢٨٧ وما بعدها وقد ترجم كاترمير كثيراً من قول المقريزي والمسعودي.

والنخيل والأعناب وسائر الشجر. غير أن البحر طغى عليها فاقتحم ما كان يحجزه من كثبان الرمل، وكانت المياه تزيد طغياناً عاماً بعد عام حتى عمت السهل الوطيء كله، ولم يبق فوق وجهها إلا عدد من الجزائر بعد أن أكلت المياه ما كان هناك من حقول وقرى، فلم ينج منها إلا ما كان عالياً لا تناله المياه. وأعظم ما نجا من قرى تلك الأرض مدينة (تنيس) الشهيرة، وكانت مدينة لها شيء من الاتساع والكبر، وكانت ذات بناء جميل تجود بها صناعة المنسوجات الدقيقة. وكانت في البحيرة التي تخلفت مدائن أخرى اشتهرت ببراعة صناعها في النسيج مثل (طونة) و(دميرة) و(دبيق)، ولكن لم تبلغ إحداها مبلغ (تنيس) إذ كانت تضارع دمياط وشطا في دقة منسوجاتها وجودة أنواعها فما كان في البلاد كلها غير (تِنيس) و(دمياط) ما يستطيع أن يخرج ثوباً من الكتان النقي يبلغ ثمنه مائة دينار (أي خمسين جنيهاً). وقد ذكر المسعودي في تاريخه أن ثوباً صنع هناك للخليفة من عرض واحد بلغ ثمنه ألف دينار، وكان مصنوعاً من خيوط الذهب مخلوطة باليسير من دقيق الكتان. وقد ورد في الأخبار كذلك أن تجارة (تِنيس) مع العراق وحده بلغت من عشرين ألف دينار إلى ثلاثين ألفاً في السنة الواحدة، ولكن ذلك كان قبل أن تقضي عليها الضرائب الفادحة.

كانت تنيس على جزيرة[1] فسيحة وكانت تصل إليها من الجنوب ترعة اسمها بحر الروم، ولعلها كانت بقية فرع النيل التنيسي الذي كان يبلغ (الصالحية). وكان الاتصال كذلك سهلاً في الماء بينها وبين الفرما، أو على

(١) يزعم كاترمير أن اسم هذه المدينة مشتق من اللفظ اليوناني (نيسوس) وقد أضيفت في أوله علامة التأنيث القبطية فإذا صح ذلك كان لا بد أن تلك البلاد غمرت من زمن بعيد قبل القرن السادس وفي الحق أن (كاسيان) ـ وكان في مصر فيما بين سنة ٣٩٠ وسنة ٣٩٧ للميلاد ـ يقول على وجه البت إن (Thinnesus) يحيط بها من جميع جهاتها بحر أو منافع ملحة حتى أن أهلها كانوا يعتمدون كل الإعتماد على البحر في الإنتقال من مكان إلى مكان وكانوا يأتون بالطين في السفن إذا أرادوا أن يوسعوا أرضاً ليبنوا عليها بناء .

الأقل بينها وبين (الطينة) وهي ثغر الفرما على ساحل البحر. وقيل إن (تنيس) كان لا يزال بها إلى القرن العاشر آثار قديمة سوى ما كان بها من المساجد وعدتها مائة وستون، تزين كلاً منها مئذنة عالية، ثم ما كان بها من الكنائس وعدتها إثنتان وسبعون كنيسة. وكان بها من الحمامات ستة وثلاثون، وكانت لها أسوار حصينة فيها تسعة عشر باباً مصفحة بالحديد الثقيل[1]. وقيل إن الموتى في الجزائر الأخرى كانت تحمل في الماء إلى جزيرة (تنيس) لتدفن بها والظاهر أن هذه الموتى كانت تحنط هناك. وقد زارها بعد ذلك بقرن الرحالة الفارسي (ناصري خسرو)[2] في عام ١٠٤٧ للميلاد فعجب مما رآه من ثرائها ورواج أسواقها فهو يذكر أنه كانت بها عشرة آلاف متجر وخمسون ألفاً من الناس. وكانت في مراسي جزيرتها ألف سفينة ولم يكن بها شيء من الزرع بل كانت تعتمد في كل أقواتها على تجارتها. وكان النيل إذا علا وفاض طرد ما حول الجزيرة من مياه البحر الملح، وملأ بالماء العذب ما كان فيها من الصهاريج ومخازن الماء الدفينة في الأرض. وكانت تلك كافية لشرب الناس طول الحول. وقد بلغت منسوجات القبط البديعة ذات الألوان شأناً عظيماً لم تبلغه في وقت من الأوقات. فكان للسلطان مناسج خاصة به تنسج فيها الأثواب له وحده. وكان الثوب لعمامته تبلغ نفقته أربعة آلاف دينار، ولكن الأثواب التي كانت تصنع للسلطان لم تكن مما يعرض في الأسواق. وقد طلب إمبراطور الروم أن يأخذ (تنيس) ويعوض عنها بمائة مدينة من مدائن دولته ولكنه لم يجب إلى ذلك. وكان مما يصنع في تلك المدينة سوى هذه الأثواب الملكية نوع من الأثواب اسمه (بوقلمون)، وكان من الحرير المتغير اللون، وكانت لمعته زاهية حتى قيل إنه كان يبدو في ألوان متغيرة في كل ساعة من ساعات النهار. وكانت صناعة السلاح المتخذ من الصلب من الصناعات التي كادت تبلغ في تنيس مبلغ

---

(١) كاترمير الجزء الأول صفحة ٣٢٩ ولكنه يقول إن مساحة المدينة كانت ميلاً مربعاً فقط وهذا خطأ ظاهر وقد دمرت (تنيس) في سنة ٦٢٤ للهجرة فلم يبق منها إلا الأطلال ولا تزال الجزيرة تعرف بهذا الاسم عينه ولا تزال عليها آثار قديمة .

(٢) أنظر (السفرنامة) طبعة (C, Schefer) صفحة ١١٠ وما بعدها .

منسوجاتها، فكانت على ذلك مدينة من أعجب المدائن وأعظمها شأناً.

ويروى في القصص أن حاكم (تنيس) كان في وقت الفتح العربي رجلاً من العرب النصارى اسمه (أبو طور)، وأنه خرج لقتال المسلمين على رأس عشرين ألفاً من القبط والروم والعرب، فلقيهم في سيرهم إلى (تنيس) بعد أن فتحوا دمياط[1]، فناجزهم في مواطن كثيرة قبل أن يظفر العرب ويهزموا جيشه ويأخذوه أسيراً. ومنذ تم لهم ذلك فتحوا المدينة وغنموا أموالها وقسموها ثم ساروا إلى (الفرما). ومهما يكن من أمر تلك القصة ومبلغها من الصدق أو الخطأ فإنها تحوي أمرين لهما قسط وافر من الثبوت وهما أن (تنيس) دخلت في سلطان المسلمين في ذلك الوقت، وأن صناعتها لم يلحق بها أذى من الفتح نفسه. ولم يجد المسلمون ما يحبب إليهم المقام في هذه المدينة ولا في أشباهها من الجزائر التي كانت في وسط هذه البحيرة تساورها المياه الزرقاء مثل (تونه) و (بورا) و (دبيق). وعلى ذلك نستطيع أن نقول إن هذه الجهات ظلت على دينها النصراني زمناً طويلاً بعد ذلك لا يكاد يمسها دين الإسلام[2]، ثم قضى عليها وزالت أخبارها من التاريخ وكان ذلك في وقت نستطيع أن نعينه.

(١) كاترمير الجزء الأول صفحة ٣٠٧ نقلاً عن المسعودي ولا بد أن يكون جيش العرب قد جاء في الماء ومن السخف إن يقال إن حاكم تنيس استطاع أن يجمع ٢٠,٠٠٠ رجل أو ينقلهم في البحيرة ولكن الأرقام في الكتب العربية يجب ألا تؤخذ ويسلم بها بنصها ويجب علينا بغير شك أن نقرأ هذا العدد ٢٠٠٠ فحسب وقد يكون (أبو طور) من اختراع الخيال ولم يذكر اسم سواء من قوّاد العرب النصارى في مصر ولكن هذه القصة جاءت في كتاب تاريخ لكاتب عربي قديم ومع أن ذلك الكتاب إذا كتب بعد هذه الحادثة المذكورة بثلثمائة عام فإن المسعوي نفسه على ما يظهر ينقلها من كتاب تاريخ لمدينة دمياط ولكنه لا يوجد اليوم.

(٢) ذكر في سنة ٨٢٤ للميلاد أن (ديونيسيوس) بطريق أنطاكية ساقته الرياح وهو في السفينة إلى ميناء (تانيس) وقيل إنه قد خرج إليه منها ٣٠,٠٠٠ من المسيحيين للترحيب به فرحين وقد رحب به بطريق الإسكندرية وجماعة من الأساقفة وقالوا إنه لم يأت إلى مصر بطريق من بطارقة أنطاكية منذ أيام ساويرس ولكن ديونيسيوس كان أحفظ منهم للتاريخ فذكرهم بزيارة أثناسيوس وكانت في أوائل القرن السابع وقال لهم إنه قد تم عند ذلك =

كانت جزيرة (تِنيس) مكشوفة للغزو من البحر على أنها كانت محصنة فيها رباط قوي، وأمر صلاح الدين بإخلائها في سنة ١١٩٢، ثم جاء الملك الكامل في سنة ١٢٢٧ فهدم حصونها وأسوارها حتى تركها أطلالاً[١].

وتتصل بفتح هذه الجهات قصة أخرى يجدر بنا أن نشير إليها فإن المقريزي عند ذكره مدينة شطا يصفها بأنها مدينة بين (تنيس) و(دمياط). ويقول إن اسمها مأخوذ عن رجل اسمه شطا بن الهموك عم المقوقس[٢]، وهذا الاشتقاق لا حقيقة له. وتذكر القصة بعد ذلك أن العرب عندما حاصروا دمياط وفتحوها خرج إليهم حاكمها (شطا) ومعه ألفان من الناس، فأظهر إسلامه، وقد كان من قبل عاكفاً على درسه والنظر فيه زمناً طويلاً. ثم إن ذلك الرجل لما رأى أن العرب أبطأ عليهم فتح (تنيس) جمع جيشاً من البرلس ودميره وأشمون طناح وجهزه ولحق بإمداد المسلمين الذي بعث بهم عمرو، ثم سار حتى التقى بالعدو وأظهر من الشجاعة وحسن البلاء ما يظهره الأبطال، وقتل بيده إثني عشر رجلاً من فرسان

= الإتحاد الرسمي بين الكنيستين (أنظر ابن العبري الجزء الأول فصل ٣٦٠) والمقصود بميناء تانيس لا بد أن يكون الميناء الذي عند مصب الفرع التانيتي للنيل وهو بالطبع أقرب إلى تنيس منه إلى مدينة تانيس وهي أبعد منها في داخل الجزيرة والاسم العربي الآن صان أو صان الحجر وأثر موضع الميناء لا يزال موجوداً على الشاطىء بين الفرما وبور سعيد .

(١) نجد وصفاً حسناً للآثار في كتاب Ghillebert de Lannoy وهو « oeuvres receuillies et Publiées » لواضعه (Ch. Potvin) في (Louvain) سنة ١٨٧٨ (صفحة ١٣٨ - ٩) . وقد نقل عنه (Schefer) في الفصل الأول .

(٢) يسميه الواقدي (الهامرك) ولعله أصح وأنه لا محل لتصديق هذا الخبر عن علاقته بالمقوقس وقد كذب ما قيل من الأقاصيص عن زوجته وابنته إذ كانت لا أساس لها وعلى ذلك يجب أن نكذب أيضاً ما ذكر عن ابن عمه بلا تردّد كما فعلنا بزوجته وابنته فإن قيرس ما كان له أن يكون ذا أهل في مصر إلا إذا كانوا قد جاءوا معه من بلاده . وفي الواقع إن موضع شطا في شرقي دمياط ولكنها بعيدة من تنيس وأما (Tamiatis) القديمة وهي المقصودة هنا فقد كانت أبعد إلى الشمال .

أهل (تنيس) وشجعانهم، وما زال يقاتل حتى قتل في ذلك اليوم، ودفن في ظاهر المدينة. ويقول المقريزي إن قبره لا يزال معروفاً يزوره الناس من كل أنحاء البلاد المجاورة ليتبركوا به في يوم مقتله، وهو يوم النصف من شهر شعبان[1].

وليس من العسير أن ننقض هذه القصة كلها ونفندها. فإن مدينة شطا كانت تعرف بذلك الاسم قبل أن يغزو العرب مصر بزمن طويل، وقد عرفت منذ أزمان بدقة منسوجاتها وجودتها، وفوق ذلك يعرف اسم حاكم دمياط في ذلك الوقت، وقد ذكره حنا النقيوسي في ديوانه فهو حنا[2] وليس (شطا) كما زعم المقريزي، وإن الصلة المزعومة بين (شطا) والمقوقس صلة ظاهرة البطلان. ولكننا إذا قلنا إن ذلك الرجل (شطا) لم يكن له وجود، فإن في القصة أمراً يجعلنا نرفعها فوق مرتبة الوضع والكذب وهو تاريخ الموقعة، فإن المؤرخ العربي يذكر يوم وفاة ذلك البطل ويقول إنه يوم الجمعة نصف شعبان من سنة إحدى وعشرين للهجرة، وهذا اليوم هو التاسع عشر من شهر يوليه من سنة ٦٤٢ للميلاد، وهو تاريخ لا نستطيع الشك فيه. فإن ذلك العام المذكور - أي عام ٦٤٢ هو العام الذي يتفق ومجرى الحوادث التي وقعت في تاريخ فتح هذه البلاد حقيقة، وإن اليوم المذكور وهو التاسع عشر من يوليه كان حقيقة يوم جمعة، وهذا اتفاق من وجهين يندر وقوعه، فإذا وقع كان التاريخ المذكور حقيقياً لا شك فيه. وزيادة على ما ذكرنا فإن زيارة الناس لذلك القبر إلى أيام المقريزي لدليل يعزز صدق القصة. فلا يسعنا مع هذا إلا أن نصدّق أنه قد وقع قتال في اليوم المذكور في الجزيرة على مقربة من مدينة (تنيس)، وأن رجلاً من الروم جاء من مدينة شطا وقاتل في ذلك اليوم فأبلى مع المسلمين بلاء حسناً حتى قتل.

---

(١) كاترمير الجزء صفحة ٣٣٩ وليس من الواضح هل يقصد المقريزي أن يقول إن ذلك البطل دفن في (تنيس) أو في (شطا) والظاهر أن الموضع الذي قتل فيه هو الذي دفن فيه وهذا أقرب لأن الوقت إذ ذاك كان في الصيف. ويجدر بنا أن نذكر هنا أن هذه القصة جاءت أيضاً في كتاب الواقدي وصورتها هناك قريبة من تلك الصورة (أنظر الكتاب صفحة ١٣٠ وما بعدها) وانظر ١٤٧ - ١٤٨ وهوامشها وصفحة ١٧٩ وصفحة ١٩٠.

(٢) حنا النقيوسي صفحة ٥٦١ و ٥٨٤.

وهذا التاريخ له قيمة كبرى ودلالة عظمى، فإنه يدلنا على أن مقاومة المصريين للعرب استطال أمرها في بلاد مصر السفلى وظلت إلى ما بعد فتح الإسكندرية. وإذا ذكر أن أهل (تنيس) وما يليها من البلاد الواقعة في إقليم تلك البحيرة كانوا من القبط الخلص، تنبض قلوبهم بما تنبض به قلوب القبط، عرفنا أن وقوع تلك الوقعة في ذلك الوقت دليل جديد على فساد رأيين طالما خدعا الناس وتقادم عليهما الدهر وهما يكفران الحقيقة، وهذان الرأيان هما أن مصر سلمت للعرب بغير قتال، وأن القبط رحبوا بالعرب ورأوا فيهم الخلاص مما كانوا فيه.

لقد كانت خيانة قيرس للإسكندرية سبباً في القضاء على آخر آمال المسيحيين بالفوز في مصر، ولكن من العجيب مع ذلك أن تدافع هذه البلاد المتفرقة في مصر السفلى جيوش الغزاة وتقاومهم نحو عام آخر. ففي هذه آية على أن أهلها كانوا قوماً من أولي النخوة والحفاظ بقوا على عهد دينهم وثبتوا عليه، ولكن التاريخ لم يجزهم بذلك ما يستحقونه من حسن الأحدوثة، بل لبث ينكرها عليهم زمناً طويلاً.

الفصل الثالث والعشرون

انقضاء حكم الروم بمصر

خروج الروم من مصر العليا ـ اللاجئون إلى الإسكندرية ـ ما فعله قيرس ـ ذهاب هيبته وخوفه على نفسه ـ ما حل به من الهم وموته ـ قصة الخاتم المسموم ـ بقاء الموظفين من الروم في أعمالهم ـ اختيار خلف لقيرس لولاية الدين ـ تجهم العاصمة ـ خروج جيش الروم من الإسكندرية وعلى رأسه القائد تيودور.

كانت بلاد الصعيد قد تم فتحها ولا سيما إلى حدود إقليم (طيبة) قبل أن تخبو نيران الحرب في بلاد مصر السفلى بزمن طويل، وكان فتح الصعيد على يد سرية أميرها خارجة بن جذافة، وأخرج الروم من بلاد وادي النيل (الصعيد) في عام ٦٤١ حتى لم يبق منهم فيه إلا قليل، وكان من بقي منهم ضئيل العدد خائر الهمة لا يرزأون المسلمين شيئاً ولا ينازعونهم السلطان. فلا تذكر الأخبار شيئاً من القتال في هذا الإقليم بعد ذلك. ولنا أن نقول إن بلاد الصعيد أذعنت للعرب بغير قتال بعد فتح الإسكندرية.

ولكن التاريخ يذكر شيئاً من أخبار الإسكندرية في المدة الباقية من الهدنة، وإنا موردوه هنا. قد رأينا أن المدينة قد ازدحمت بمن لجأ إليها من جميع أنحاء مصر، وقد جلوا عنها عند مقدم العرب إليهم، فلما عقد الصلح كان من شروطه أن جنود الروم ومن حل بالإسكندرية من الرومان لهم الخيار إذا شاءوا جلوا عنها بحراً وبراً. وأما القبط فلم يذكروا فيه بشيء. فلما رأى اللاجئون بالإسكندرية أن السفن تحمل كل يوم طوائف من الناس إلى قبرص

وردس وبيزنطة قلقوا وحنوا للرجوع إلى قراهم، فذهبوا إلى قيرس وطلبوا إليه أن يكلم لهم عمراً في ذلك، وكانوا يعرفون صلته الوثيقة بقائد العرب. ولكن الظاهر أن عمراً لم يبح لهم الجلاء، ولا عجب في أن يخيب سعي البطريق في هذا الأمر إذا عرفنا أن طلبه هذا كان قبل شهر مارس، إذ كانت الحرب لا تزال ثائرة في بعض قرى مصر السفلى. وكان أكثر اللائذين من مصر السفلى، فلو أبيح لهم الرجوع إلى قراهم لما أمن أن يقاتلوا جنود المسلمين بأنفسهم، أو أن يمدّوا المدائن التي كانت لا تزال مصرة على القتال ولم يفتحها المسلمون بعد.

غير أن قيرس آلمه ألا يجيبه عمرو إلى طلبه وكان ألمه من ذلك شديداً. فقد كان يطمع أن يستميل إليه القبط، ولعله كان يرمي من وراء ذلك إلى أن ينسيهم شيئاً من حقدهم عليه، فكان هذا الرفض الذي رفضه عمرو لطلبه ضربة شديدة أصابت سياسته في هذا الشأن.

والظاهر أنه يئس قبل ذلك أن يحتفظ بنفوذه عليهم، ذلك الذي أراد أن يقيمه بالاتفاق مع المسلمين ومعاونتهم. فامتلأ قلب المقوقس عند ذلك بالخوف وتوقع المصائب، وكان ذلك يزداد به كلما دنا أجل سلطان الروم في مصر. وكانت الأخبار التي ترد من القسطنطينية لا تبشره بخير، فقد آل أمر مرتينه وابنها إلى زوال، إذ نُحِّيا عن الحكم أو قتلا، وبويع لقنسطانز وحده بالملك في آخر نوفمبر من سنة ٦٤١. ونفى (بيروس) وكان صديقاً لقيرس، ويظهر أن قيرس هو الذي استماله إلى جانب مرتينه وحزبها. وأعيد (فلاجريوس) من منفاه وكان عدواً شديد العداوة (لقيرس). وحاول (فلنتين) أن يثور ثورة[1] جديدة، ولكنه أخفق إذ لم يواته الناس وأظهروا له الكراهة، ثم قبض عليه وجيء به إلى الامبراطور (قنسطانز) ليحاكم على أنه خرج على الدولة وسعى إلى غصب

(١) حنا النقيوسي صفحة ٥٨٢ ويقول زوتنبرج إن تلك الثورة الثانية كانت في سنة ٦٤٤ ولكن هذا التاريخ مستبعد الصحة فقد قال سبيوس إن الثورة حدثت في السنة الثانية من حكم قسطنطين (قنسطانز) وذلك معناه أنها حدثت في سنة ٦٤٢ ـ ٣ إلا إذا اعتبر أول السنة الثانية أول يناير سنة ٦٤٢ وهو ممكن وعلى كل حال فإن حنا النقيوسى واضح إذ يقول إن =

التاج. غير أنه أقسم أغلظ الإيمان على أنه لم يقصد إلى ذلك، وأنه إنما كان يجهز جيشاً يحارب به المسلمين. فقبل الملك اعتذاره وأعاده إلى ما كان عليه وتزوج من ابنته. فأراد (فلنتين) أن يظهر صدق نيته في الإخلاص للملك، فجعل يوقع إيقاعاً بكل من يظنه موالياً (لمرتينه) و(بيروس) وكان من هؤلاء (أركاديوس) كبير أساقفة قبرص، فإن فلنتين اتهمه بالخيانة وأنفذ جماعة من الجند للقبض عليه. فحال الموت دون ذلك، إذ مات (أركاديوس) فنجا من أيديهم.

ولكن ذلك الحادث كشف لقيرس عن الخطر المحدق به، فقد كان (أركاديوس) رجلاً لا تشوبه شائبة، قضى حياة في عيش القديسين ومع ذلك كان على وشك أن يؤتى به إلى القسطنطينية ليحاكم كما يحاكم أهل الريب، فما بالنا بقيرس وماذا عساه يفعل إذا هو أوخذ واتهم بمثل تلك التهمة، تهمة الخيانة؟ وقد اشتهر عنه اتصاله بمرتينه و(بيروس)، وكان الناس يعرفون ما اقترف من السعي في ضياع مصر. وكانت حاشية الملك وحزبها قد أدركوا عند ذلك أن ضياع مصر لم يكن من الهنات الهينات، فأخذ منهم الغيظ مأخذه، وحقدوا على من جر على الدولة ذلك الشر الوبيل، وما لطخ به شرفها من العار والخزي.

لا عجب إذا كان (قيرس) قد استولى عليه الهم وغرق في الحزن، إذ جاءت إليه الأخبار تترى من القسطنطينية بما كان من تلك الأمور، واجتمعت عليه المخاوف، فخشي على نفسه أن يأمر الإمبراطور بنفيه أو بقتله، وكان أمره إلى ذلك الحين نافذاً في الإسكندرية. ثم رأي نفسه وقد عجز عن محو أثر اضطهاده من نفوس القبط واستمالتهم إليه، ورأي أن الناس قد أنكروا سياسته للدين إنكاراً لا أمل معه في عودة الرضي عنه، ورأي سياسته في أمور الدنيا وقد أصابها العار من وراء انتصاره فيها. فأثقل كل ذلك نفسه وأسقم جسمه وألقى كل أطماعه وآماله وكأنها أحلام تبددت وأصبح لا يأمن حتى على حياته نفسها.

= «نصر فلنتين ورجوع سلطانه» بعد هذه الثورة كانا من أسباب حزن قيرس وهمه، ولما كانت وفاة قيرس في سنة ٦٤٢ كانت ثورة فلنتين لا بد حوالي شهر يناير من ذلك العام.

وكان كلما رأى الحلقات تتضايق حوله وتساور الهموم حياته، صحا إلى ما كان من أمره، وذكر ما قارف من الذنوب وما أصابه من الفشل والخذلان، فكان قلبه يؤنبه وندم على تفريطه في أمر مصر، وبكى على تضييعه لها بالدمع السخين[1]. وظلت الأكدار تغمره والهموم تحيط به حتى أصابه داء (الدوسنطاريا) في يوم (أحد السعف) ومات منه في يوم الخميس الذي بعده في الحادي والعشرين من مارس من سنة ٦٤٢.

ومن الواضح أن وفاته كانت وفاة طبيعية، وأن الموت قد عجل إليه لما أصابه من شقاء الهوان ومذلة العار. وقد ذكر حنا النقيوسي وفاته في موضعين: فقال في الأول إنه «أثقلته الهموم فمرض بالدوسنطاريا ومات منها». وقال في الثاني إنه «بكى بدمع لا ينقطع خوفاً من أن يصيبه ما أصابه من قبل وذلك هو النفي، وفيما كان غريقاً في حزنه مات كما جرت به سنة العالم»[2]، ولكنه في موضع منهما يوصف بأنه حزن لما أصاب مصر وما وقع بأهلها من ظلم العرب. وفي الموضع الآخر يوصف بأن أكثر ما أصابه من الحزن كان لرفض العرب شفاعته في أمر المصريين. وليس من سبب يحملنا على أن نشك في شيء مما جاء في هذا الوصف لآخرته على أنه قد تخلفت رواية قبطية يرجع عهدها إلى أيام ساويرس[3] وهي تصف موته وصفاً آخر. فتقول: «إن عمراً لما أخذ الإسكندرية واستقر الأمر على يديه في المدينة خاف الحاكم أن يقتله عمرو، وكان ذلك الحاكم رجلاً سيء الظن يلي أمر الدنيا والدين معاً في المدينة، فلما بلغ منه الخوف جعل في فمه خاتماً مسموماً فمات من ساعته». على أننا نعرف

---

(١) جاء في صلب الكتاب قول النقيوسي صفحة ٥٨٢ - ٣ «وكان أعظم سبب لحزنه أن رفض المسلمون ما طلبه منهم لمصلحة المصريين» ولكن عنوان ذلك الفصل أقرب إلى الأذهان وهو «موت قيرس الخلقيدوني ندماً على تسليم الإسكندرية للمسلمين» وهذا بلا شك يدل على ضرورة تصحيح نص الكتاب.

(٢) صفحة ٥٧٨ و ٥٨٢

(٣) نسخة المتحف البريطاني صفحة ١٠٦ أنظر كذلك كتاب (Pereira) حياة «الأنبا صمويل» صفحة ٥٨ وقد اقتبس فيه من تقويم حياة القديسين.

أن المقوقس لم يخش عمراً خشيته من الإمبراطور، ولكن القصة أظهرت في سياق عجيب وتأليف بديع أنه كان يخاف خوفاً شديداً، وأن ذلك عجل بموته. بقي شيء آخر مما له اتصال بقصة موت قيرس ويجدر بنا ذكره، فقد رأينا أن عمرو بن العاص كان يشتد في وقت الفتح[1] شدّة عظيمة في معاملة المصريين، ولهذا نجد المؤرخ القبطي يذكره كلما ذكره بالتقبيح والاستهجان على ما أثقل به قومه من الأحمال. ولهذا فإنه عند وصف الأيام الأخيرة من حياة البطريق نراه يقول إن «عمراً لم تكن في قلبه رحمة بالمصريين ولم يرع العهد الذي عقده معهم إذ كان رجلاً من الهمج»[2]. ونراه في موضع آخر[3] يصف ما وقع وصفاً مفصلاً فيحكي قصة رجل اسمه (ميناس) كان هرقل اختاره حاكماً لمصر السفلى فأقرّه العرب في مكانه، وكان رجلاً غراً جاهلاً يكره المصريين كرهاً شديداً. ويذكر رجلاً آخر اسمه (سنوده) أو (سنيوتيوس) أقرّه العرب على حكم الريف و (فيلوخينوس)[4] أقرّوه على حكم (أركاديا) وهي الفيوم. ويصف المؤرّخ القبطي هؤلاء الثلاثة بأنهم كانوا يكرهون المسيحيين ويوالون أعداءهم ويثقلون كاهلهم بالأحمال الباهظة. وكان القبط يكرهون على أن يحملوا للعرب مؤونة لدوابهم وطعاماً لأنفسهم كثيراً من اللبن والعسل والفاكهة والخضر وسوى ذلك من الأشياء فوق ما كانوا يؤدّونه من الطعام المعتاد وهو الضريبة التي كانوا يأخذونها من ثمار الأرض. وكان القبط يؤدّون كل ذلك تحت ظل خوف لا اطمئنان معه.

وهذا الوصف له شأن كبير من وجهين: الأول أن هؤلاء الحكام الثلاثة

---

(١) ما سبق في صفحة ٢٥٤

(٢) صفحة ٥٧٨

(٣) صفحة ٥٧٧

(٤) نجد بين مجموعة البردى التي عند الأرشيدوق (Rainer) كتاباً من ذلك الرجل (فيلوخينوس) حاكم أركاديا يذكر الضريبة التي كان يجب دفعها إلى خارجة في بابليون (قره باسك Fuhrer durch die Ausstellung صفحة ١٣٨ رقم ٥٥٣) وهذا دليل آخر على دقة أخبار حنا النقيوسي .

الذين سماهم المؤرخ كانوا أكبر حكام مصر بعد حاكم الإسكندرية، وكانوا من الروم الملكانيين أتباع قيرس، ولم يكن بهم عطف على القبط لا في دينهم ولا في دنياهم، وهذا يدل على أن الذين دخلوا في الإسلام لم يكونوا كلهم من القبط فإن بعض من أسلم من كبراء القوم كانوا من الروم، وإنا نكاد يداخلنا الشك في أمر المقوقس وأنه قد فعل ما فعل إذ كان يؤمن سراً بدين الإسلام. وأما الوجه الثاني فإنه قد ثبت أن عمرو بن العاص كان يعامل المصريين قبل فتح الإسكندرية وبعدها أشدّ المعاملة، وإذا كان الأمر كذلك فكيف يمكن أن يردّد قوم تلك الكلمة القديمة الشوهاء وهي أن القبط رحبوا بالعرب وفتحوا لهم ذراعيهم، فإن قول حنا النقيوسي في هذا الصدد يكفي وحده لهدم هذا الرأي وإظهار فساده. أما متأخرو المؤرّخين من العرب وهم الذين يأخذون بهذا الرأي فبين أمرين: إما أن يكونوا على خطأ فيما ذهبوا إليه، وإما أن يكون في وصفهم لعمرو تهمة شنيعة إذ يجعلونه مرتكباً لأعظم الجحود ومجازاة الإحسان بأشنع الإساءة. وكلما أنعم الإنسان النظر في تاريخ هذا العصر وجد أن قيرس لم يكن وحده الخائن الذي أوقع بالدولة الرومانية، وحسبنا دليلاً على ذلك ما كان من هؤلاء الحكام الثلاثة الذين سارعوا إلى افتداء دنياهم وسلطانهم بأن نزلوا عن دينهم، وجعلوا ولاءهم للإسلام ودولته، وانقلبوا على القبط بما صار في يدهم من السلطان الجديد يؤذونهم في دينهم ودنياهم. فالحق الذي لا مراء فيه أن الروم كان فيهم الكثيرون ممن يكيدون لدولتهم، وأن الكائدين كانوا من ناحية يوقعون بالقبط ومن ناحية أخرى يوالون العرب ويعينونهم.

لم يبق بعد ما ذكرنا إلا قليل من القول في وصف الشهور الستة التي مرت على الإسكندرية بين موت قيرس وبين دخول جنود العرب فيها. فإننا لا نعرف شيئاً أكيداً من حوادث هذه المدّة إلا اختيار خلف للمقوقس بطريقاً للمذهب الملكاني، ولم يحدث ذلك إلا بعد أن مضى نيف وثلاثة أشهر على موت المقوقس. ففي الرابع عشر من شهر يوليه[1] في عيد القديس (تيودور) ألبس

---

(١) يصحح المستر بروكس تاريخ زوتنبرج وهو على حق في ذلك فيجعله يوم ٢٦ يوليه.

الشماس بطرس لباس البطرقة وجلس على العرش الذي خلا من آخر بطارقة الإسكندرية تحت حكم الروم . ولعل ذلك الإبطاء كان لإستشارة القسطنطينية ، أو لعله كان لتردّد أهل الدين في قبول تلك الولاية بعد أن انشقت الولاية الدينية في مصر عن السلطنة الدينية في الإمبراطورية ، وأصبح أمرها مخوفاً مضطرباً ، منذ يئس الناس من رجوع الأمر إلى الدولة البيزنطية . أما فلنتين وجيشه الذي كان يملأ فمه بذكره ، فلم يغن عن مصر شيئاً ولم يستطع أن يخطو خطوة في سبيلها ، مع أن أهل مصر كانوا قد أخذوا يعرفون بطلان أحلامهم التي كانوا يمنون بها أنفسهم من الاطمئنان إلى حكومة العرب واستقرار الأمور معها ، وثبوت ما يطلب منهم فيها من ضرائب لا تزداد عليهم : إذ جاء أن أهل البلاد جميعاً كانوا يئنون من شقائهم في حكم العرب ، وكان أجل المصاب ما أصاب مدينة الإسكندرية من ذلك ، فقد فسد حال التجارة التي كانت تدر الخير على أهلها ، وخرج منها جماعة من أغنياء أعيانها وتجارها عوّلوا على الهجرة والنزوح عنها ، فصار عبء الضرائب إلى كواهل من بقي في المدينة من الناس فأبهظها . وأخذ الناس يحسون ما في دخول العدوّ في بلادهم من ذل لهم وتضييع لملتهم ، ولم تجدهم في ذلك ألفاظ معسولة وأقوال ناعمة كان قيرس يزجيها إليهم .

فكان الهم والغم يظلان المدينة في الأسابيع الأخيرة من مدّة الهدنة ، وكان كثير من المنازل قد خلا من أهله ، وهدأت ضجة الارتحال من مراسي المدينة بعد أن تحملت سفن يتلو بعضها بعضاً بالنازحين من الروم ومتاعهم وأثاثهم ، وسارت بهم إلى الشمال إلى حيث لا عودة . ولم يبق إلا أسطول كبير يتجمع في مرفأ الإسكندرية ليحمل من بقي من جنود الروم . والظاهر أن الذي كان يقوم على ترحيل جنود الروم من بلاد مصر السفلي إثنان من القادة وهما (تيودور) الذي أصبح حاكم مصر بعد موت قيرس ، و(قسطنطين) الذي أصبح القائد الأعلى لجيش الروم بعد (تيودور)، وكانا يقومان به بالاتفاق مع العرب[1] .

---

(١) انظر زوتنبرج (صفحة ٥٨٣ هامش ٢) وهو على حق فيما ذهب اليه من أن وجود تيودور =

وكان النيل عند ذلك قد أخذ يزداد ، وصارت الترع صالحة لسير السفن ونقل الأشياء ، ولهذا السبب وقع الاختيار على ذلك الوقت لخروج الروم . فما أن حل حتى ركبت بقية جيش الروم في السفائن مع (تيودور) و (قسطنطين) ، وهبطوا نحو الإسكندرية ، وعند ذلك أطلق سراح من كان في يد العرب من الرهائن الذين أودعوهم حصن بابليون ، أو لقد ذهب العرب بهم حتى لحقوا بأصحابهم في العاصمة[1].

دار الفلك دورته وعاد عيد الصليب ، وكان من عجائب المقدور أن اتفق في ذلك اليوم الرابع عشر من سبتمبر من العام المنصرم مجيء المقوقس رئيس الأساقفة الخائن في رجعته إلى مصر ، ثم عاد اليوم بعد عام ليشهد آخر مشهد من زوال ظل السلطان المسيحي عن مصر . فكانت صلاة إعلاء الصليب تتردّد أصداؤها في الكنيسة ، في حين كانت السفن تتجهز آخر جهازها في الميناء ويؤذن لها بالسير . فما طلع اليوم الثالث بعد هذا[2] وهو اليوم السابع عشر من

= وقسطنطين في الداخل كان ناشئاً عن الهدنة ولم يذكر في ذلك الوقت شيء عن تجدد القتال وأما زوتنبرج فإنه لا يبدى أي رأي في سبب غيابهما عن الإسكندرية ولعل السبب الذي ذكرناه في متن كتابنا هذا فيه كفاية .

(١) من العجيب إطلاق سراح الرهائن قبل دخول الإسكندرية ولكن ذلك يدل على قوة المسلمين وضعف الروم في ذلك الوقت وأغلب الظن أن أكثر جنود الروم كانوا قد جَلوا عن البلاد قبل ذلك .

(٢) يبرهن المستر بروكس على أن عبارة «بعد عيد الصليب» التي وردت في ترجمة زوتنبرج لديوان حنا النقيوسي قد جاءت في غير موضعها وإني موافق على رأي المستر بروكس في مجمله ولكنا نرى أن السطرين التاليين قد وضعا موضعاً خطأ وأنهما يجب أن يقدما إلى أول الفقرة قبل قوله (ثم أن تيودور) والسطران هما من أول قوله «في العشرين من شهر (حمله)» . . . الى قوله «مقر الرئاسة الدينية» واذا تم ذلك لم يكن ثم موجب لتغيير موضع قوله «بعد عيد الصليب» بل إن ذلك يسير مع القول التالي سيراً طبيعياً وهو قوله «في اليوم العشرين من شهر مسكرم» .

سبتمبر حتى كان أسطول (تيودور) يحل قلاعه ويرفع مراسيه ويسير إلى قبرص[1] بمن كان عليه من فلول جيش الروم يرفرف عليهم الأسى . ولم تبق بعد ذلك إلا أيام قلائل لأهل المدينة ، وما كان أشقاهم ، ليصلحوا فيها من أمورهم . فإن الهدنة انقضى أمدها في اليوم التاسع والعشرين من شهر سبتمبر إذ مضت أشهرها الأحد عشر ، وفتحت في ذلك اليوم أبواب المدينة فدخلها عمرو يقود من معه من شعث جنود الصحراء ، فساروا بين صفوف مما كان في الإسكندرية العظمى من أعمدة براقة وقصور منيفة ، وانتهى بذلك حكم دولة الروم في مصر .

(١) جاء في السيوطى أنه قد كان في المدينة ٠٠٠ , ٢٠٠ من رجال الروم وكان منهم ٣٠٠٠٠ من الجنود هربوا في مائة سفينة كبيرة بكل ما كان معهم من المتاع الذي أمكنهم حمله وأما من بقي منهم فقد دفع الجزية وسياق القول يتفق بعض الاتفاق مع رأي من يقول إن هذا القول يقصد به فتح الإسكندرية في المرة الثانية ولكن أكثر الأدلة على غير ذلك وأنه ليظهر من ثنايا كلماته أن المقصود هو الجلاء عن المدينة صلحاً ولنذكر أن الصلح قد نص على أن الروم كان لهم أن يحملوا معهم متاعهم في حين أن الفتح في المرة الثانية لم يدع متسعاً من الوقت لمثل ذلك وعلى أي حال فليس من الغريب أن يكون ٣٠٠٠٠ من الجنود قد سافروا معاً في وقت واحد ولو أن عدد السفن المذكورة كاف لنقلهم ولا بد أنه عندما انتهى أمر الجلاء كان عدد الجنود قد قل قلة عظمى والظاهر أن السيوطي نقل خبر هذا الجلاء عن المقريزي وهو يروي عن أبي قابيل.
وقد جاء أن السفن المائة حملت الروم بأموالهم ومتاعهم وأضيف إلى ذلك أن ٦٠٠٠٠٠ من الناس بقوا في المدينة ودفعوا الجزية سوى النساء والأطفال ولا بد أن هذا فيه مبالغة.

الفصل الرابع والعشرون

وصف الاسكندرية عند الفتح

رسالة عمرو إلى الخليفة عمر ـ ما بهر الأبصار من سنا الإسكندرية ـ أعمدتها ـ صهاريجها ـ البروكيون ـ كنيسة القيصريون ـ صفتها وتاريخها ـ مسلات كليوبترة ـ الخلط بين المسلات والمنارة ـ جعالين البرونز والزجاج ـ إثبات شهادة العرب ـ وصف السرابيوم ـ رسمه الأول وبناؤه ـ مكان المكتبة ـ عمود دقلديانوس ـ أقاصيص العرب ـ الملعب (الأمفيتياتر) ـ المنارة ـ ما جاء عنها في أخبار القدماء والعرب ـ بناء البرج ـ المرآة العجيبة ـ قصة تخريبها ـ هدم المنارة ـ بناء مآذن القاهرة على رسمها .

أرسل عمرو إلى الخليفة كتاباً مشهوراً يصف فتح الإسكندرية ، والرواية المتداولة عنه هي « لقد فتح الله علينا مدينة من صفتها أن بها أربعة آلاف قصر ، وأربعة آلاف حمام ، وأربعمائة ملهى ، واثني عشر ألف بائع للخضر ، وأربعين ألفاً من اليهود أهل الذمة »[1]. ونرى أن هذه الأعداد فيها مبالغة ، ولعلها لم تكن كذلك في الكتاب الذي بعث به عمرو بل نقلها النساخ خطأ[2] . ومع ذلك فإنها

---

(١) إذا قرأنا ذلك ٤٠٠ قصر وحمام و ٢٠ ملهى و ١٢٠٠ بائع للخضر و ٤٠,٠٠٠ يهودي لم يكن في التقرير شيء غير ممكن. فقد ذكر زكريا المتليني (وهو دقيق الإحصاء) أن رومه كان بها ١٧٩٧ بيتاً للعظماء (أو قصراً) و ٩٢٦ حمام (صفحة ٣١٧ ـ ٨) وقد جاء نص كتاب عمرو في ابن عبد الحكم وفي ابن بطريق والمقريزي ومكين. وقد ذكر المقريزي مبالغة على عادته رواها عن أبي قابيل وهي أنه كان بين الحمامات ١٢٠٠٠ بناء بعقد وأن أصغرها كان فيه ١٠٠٠ غرفة للجلوس.

(٢) الإصطخري (BibI. Geog. Arab. Ed. de Coeje) الجزء الأول صفحة ٥١ .

تدل دلالة واضحة على ما كان للمدينة من الأثر العظيم في نفوس الفـاتحين ، وقد أدهشتهم عظمها وفخامتها ، ولكن لقد برهم فوق ذلك منها تألقها وسناها ، فقال أحد من وصفهـا . « إن الإسكندرية مدينة يكثر المرمر في أرضها وبنائهـا وعمدها » . وقال آخر إن المدينة تبدو بيضاء لامعة في النهار والليل[1] . وقال في مـوضع آخـر إن أهلها جميعـاً كانـوا يلبسون الثيـاب السود والحمـر لأن أرضها وبناءها من المرمر الأبيض وكان تألق الرخام سبباً في اتخاذ الرهبان السـواد في لباسهم . وكان من المؤلم أن يسير الإنسان في المدينة بالليل فإن ضوء القمر إذا وقع فيها على الرخام الأبيض جعلها تضيء حتى كان الحائك يستطيع أن يضع الخيط في الإبـرة بغير أن يستضيء بمصبـاح وما كـان يستطيـع أحد أن يـدخل المدينة إلا إذا اتخذ غطاء لعينيه يقيهما بهر الطلاء والمرمر . وقـال مؤرخ عربي آخر[2] في القرن العاشر إن الناس كانوا يتخذون ستراً من الحرير الأخضر يغطون به الطرق يتقون بذلك وهج الضوء على الرخام[3] .

وقال المؤرّخ نفسه إن الطرق كلها كانت تكتنفها العمد وكان هذا ولا شك صحيحاً في الطريقين العظيمين الذين وصفناهما من قبل وهما يقطعان المدينة من أطرافها ، فكان أحدهما من أوّل المدينة في الشرق إلى آخرها في الغـرب

---

(١) السيوطي (حسن المحاضرة) وكان رهبان سرابيس يلبسون السواد ولكن من المشكوك فيه أن يكون هذا هو السبب (انظر كتاب الدكتور Botti صفحة ٣٧ هامش ٢) . (Fouilles a la Colonne Theodosienne)

(٢) المسعودي (صفحة ٤٢٩) .

(٣) يظهر الأثر العام الذي أحدثته الإسكندرية في نفوس المسلمين مما جاء في ابن دقمـاق (الجزء الخامس صفحة ١١٧) فقد جاء فيه أن عبد الملك بن جريج قال إنه غزا ستين مرة وإن الله إذا مدّ في أجله شهراً حتى يصل إلى شواطىء الإسكندرية كان هذا الشهـر أعز عليه من الغزوات الستين التي غزاها . وقال في صفحة ١١٨ إنه قد جـاء في التوراة أن الإنسان إذا طاف حول الإسكندرية في الصباح جعل الله له تاجاً مـرصعاً بـاللؤلؤ معطراً بالمسك والكافور يضيء من الشرق إلى الغرب .

يصل بين باب الشمس وباب القمر[1] ، وكان الثاني يجري في المدينة من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ، وكانا يتلاقيان ويقطع أحدهما الآخر في ميدان فسيح به الحدائق وتحيط به القصور الجميلة . وكان لكثير من القصور في وسط المدينة حدائق غناء فقد قال السيوطي والظاهر أنه يرى ذلك عن ابن عبد الحكم[2] إن الاسكندرية كانت تشمل مدائن ثلاث : إحداها إلى جانب الأخرى وكان لكل منها سور قائم بها وحول الجميع سور يحيط بها . ولعله يشير بهذا إلى الأحياء الثلاثة : حي المصريين ، وحي الروم ، وحي اليهود؛ ولكنا نشك في دقة هذه الرواية وقد روى عبد الله بن ظريف أن المدينة كان بها سبع قلاع وسبعة خنادق ، وكانت قلعة الفرس بلا شك تعدّ إحدى عجائب الاسكندرية .

وما كانت دهشة العرب من رسم المدينة بأعظم من دهشتهم مما كان تحت أرضها من المباني ، فقد رأوا بها عدداً عظيماً من الصهاريج العجيبة تحت الأرض كان لبعضها طبقات يلي بعضها بعضاً أربعة أو خمسة وكان في كل طبقة منها عدد عظيم من الحجرات والأعمدة ، حتى لقد قال السيوطي إن الاسكندرية مدينة قائمة على مدينة ، وإنه ليس في البلاد مثلها على وجه الأرض . وكان بها عدد عظيم من الأعمدة لم ير مثلها في موضع آخر في علوّها وعظم حجمها .

---

(١) يخطىء بعض المؤرخين في وصف موضع هذين البابين فيقول إنهما كانا في شمال المدينة وجنوبها ولئن كان ثمت شك في ذلك فإن قول حنا النقيوسى كفيل بإزالته فهو قول صريح (صفحة ٤١٥) إذ يقول إن (أنطونيوس بيوس) بنى (باب الشمس) في الشرق و (باب القمر) في الغرب والظاهر أن أميلنو كان من بين الذين أخطأوا إذ قال «وكان باب الشمس في جنوب المدينة بقرب الخليج الذي يأتي من النيل (Geog Copte) صفحة ٣٢ وقد كان باب الشمس هو باب عين شمس (انظر الكتاب السابق صفحة ٤٢) ولكن الطريق إلى مدينة عين شمس يسير من الباب الشرقي ولم يكن يخرج من الباب الجنوبي طريق واضح اللهم إلا طريق للسفن ومقالة أميلنو عن الإسكندرية قصيرة ولا تشفي غلة .

(٢) قال حنا مسكوس (إذ أنها كانت جنات في وسط المدينة في بيوت العظماء) * (٣٣) (مسارح الأرواح فصل ٢٠٧).

وكانت هذه الحجرات الدفينة تستخدم لخزن المياه توصل إليها في قنوات تجري من الترعة الحلوة التي كانت تشق المدينة في حي المصريين ، وكانت تملأ في أوان الفيضان فيشرب الناس منها مدة الحول[١] .

وكان أفخم أحياء أنحاء المدينة فيما مضى جهة اسمها (البروكيون)، وكان إلى شمالها ميناء الإسكندرية وإلى جنوبها الشارع الأعظم الآتي من باب الشمس إلى الحدائق الوسطى بالمدينة . ولا شك قد هدم أورليان جانباً عظيماً من ذلك الموضع ، ولكنا نظن أن أخبار ما حل به من التخريب فيها مبالغة[٢] . وما كانت آثار ذلك التخريب لتبقى فيه بغير أن تصلح ويعاد بناؤه إلى سابق عهده . وعلى أي حال فقد كانت فيه قصور البطالسة والمقبرة الكبرى التي كانت فيها جثة الاسكندر في غشاء من الذهب ، وكان فيه المتحف وتتصل به مكاتبه العجيبة التي كانت مقرّ العلوم في العالم أجمع . وكان في ذلك الحي إلى الشرق معبد مكشوف اسمه (التترابيلوس)، وهو إيوان به أربعة صفوف من الأعمدة تحيط به . وقيل إن الإسكندر دفن هناك النبي (أرميا) فكان ذلك الموضع مشهداً يحترمه الناس احتراماً بالغاً[٣] . وإلى جانب ذلك المشهد كنيسة

(١) بقيت بعض هذه الصهاريج إلى الآن أنظر المقال الذي عنوانه «صهاريج الاسكندرية» للدكتور (بوتى) في مجلة جمعية الآثار بالاسكندرية رقم ٢ سنة ١٨٩٩ صفحة ١٥ وما بعدها وبها بعض رسوم هامة. وقد ذكر (قيصر) هذه الصهاريج (De Bell. Civ. IV) وذكر القناة الموصلة إليها.

(٢) أميانوس مرقلينوس XXIII16 ويفهم منه أن المدينة فقدت أكبر جزء فيها وهو (البروكيون) عقب التخريب الذي أحدثته الثورات في وقت أورليان ولكن حنا النقيوسي يدل دلالة قاطعة على أن مساحة المدينة لم تقل تلك القلة المذكورة وأن الأسوار الشرقية كانت لا تزال على عهدها من القوة. وقال (أنطونيوس مارتير) وقد زار المدينة قبل الفتح بقرن (حوالي سنة ٥٦٥ للميلاد) «إن الإسكندرية مدينة عظيمة» وما كان ليذكر ذلك الوصف عنها إذا كان أجمل حي بها وأجلها قد تهدّم وتخرّب (Pal. Pil. Text Soc) (الجزء الثاني صفحة ٣٥).

(٣) حنا مكسوس في «مسارح الأرواح» الفصل ٧٧ وقد نقل أميلنو في (Geog Copte) صفحة ٢٩ عن نسخة خطية قبطية تذكر أن التترابيلوس كان في وسط المدينة ويستنتج من ذلك أنه =

القديسة (ماريا دروثيا) بناها (أولوجيوس)، وإلى شرقها فيما يلي الأسوار على مقربة من البحر الكنيسة الكبرى كنيسة القديس (مرقص)[١]، وكانت عند ذلك لا تزال ماثلة وفيها مدفن من المرمر به جثمان ذلك الرسول . وقد قال (أركولفوس)[٢] « إذا أتيت من بلاد مصر ودخلت المدينة ألفيت عند جانبها الشمالي كنيسة كبرى فيها جثمان مرقص الإنجيلي وترى قبره أمام المحراب في الجانب الشرقي وقد أقيم فوقه شاهد من المرمر »، وكان في الحي نفسه كنيستا القديسين (تيودور) و(انستاسيوس)[٣].

ولم تكن كنيسة القديس مرقص في القرن السابع أكبر كنائس المدينة وأعظمها شأناً ، بل كان أعظم منها كنيسة القيصريون ، وكانت في الحي نفسه عند ثنية المرفأ الأعظم وقد بلغت من عظم الشأن أن كادت تحل محل الكنيسة الكبرى ، فقد كان بناؤها جليلاً ولها مسلتان قديمتان في فنائها ، فكانت تشرف فوق أسوار المدينة أظهر الأشياء التي يراها الرائي أول واهلة في صدر ما يراه[٤]

= كان في الميدان الأعظم ولكن هذه العبارة مبهمة لا يمكن أن يستند إليها مثل هذا الاستنتاج.

(١) يقول حنا النقيوسي (صفحة ٥٢٤) إنها كانت قريبة من البحر (وفي صفحة ٥٤٨) إنها كانت بقرب باب من أبواب المدينة والظاهر أنه قد كان بالإسكندرية كنيسة أخرى بهذا الاسم (انظر أميلنو (Geog, Copte) صفحة ٣٧ ـ ٨) .

(٢) كان (Arculfus) في مصر حوالي سنة ٦٧٠ للميلاد (Pal. Pil. Text. Soc) الجزء الثالث صفحة ٥٢ وقد اضمحلت المدينة بعد مائتي عام حتى أن (برنار الحكيم) حوالي سنة ٨٧٠ يقول: «ووراء الباب الشرقي دير القديس مرقص ويعيش الرهبان في تلك الكنيسة التي كان فيها مدفنه ولكن البنادقة أتوا في البحر وحملوا إلى جزيرتهم (الكتاب نفسه صفحة ٥) وفي سنة ١٣٥٠ كانت الكنيسة التي استشهد فيها القديس مرقص «على نحو ميلين شرق الإسكندرية» (انظر الكتاب نفسه الجزء السادس صفحة ٣٣ ومن هذا يتضح مقدار اضمحلال المدينة .

(٣) حنا النقيوسي ٥٤٣ .

(٤) وقد أثبت هذا استرابو وفيلو وبليني انظر مقالاً هاماً للمنسنيور Kyrillos II وعنوانها (هيكل القيصريون) في مجلة الجمعية الخديوية الجغرافية المجموعة الخامسة رقم ٦ فبراير سنة ١٩٠٠ (القاهرة ١٩٠٠) وقد أخذنا كثيراً من الأخبار عن هذه المقالة. قال أميلنو وقد

إذا أتى من الميناء داخلاً مما يلي المنارة . فكانت في هذه الجهة لها مظهر يعدل مظهر (الاكروبولس) والسرابيوم وعمود (دقلديانوس) في نهاية المدينة من الجانب الآخر . وكانت كنيسة القيصريون في مبدأ أمرها معبداً للأوثان بدأت كليوبترة في بنائه إعظاماً لقيصر ثم أتمه أغسطس . وإنه لجدير بنا أن نرى ما جاء من صفته في كتاب (فيلو) إذ قال[1] « وكان هذا المعبد معبد قيصر ، الذي يعرف في الاسكندرية باسم سبستيان (أغسطس) ، أثراً لا مثيل له . وكان على ميناء فسيحة ، عظيم البناء عجيب الصناعة عالي السمك يعدّه الناس علماً من أعلام البحر ، وقد زانته أبدع الصور والتماثيل ، تقدم إليها جليل الهدايا والقرابين . وكانت تجمله كله حلية من الذهب والفضة ، فكان نموذجاً في جمال تنسيقه وإبداع أجزائه التي كان يشملها من متاحف ومكتبات وقباب وساحات وأبهاء ومماشي وخمائل من أشجار ظاهرة ، قد وضع كل شيء في موضعه اللائق به ، وأبدعت فيه يد الصناعة فأبرزته في حلة أنيقة من الرونق ، بذل في سبيلها المال لم يدخر باذله ثميناً ولا غالياً . وكان فوق ذلك جلاء عين أهل الأسفار في البحر إذا وقعت عليه في روحاتهم وغدواتهم » .

وقال فيه حنا النقيوسي « إنه القصر الجليل » . وقد غيره قسطنطين الأكبر فجعله كنيسة مسيحية وأهداه إلى اسم القديس ميخائيل[2] . ولكنه كان عند

= نسي ما قاله المؤرخون العرب والقدماء جميعاً هذا القول العجيب «ولا ندري أين موضع القيصريون فإنه لا يوجد وصف لذلك مطلقاً» (Geog. Copte) صفحة ٣٢ ولكن ما دام موضع المسلتين معروفاً فإن موضع القيصريون لا يمكن أن يشك فيه كما سنرى فيما بعد.

(١) رسالة فيلو من يهود الإسكندرية إلى (كاليجولا) في كتاب (يوسفوس) انظر طبعة السير (R. L'Estrange) (لندن سنة ١٧٠٢) (fol. P. 1087) .

(٢) جاء في تاريخ القديسين عن ١٢ بؤونة (عيد الملك الأكبر ميخائيل) قول عجيب وهو «والسبب الذي من أجله يقيم عيد القديس ميخائيل في هذا اليوم هو أنه قد كان بالإسكندرية معبد كبير بنته كليوبتره إبنة بطليموس للاله زحل (ساتورن) وكان عيده يقام هناك في هذا اليوم وهو ١٢ بؤونه وبقيت هذه العادة بين الناس إلى أيام البطريق الإسكندر =

الفتح العربي لا يزال محتفظاً باسمه الأول «القيصريون» ولم يصر كنيسة بطريقية عظمى إلا حوالي سنة ٣٥٠ للميلاد ، ولكن في سنة ٣٦٦ في أيام أنستاسيوس جاء جمع عظيم من قوم هائجين ثائرين من الوثنيين وأتباع المذهب الآري المسيحي ، ودخلوا فناءها ثم اقتحموها وأحرقوا المذبح والعرش وما كان فيها من النمارق والستر ، وسوى مما وصلت إليه أيديهم ، ولئن كان قد بقي شيء من المكتبات التي ذكرها فيلو فإنها لا بد قد أحرقت عند ذلك . ثم أعيد بناء الكنيسة وأصلحت في عام ٣٦٨ ؛ وإن الذين يقرأون قصة (هيباشيا) يعلمون أنها وقعت في كنيسة القيصريون فيما بعد هذا العصر بنحو خمسين عاماً . فإن غوغاء المسيحيين وعامتهم ممن أعماهم التعصب للدين[1] أتوا بتلك الفتاة الحكيمة فمزقوا جسمها تمزيقاً ، فكان وثوبهم هذا وما فيه من خروج وعنف جديراً بالمعبد القديم معبد زحل (ساتورن). وقد جاء في الأخبار أن تيموثي إيلوروس فر إلى بئر المعمودية في هذه الكنيسة لاجئاً إليها بعد نحو خمسين سنة

= في أيام الامبراطور قسطنطين) واستمر التقويم بعد ذلك يقول إن الاسكندر عول على هدم ذلك الوثن ولكن الناس أبوا أن يتركوا ما اعتادوه قديماً ورفضوا أن يبطلوا عيدهم فيه فرأى البطريق أن يبقي العيد وأن يبقي الناس على أجازتهم في البطالة ذلك اليوم وأن يضحي فيه بالأضاحي ويطعم الفقراء لوجه الله الحق بدل أن يكون ذلك قرباناً للوثن وأبدل اسم اليوم فجعله باسم القديس ميخائيل فقبل الناس رأيه وهدموا الوثن ولكن اسم القيصريون بقي علماً على الموضع وبقيت الكنيسة إلى أن جاء المسلمون فهدمت. وهذا ختام ما جاء في ذلك الخبر. ويقول سعيد بن بطريق إنه قد صنع صليب من البرونز الذي كان التمثال مصنوعاً منه ثم قال «إن الكنيسة دمرتها النيران عندما أتى أهل الغرب وأغاروا على الإسكندرية وخربوها» وهذا القول غامض ـ وقد ظل القبط على عادتهم في إقامة عيد في هذا اليوم ينحرون فيه القرابين. (أنظر كتاب Pat. Gr. Migne الجزء ١١١ المجموعة ١٠٠٥)

(١) أخذنا هذا الخبر عن سقراط وقد كتبه بعيد الحادثة (Hist. Eccl. VII) صفحة ١٣ ـ ١٥ ، وقد ذكر حنا النقيوسي (صفحة ٤٦٤ ـ ٦) خبراً يتهم فيه هيباشيا بالسحر ويوافق على قتلها ولكنه يوضح أنها عريت في القيصريون ثم جرت في الشوارع حتى ماتت ثم أحرقت في موضع اسمه (الفينارون).

من ذلك العهد فدخل إليه الناس وأخرجوه منها ثم نفـوه ، فلما عاد (تيمـوثي) إلى الاسكندرية بعد أن أقام في منفاه عشرين عاماً « لقيه الناس في موكب حافل تـوقد فيـه المشاعـل وتنشد فيـه آيات المـديح يـرتلها قـوم مختلفـو الأجنـاس واللغات » فسار في مـوكبه هـذا يحدوه النصـر إلى أن بلغ تلك الكنيسة عينهـا كنيسة القيصريون[1] .

ولم يبق شيء من وصف مـا في تلك الكنيسة من داخلهـا ، ولكن الذي لا شك فيه إنها كانت على طراز الكنائس البيزنطية (البازليكية)، وأنها بقيت على ما كان بها من الحلية الجليلة والزينة البديعة . وكان آخر ما عهدته تلك الكنيسة من مشاهد المجد في عهد الإمبراطورية صلاة الفرح بعودة قيـرس ، ولا بد أن خطبته إذ ذاك كان لا يزال يذكرها من شهد دخول عمرو بجيشه إلى المدينـة . ولكنها لم تبق مدة طويلة بعد فتح العرب ، فلم يبق إلا اسمها في صورته العربية وهو القيصرية . وكان يسمي به في أول الأمر نوع من القصور أو الأبنية العـامة ، ثم وصل إلينا بعد أن دخل على دلالته تغيير[2] .

وقد عجب العرب أشد العجب من المسلتين من الصخر المحبب الأحمر (الجـرانيت) اللتين كانتـا في صـدر الكنيسـة ، وكـان مؤرخـوهم يكثـرون من

---

(١) ديوان رذريا المتليني (صفحة ١١٠) ويذكر زكـريا «الكنيسـة العظمى» هنـا وكذلـك في صفحة ٦٧ ولكنه في صفحة ٦٤ يقول صراحة «وكـانت الكنيسة العـظمى تسمى كنيسة قيصـريون» وهـذا يدل على أن القيصـريون هي «الكنيسـة العـظمى» والتـرحيب بعـودة (تيموثي) يشبه الترحيب الذي كان بعودة قيرس شبهاً عجيباً وذلك عند عودته من منفاه.

(٢) لا يزال الطريق الأعظم في مدينة عربية يسمى الآن «القيصرية» وقد جاء في كتاب شمس الدين المقدسي ما قد يفهم منه أن المسلمين كانوا في أول الأمر يطلقون ذلك اللفظ على مساجدهم الكبرى (Bibl. Geog. Arab. Part III) (صفحة ١٩٧) وقد كان يطلق بلا شك للدلالة على الموضع المربع الذي تحيط به الأعمدة وقد يكون ذلك الموضع مسجداً وقد يكون والاستعمال الحديث لهذا اللفظ مأخوذ عن الأمر الأخير (انظر أبا صـالح صفحـة ١١٦ هامش ١) والطريق الأعظم هو بـالطبـع الموضـع الذي يجـري فيه البيـع والشراء والتبادل في المدن الشرقية.

وصفهما ، فقال اليعقوبي (وهو من كتاب القرن التاسع) إنه قد كان هناك مسلتان من الحجر الملون تحتهما قاعدتان من البرونز على شكل الجعل وعليهما نقوش قديمة[١] . وقال مثل ذلك ابن رستاه (وهو من كتاب القرن العاشر) فوصف أثرين كل منهما على شكل منارة مربعة تحتهما قاعدتان على صورة العقرب من النحاس أو الشبه ، وعليهما نقوش ، وقيل إن صورة العقرب قد صهرت بنار أوقدت تحتها فوقع الأثران[٢] . وجاءت قصة في كتاب ابن الفقيه (وهو ممن كان يعيش في أيام ابن رستاه) وفي هذه القصة بدأ الخطأ العجيب الذي خلط بين هاتين المسلتين وبين (الفاروس) وهي التي كان العرب يسمونها منارة الإسكندرية ، قال إن منارة الإسكندرية قائمة في البحر على قاعدة من الزجاج على شكل الجعل . وقال : ولها عمودان قائمان على قاعدتين إحداهما من الزجاج ، والأخرى من الشبه ، وكانت قاعدة الشبه على صورة العقرب وقاعدة الزجاج على صورة الجعل[٣] . فما أن أتى عهد المسعودي حتى كانت هذه القصة قد اتخذت صورة ثابتة وأصبحت خرافة يبتهج العرب بذكرها ، فقال المسعودي : وكانت المنارة قائمة على أساس من الزجاج له صورة السرطان ، وكان بناؤها على لسان من الأرض بارز في البحر ، وكان على رأسها صور من معدن الشبه : إحداها تشير بيمناها إلى الشمس وتدور معها في السماء ، فإذا غربت الشمس وضعت يدها ، وصورة أخرى تشير إلى البحر في الجهة التي يأتي منها العدو ، فإذا ما اقترب من المدينة خرج منها صوت هائل يسمع على بعد ثلاثة أميال فينذر أهل المدينة بالخطر[٤] .

---

(١) (Bibl. Geog. Arab. part VII) صفحة ٣٣٩

(٢) نفس الكتاب صفحة ١١٧ ، انظر كذلك (Athenoeum يوليه سنة ١٨٨٧ وما كتبه De Goeje) تعليقاً على هذه العبارة.

(٣) نفس الكتاب الجزء الخامس صفحة ٧٠ و ٧١

(٤) قد آثرنا ترجمة ما جاء في الأصل الانجليزي لمخالفته لنص المسعودي ونظراً لأهمية هذه الفقرة قد أتينا بعضها من كتاب المسعودي (مروج الذهب الجزء الأول صفحة ٢٣٢ طبعة المطبعة البهية بمصر) قال «وإن الذي بناها جعلها على كرسي من الزجاج على هيئة =

ومن المعلوم أن (الفاروس) أو المنارة كانت أثراً غير المسلتين وهي بناء متين من الحجر شاهق العلو ، وأنه لمن المضحك أن يتصوّر أحد أن بناءها العظيم يقوم على كرسي من الزجاج على هيئة السرطان ، ومع ذلك فإنه مما يسر النفس أن يصل الإنسان إلى أصل هذه الخرافة التي تظهر في مبدأ الأمر سخيفة لا معنى لها . فإنها إنما نشأت من سوء فهم لما ذكره مؤرخو العرب الأوائل من الحقائق التاريخية وتحرّوا في ذكره الدقة العظيمة . فلا شك في أن المسلتين اللتين كانتا أمام كنيسة (القيصريون) عند دخول عمرو في الاسكندرية كانتا على قاعدتين على هيئة السرطان كما وصفهما العرب الأوائل . فقد قام الدليل على هذا عند نقل إحدى المسلتين إلى نيويورك ، إذ وجد أن هذا الحجر الهائل كان قائماً على أربع صور من المعدن على هيئة السرطان ، وكانت هذه تفصل بين المسلة وبين القاعدة . وكانت القاعدة من قطعة واحدة من صخر (الجرانيت) وكان من تحتها ثلاث طبقات مدرجة من الحجر. ولم يكشف سند نقل المسلة إلا تمثال واحد من التماثيل الأربعة التي على هيئة السرطان ، لأن القاعدة كانت قد مضى عليها زمن طويل وهي مدفونة تحت الأرض . وكان ذلك التمثال نفسه

= السرطان في جوف البحر وعلى طرف اللسان الذي هو داخل في البحر من البر وجعل على أعلاها تماثيل من النحاس وغيره فيها تمثال قد أشار بسبابته من يده اليمنى نحو الشمس أينما كانت من الفلك وإذا علت في الفلك فأصبعه مشيرة نحوها فإذا انخفضت انخفضت يده سفلاً يدور معها حيث دارت. ومنها تمثال يشير بيده إلى البحر إذا صار العدو منه على نحو من ليلة فإذا دنا وجاز أن يرى بالبصر لقرب المسافة سمع لذلك التمثال صوت هائل يسمع من ميلين أو ثلاثة فيعلم أهل المدينة أن العدو قد دنا منهم ويرمقونه بأبصارهم. ومنها تمثال كلما مضى من الليل أو النهار ساعة سمعوا له صوتاً بخلاف ما صوت في الساعة التي قبلها وصوته مطرب» (المعرب).

(١) نقله المقريزي في خططه الجزء الأول صفحة ٢٥٥ وقد سار السيوطي خطوة أخرى فنقل عن كتاب «مباهج الفكر» فقال «المنارة مبنية بحجارة مهندمة مضبية بالرصاص على قناطر من الزجاج والقناطر على ظهر سرطان من نحاس» (حسن المحاضرة الجزء الأول صفحة ٥٣) وقد بين ابن رستاه ذلك الخلط عندما قال إن المنارة كانت مبنية على أربعة سرطانات من الزجاج.

مشوّهاً ، ولكن لم يكن ثمت شك في الغرض من تلك التماثيل إذ قد وجدت كتابة باللغتين اليونانية واللاتينية على المعدن ، وكانت لا تزال ظاهرة وفيها مصداق لما رواه كتاب العرب[1] . وهذا مثل من الأمثلة الظاهرة التي كانت فيها أعمال الحفر والتنقيب مساعدة للتاريخ مصدقه له .

وقد يقول قائل وماذا كان من أمر الجعلان أو العقارب الزجاجية التي تحت المسلة الأخرى ، وما تحسب ذلك القول إلا إحدى الأقاصيص . وليس شيء أشد خطأً من مثل هذا القول ، لأننا إذا سمعنا وصف أمرين متصلين اتصالاً وثيقاً وصدق أحدهما صدقاً لا شبهة فيه وكان من آيات الدقة ، فإن أعجب العجب أن نقول إن الأمر الآخر مكذوب لا صدق فيه . فما يكون قولنا هذا إلا تكذيباً لا مبرر له للتاريخ كله . وليس في وصف هذه المسلات ما يجعلنا في حيرة بين ما يقتضيه العلم وما يقتضيه التاريخ . لا جرم أننا لا نصدّق أن تقوم قطعة عظيمة من الصخر في حجم تلك المسلة التي نسميها مسلة كليوبترة على جعالين من الزجاج مما يصنع في أيامنا هذه ، وما كان في الزجاج قطع تبلغ من الحجم ما يكفي لمثل هذا القصد . ولكننا نعلم في المعادن معدناً عظيم الصلابة والرونق وهو الحجر الأسود (الأبسيدي) الذي يشبه الزجاج ، ويعرف بالزجاج الطبيعي . ولعل الجعالين التي كانت تحت المسلة الثانية ـ وهي القائمة اليوم في لندرة ـ كانت من ذلك الحجر الأسود . وإذا كان هذا غير ممكن فلعلها كانت من حجر آخر متين شديد الصقل . وإنا نؤثر أن نصدّق ما قاله كتاب العرب بنصه

---

(١) نجد رسماً للسرطان في صورة (٧) من كتاب (L. Col. H. H. Gorringe) وهو كتاب Egyptian Obelisks (لندن ١٨٨٥) وتوجد به صور أخرى للبناء وقد وصف (Neroutsos Bey) في كتابه (L'Ancienne Alexandrie صفحة ١٦ و ١٧ وضع المسلة الأصلية ولم تبق إلا دعامة واحدة من الدعامات الأربع التي كانت على هيئة السرطان وكان من النحاس القديم (Cuivre reputé Aurifere) «وكانت هذه الدعامة على هيئة السرطان البحري راقداً على بطنه فوق قطعة من حجر الجرانيت وفوق ظهره فتحة تدخل إلى ما تحت جرم المسلة» وكانت الدعامات الثلاث الأخرى على الصورة عينها وبذلك كانت المسلة منفصلة كل الانفصال عن جسم البناء الذي تحتها.

كما جاء في قولهم ، على أن نكذبهم فيه بعدما ظهر من صدقهم فيه صدقاً جلياً . فإنا لا نشك في أن المصريين كانوا فوق براعتهم في صناعة الزجاج يعرفون من عظيم أسرار صناعته ما تجهل ، وليس بالمستبعد أن يكونوا قد استطاعوا صناعة صنف من الزجاج يبلغ من المتانة أن يحمل مثل تلك الكتلة الصخرية العظيمة . ومن المفيد هنا أن نقول إن المسلة التي حملت إلى لندن كانت قد وقعت على الأرض قبل الأخرى بزمن طويل .

إذن نقول إن أثرين عظيمين كانا قائمين أمام القيصريون على قاعدتين ذواتي طبقات . وكان أحدهما قائماً على أربع سرطانات من النحاس أو الشبه ، وكان الثاني قائماً على أربع تماثيل من الزجاج المتين أو الحجر الأبسيدي على صورة العقارب . وإذا نحن أزلنا ما طرأ من الخلط على هذا الوصف بين المنارة والمسلتين عرفنا أن التماثيل النحاسية التي يذكرها المقريزي لم تكن في أعلى المنارة حيث لا تكون ظاهرة لرأي العين ، ولكنها كانت في أعلى المسلات . وكان التمثال « الذي يشير إلى الشمس » بغير شك تمثالاً ذا جناحين يمثل «هرميس» أو «نيكي» (Nike) (إلهة النصر عند اليونان) وأغلب الظن أنه كان قائماً على قدم واحدة فوق قمة المسلة[1]. يمد يده اليمنى على عادة اليونان ، في تصوير تماثيلهم ، وكان التمثال الآخر الذي « يشير إلى البحر » صورة أخرى لا يقصد بها إلا التجميل والزينة ، وإيجاد التماثل في المنظر . ولا بد أن هذه الأعمدة العظيمة القديمة كانت باهرة الرونق والجمال في صنعها ورسمها الذي أبدعته يد الصناع في عصر أغسطس ، وأنها كانت ذات أثر عظيم في النفس إذا ما وقعت العين على قمتها الشاهقة إذ تمر بها السفن في دخولها إلى المرفأ أو خروجها منه .

وأما المتحف فلا نجد له ذكراً باقياً إلى يومنا هذا ، ولا بد لنا أن نقول إنه تخرّب وزال قبل ذلك بزمن طويل . ولعل زواله كان في الحريق الكبير الذي

---

(١) قام الدليل على أن المسلات كان لها غطاء على قمتها من المعدن .

أحدثه يوليوس قيصر عندما حاصره المصريون في ذلك الحي تحت قيادة (اخيلاس)[1] ، أو لعل ذلك وقع في النضال الأخير الذي كان في أواخر عهد الوثنية والاضطراب الذي حل بها عند احتضارها[2] .

حسبنا ما تقدم من ذكر الكنيسة ، ولنصف بعد ذلك (السرابيوم) وهو طائفة من الأبنية ذات جمال رائع كان لها أثر عظيم في نفوس العرب . وكان في حي آخر من أحياء المدينة في الموضع الذي به اليوم عمود (دقلديانوس) . وكان هذا الحي معروفاً بالحي المصري الذي لم يضع اسمه في وقت من الأوقات ، وذلك الاسم هو (رقوتي) . فإن القبط لم يسموا فيما بينهم مدينة الإسكندرية باسم بانيها العظيم ، بل كان أكثر حديثهم عنها باسم القرية التي كانت لبعض الصيادين قبل الإسكندر بزمن طويل . وهذا دليل على شدّة احتفاظهم بقديمهم لا يعبأون في ذلك بمرّ الزمن . وقد عرف موضع السرابيوم معرفة لا موضع للشك فيها مما جاء في وصفه في الكتب القديمة ، ومما أسفر عنه البحث الأثري في العصور الحديثة . ويقرن ذكر السرابيوم عادة بذكر عمود دقلديانوس وهو الذي سماه العرب (عمود السواري) وكان على مقربة من الباب الجنوبي للمدينة وهو الذي يسميه العرب باب الشجرة[3] . ولا يتفق أهل الآثار على أنه كان قائماً على ربوة تشبه (الاكروبولس) في أثينا، وليس سطح الإسكندرية في الوقت الحاضر مما يسهل تحقيق هذا الأمر . ومهما يكن من شيء فقد كان حصناً معظمه من صنعة الإنسان مع علوه وإشرافه فوق المدينة . فقد كان قائماً

---

(١) أنظر ما جاء بعد في صفحة ٤٢٥ ـ ٤٢٦ وما بعدها وقد عالجنا فيها هذا الأمر .

(٢) يقول (Matter) إن المتحف لا يذكر بعد القرن الخامس Ecole d'Alexandrie الجزء الأول صفحة ٣٣١؛ والدكتور (Botti) يقول إن المتحف زال من زمن قديم قبل ذلك التاريخ « ولم يبق المتحف بعد زمن كركلا » (Fouilles à la colonne Theodosienne) (صفحة ١٣٨ وهذا البحث الذي بحثه الدكتور (Botti) ذو قيمة عظمى لتاريخ الإسكندرية ووصف سطحها ويقصد بقوله (العمود التيودوسي) ما يعرف عادة بعمود دقلديانوس وأما اسم (عمود بومبي) فناشيء عن خطأ في قراءة النقوش التي تحته .

(٣) يذكر ياقوت والقزويني هذا الاسم .

على نهد له نواة من الصخر الطبيعي ، ولكن سائره كان من صنع الإنسان . وكانت أسواره المنيفة تحيط بآزاج معقودة تحت الأرض طبقات بعضها فوق بعض[1] ، فكان حصناً عظيماً مربع الشكل أعلاه مسطح تزينه أبنية بديعة . والظاهر أنه كان يدخل إليه من طريقين : أحدهما تسير عليه العجلات ، والآخر سلم له مائة درجة . على أننا لسنا نعرف القصد الذي من أجله بني ذلك السلم[2] وكان موضعه في الجهة الشرقية من البناء ، وفي أعلاه المدخل وتدعمه

---

(١) لا تزال النواة الصخرية ظاهرة الى اليوم وإن وصف (روفينوس) لا يدع مجالاً للشك في أن القلعة كانت بوجه عام كوماً عظيماً من البناء ويقول:

«وليس في ذلك الموضع ربوة طبيعية ولكنه واقع على قمة مائة درجة أو تزيد ربي من صنع الانسان وهو منعزل وحوله مربعات متسعة من كل جانب وكل الممرات الى القمة واقعة تحت أورقة ذات قباب. . . . والأجزاء الخارجية من السور المحيط فيها مخادع ومحاريب وأبنية عالية يسكنها القسوس أو أولئك الذين يسمونهم النساك الذين يريدون أن يتطهّروا وفوق ذلك كان ذلك السور محاطاً من الداخل بأورقة تزينها مربعات من الحجارة وفي وسط المساحة كلها كان يوجد معبد فيه أعمدة عالية ثمينة ويغطي واجهته المرمر البديع وكان فيه تمثال (لسرابيس) بلغ من عظمه أنه كن يلمس بيده اليمنى جداراً من الجدران وبيده اليسرى الجدار الآخر وقد قيل إن ذلك المعبد استعمل في بنائه كل أنواع المعادن والأخشاب».

ولا يذكر روفينوس المكتبة ولكنه رأى هدم الصنم وقد يكون لحق بذلك هدم المعبد كله وقد ذكر أونابيوس أن هدم البناء كان تاماً. قال «وألقوا مراسيهم في السرابيوم وحاربوا الأماكن المقدسة ولم يتركوا غير أرض السرابيوم لثقل الحجارة لأنها كانت لا يمكن نقلها وقد خلطوا الأشياء وخربوها الخ». ٣٥* وكان هذا في حكم تيودوسوس عندما كان تيوفيلوس بطريقاً للاسكندرية وورمانوس قائداً لحاميتها.

(٢) الظاهر أن الدكتور (بوتى) لم يلتفت إلى طريق العربات في بحثه الأول في هذا الأمر (L'Acropole d'Alexandrie) صفحة ٧ إذ لم يكن أمامه كل ما قاله (أفطونيوس) فقال «وعلى ذلك لم تكن له طرق يولج إليه منها إلا طريقاً واحداً وهو السلم الأثري ذو الدرجات المائة ولم تكن له طريق لسير العربات» ولكنه في كتابه (Colonne Theodosienne) صفحة ٢٤ قد فصل الأمر فيما كتبه وتفصيله يدل على أنه قد كان هناك طريق للعربات في أحد جوانبه وقد ترجم الدكتور (بوتى) في كتابه الأخير (صفحة ٨٢) قول أفطونيوس ترجمة عجيبة فجعلها «فإذا ما دخل الإنسان القلعة (لم يجد إلا) هضبة =

أربعة أعمدة عظيمة في كل جانب إثنان منها ، وكان للمدخل أبواب من معدن الشبه[1].

وأما شكل البناء الذي على القمة وترتيبه فليس من السهل أن ندركه مما بقي لدينا من وصفه ، ولكن يلوح لنا أنه كان على ما نحن موردون فيما يلي : فقد كان شكله مستطيلاً طوله خمسمائة ذراع في عرض مائتين وخمسين[2] . ويحيط بأعلى النهد من كل جانب صف من البناء المنيف البديع يتصل في مواضع كثيرة بحرم المعبد ، وكان في داخل هذه الجوانب الأربعة من البناء فناء يحيط به صف عريض من الأعمدة : وكان فيه كذلك من الوسط أربعة صفوف من الأعمدة يذهب كل صف منها من وسطه إلى جانب من جوانبه ، فكانت هذه الأعمدة على هيئة قريبة من صليب في الوسط يحيط به إطار مستطيل الشكل . ولكن وسط هذا المستطيل وهو قلب الحصن كله كان فيه معبد (سرابيس) وكان

= واحدة مقسمة إلى أربعة أجنحة متشابهة ونظامه المستطيل يشبه قالب من الآجر» (٣٦*) ومن المؤكد أن قوله معناه «إن الشكل العام لبنائه مستطيل» (٣٧*) وأما ما قبل ذلك فمعناه أن الفضاء الذي فيه هذا المستطيل مقسم إلى أربعة أضلاع متساوية الطول أي أنها أعمدة على شكل الصليب كما وصفناها في متن كتابنا .

(١) قد جاء وصف القلعة ومدخلها في كتاب (Polybiuse) عند ذكره ثورة (Cleomenes) فقال «فحص قائد القلعة باب الدخول» (٣٩) ولو ذكر (Matter) هذه القطعة لما شك في قول أفطونيوس إذا استعمل لفظ (القلعة) (Ecole d'Alexandrie) الجزء الأول صفحة ٣٢٥ .

(٢) أخذنا هذا القياس عن المسعودي ووصف البناء مأخوذ من مقارنة دقيقة لما جاء في كتاب (Ruffinus) و (Aphthonius) ولكن الأخير بعيد كل البعد عن الوضوح حتى في المواضع التي يقصد فيها الدقة وقد زار (أفطونيوس) الإسكندرية حوالي سنة ٣١٥ بعد الميلاد وقد أورد في كتابه (Progymnastmata) موازنة بين (أكروبوليس) مدينة أثينا و(أكروبوليس) الاسكندرية وهي موازنة شائقة على ما فيها من غموض انظر ما كتبه الدكتور (Botti) في (Colonne theodosienne) صفحة ٢٤ وما بعدها ولكن يحسن قراءة كل هذا المؤلف وكذلك قراءة ما كتبه في (L'Acropole D'Alex. et La Serapium) ونحن مدينون لكلا هذين الكتابين ديناً عظيماً .

من سوء الحظ أن هذا المعبد قد تهدّم قبل فتح العرب بمدّة طويلة ، ولكن لا شك في أنه قد كان بناء من أروع الأبنية وأعظمها . وكان حرمه مستطيلاً في وسطه بهو له أعمدة من أثمن المرمر ، وكانت جدرانه من الرخام من داخلها وخارجها . وكان في وسط ذلك البهو تمثال عظيم للمعبود (سرابيس) من الخشب الملبس بالذهب والعاج ، له ذراعان ممدودتان تكاد كل منهما تلمس الحائط الذي يليها . وكان في يسراه سيف وتحت يمناه صورة مروّعة للأعجوبة (قربروس) لها رؤوس ثلاثة : رأس أسد ورأس كلب ورأس ذئب ، وقد التف حولها جميعاً أفعى عظيمة[1] . وكانت تزين المعبد جميعه زينة باهرة من النقوش التي لا تقدّر بثمن ، وكانت من المرمر والشبه ، وكان أظهر ما فيها سلسلة من نقوش تمثل حروب (برسيوس). وكان حول جدران ذلك المعبد صف من جليل الأعمدة تجري موازية لصف الأعمدة المحيطة بالفناء جميعه ، وتصلها به الصفوف الأربعة التي على هيئة الصليب ، والتي سبق لنا ذكرها . وكانت الأبواب العظيمة التي تحيط بالمعبد لا مثيل لها في الفخامة والجلال . وكانت رؤوس الأعمدة من معدن الشبه تغطيه طبقة من الذهب وأما السقوف فكانت يغطيها الذهب والألوان الزاهية في حين كانت الجدران والأرض من أثمن المرمر[2] .

---

(١) Macrobius الكتاب الأول الفصل ٢٠ وقد وصف (Pseudo Callisthenes) في كتابه «حياة الإسكندر» (٣٨*) هذا التمثال بقوله « يحمل في يده اليمنى حيواناً برياً له أوجه كثيرة وفي يده اليسرى سيفاً » (٣٩*) .

(٢) وان وصف اميانوس لمما يستحق الاقتباس إذ قال :

«وبعد هذه كانت معابد قائمة على قوائم عالية وكان السرابيوم أظهرها وإن اللفظ ليعجز عن تصوير صورة حقيقية له فقد كانت أبهاؤه ذات العماد وتماثيله التي كأنها من الأحياء وسوى ذلك مما كان به من آثار الفن ـ كانت كلها تميزه وتخلع عليه بهاء يجعله فذاً في العالم لا يزيد عليه شيء فيه جمالاً اللهم إلا بناء الكابتول ذلك الفخر الخالد الذي تفخر به رومه العظيمة». ومن المحتمل أن رمم معبد ايزيس وسيرابيس في رومة إذا أظهرناه بحسب ما نتخيله من وصفه يمكن أن يقرّب إلينا صورة البناء الذي كان في الإسكندرية =

لكن أهم من ذلك كله أن عقود هذا المعبد كانت لها أبواب تفضي إلى حجرات في البناء الأعظم كان في بعضها مكتبة الإسكندرية الكبرى[1] ، وكان في البعض الآخر مشاهد لآلهة مصر القديمة . وكان في بعض مواضع من حرم هذا المعبد مسلتان قديمتان ، وحوض ماء عظيم من المرمر فائق الجمال . وكان العمود العظيم المعروف بعمود دقلديانوس في وقت فتح العرب قائماً فوق القلعة مشرفاً عليها[2] ، على أننا لسنا نعلم في أي وقت أقيم . وكان في موضع من السرابيوم كنيسة بإسم القديس (يوحنا المعمدان) ، وكان فيه سوى هذه كنائس أخرى كانت لا تزال عند ذلك قائمة منها كنائس القدّيسين (قزمان) و(دميان) و(الانجيليون)[3] . وقد بقيت الكنيسة الأخيرة إلى ما بعد الفتح ولكنها كانت

= (انظر كتاب Lafaye وهو .Hist. des Cultes des Divinités d'Alex) باريس سنة ١٨٨٣ والصورة المقابلة لصفحة ٢٢٤ ؛) وأن لغة (Tacitus) فيها كثير من التحفظ (Hist. IV) صفحة ٨٤ فانه لا يقول سوى إن المعبد كان مناسباً لحجم المدينة في عظمه وقد أساء (Matter) فهم هذه الجملة فذهب إلى أن (Tacitus) يشبه مجموعة هذا البناء بمدينة (Ecole d'Alex. t. i. p. 323) وقد ورد هذا الخطأ نفسه في كتاب (Saint Martin) إذ يقول وقد بلغ من عظمه كما قال (تاسيت) إنه كان مثل مدينة Histoire du Bas) (.Emp تأليف (Lebeau) الجزء الرابع هامش صفحة ٤٠٦ .

(١) لعل هذا هو المعنى المحقق لقول (Aphthonius) «كانت المخادع مبنية في داخل الأروقة وكان بعضها متخذاً للكتب توضع عليها وتفتح لمن شاء أن يكلف نفسه بالعناية بالفلسفة وإعادة القوة إلى الحكمة، وكان البعض الآخر متخذاً مشاهد للآلهة القديمة (٤٠*).

(٢) قال الدكتور (Botti) في كتابه السالف الذكر أنه أنشىء بعد هدم السرابيوم الذي حدث في سنة ٣٩١ ويسميه (العمود الثيودوسي) .

(٣) بحسب رأي الدكتور (Botti) كان اسم (الانجيليون) في أول أمره (الأركاديون) وكان أصل اسم (الأركاديون) (الكلوديون) وهو يقول فوق ذلك إن (الأركاديون) كان هو (الهادريانون) (انظر الكتاب السالف الذكر صفحات ١٣٥ و ١٣٨ و ١٣٩) ويظهر لنا أن قوله هذا غير ثابت فقد كان (الهدريانون) معبداً ثم جعل موضعاً للسجلات تحفظ فيه الدواوين والوثائق (انظر ما كتب في ذلك في أوراق بردى (Oxyrhynchus) الجزء الأول صفحة ٦٨ و ٧٢ والجزء الثاني صفحة ١٨٢ ، ومن المشكوك فيه أن هذا البناء كان على =

يخشى عليها التهدّم فأعيد بناؤها في أواخر القرن السابع وقام على ذلك البطريق إسحاق[1] .

بقي علينا أن نذكر بناء آخر وهو البناء الملاصق لمدخل السرابيوم ، وَيُعَدُّ جزءاً منه وهو (الأقوس) ومعناه البيت . ويمتاز عن سائر بناء القلعة بأن كانت له قبة مذهبة عالية قائمة على دائرة مزدوجة من الأعمدة . ولم يتضح لنا القصد من هذا البناء ولعله لم يقصد منه غير الزينة والظاهر أنه بقي بعد أن تهدم المعبد ، ويرد ذكره في أخبار العرب مع (عمود السواري)[2] . وقد قيلت في ذلك العمود

= نجد السرابيوم وليس ثم من سبب لأن يحول إلى كنيسة إذا كان قد استخدم لذلك الغرض النافع وقد أخذ (Gregorovius) قوله عن تحويله إلى كنيسة عن كتاب (Haeres XIX 2me) (Epiphanius) (الإمبراطور هادريان صفحة ٣٥٨) ويقول سعيد بن بطريق (انظر مبنى الجزء ١١١ المجموعة ١٠٢٥ ـ ٦ والمجموعة ١٠٣٠) إن تيوفيلوس بنى كنيسة عظيمة باسم الإمبراطور (تيودوسيوس) وغطاها بالذهب وذلك سوى ما بناه من كنائس أخرى كثيرة مثل كنيسة العذراء وكنيسة القديس يوحنا وأما عن الأركاديون فانه يقول «المعبد الإسكندري الأعظم الّذي أنشىء تخليداً لاسم أركاديوس» .

ولا شك أن هذا كان قبل سنة ٣٩٨ وهذا يتفق كل الاتفاق مع ما جاء في كتاب حنا النقيوسي وهو أقدم من ذلك بكثير فقد قال في صفحة ٤٥٠ إن البطريق (تيوفيلوس) بنى كنيسة كبرى سماها باسم الإمبراطور (تيودوسيوس) وبنى أخرى سماها باسم ابنه (أركاديوس) وحول أيضاً معبداً في السرابيوم إلى كنيسة سماها باسم (هونوريوس) ثم قال إن تلك الكنيسة المسماة باسم هونوريوس كانت تطلق عليها اسم القديسين (قزماس) و (دميان) وكانت مقابلة لكنيسة القديس بطرس وإذا لم يخطىء حنا فان الأركاديون كانت بناء جديداً في أواخر القرن الرابع ولكن هذا الأمر محير فإن قول Sozomen (Hist. Eccl V.) صفحة ١٥ يفهم منه أن معبد سرابيس هو الذي حول إلى كنيسة فقد قال: «إن الذي كان عند ذلك معبد السرابيوم قد أخذ وبعد قليل حول إلى كنيسة الأركاديوس لقب الملك (٤١*)» ولكن لفظ سرابيوم (٤٢*) يجب أن يفهم منه هنا الاكروبولس وليس المعبد فقط ولفظ (٤٣*) لا بد يقصد به (أعيد بناؤه) وليس (حول) فإن (Sozomen) يذكر بوضوح أن المعبد قد هدم .

(١) أميلنو (حياة البطريق القبطي إسحق صفحة ٥٧ ـ ٨) .

(٢) الظاهر أن هذا هو ما عناه السيوطي عند ذكره قبة مغطاة بالنحاس وأنها تلمع كالذهب =

قصص عجيبة فقيل إنه كان جزءاً من معبد بناه سليمان وهذا ما ذهب إليه أصحاب الرأي السائد ، وقال ابن الفقيه : إن الإنسان إذا رمى عليه قطعة من الخزف أو الزجاج وقال عند ذلك « باسم سليمان بن داود تكسري » انكسرت ، ولكنه إذا لم يذكر ذلك الطلسم لم تنكسر . وقيلت قصة أخرى وهي أن الإنسان إذا أقفل عينيه وسار إلى ذلك العمود لم يستطع أن يبلغه . وقال السيوطي في سذاجة إنه قد جرب ذلك الأمر بنفسه مراراً وظهر له صدقه . وقال ذلك المؤرخ إن « أهل العلم في الإسكندرية » يذكرون أن هذا العمود كانت عليه قبة جلس تحتها أرسطاطليس وهو ينظر في علم الفلك ، وهذه بقية من ذكر القبة والمكتبة . وقد روى المقريزي عن المسعودي وصفاً للسرابيوم وهو وصف لا بأس به فقال : « وكان بالإسكندرية قصر عظيم لا يماثله قصر في بلاد العالم قائم على تل عظيم تجاه باب المدينة ، وكان طوله خمسمائة ذراع في عرض مائتين وخمسين ، وله باب عظيم كل جانب منه قطعة واحدة من الصخر ، وكذلك أعلاه حجر واحد . وكان في ذلك القصر مائة عمود وفي صدره عمود عظيم لم ير مثله في الحجم وله قمة كالتاج ». ويقول الكاتب نفسه إن ذلك العمود يهتز عند هبوب الريح عليه . وكان الاعتقاد السائد أن هذه الأبنية أقامها الجن والعمالقة من البشر الأوائل . قال السيوطي إنه قد بنى الجان لسليمان في الإسكندرية إيواناً للاجتماع ، به ثلثمائة عمود علو كل منها ثلاثون ذراعاً ، وكانت من المرمر المجزع بلغ من صقله أن صار كالمرآة يرى الإنسان فيه من يسير خلفه ، وكان في وسط الإيوان عمود علوه مائة ذراع وأحد عشر ذراعاً ، وكان سقفه قطعة واحدة مربعة من المرمر الأخضر نحته الجن[1] ، وكان هؤلاء الجان على صورة الإنسان لهم رؤوس كالقباب وعيون تمزق الأسود . وقد ورد عن ذلك رأي آخر وهو أن الأحجار كانت في الأزمان السالفة لينة كالطين ، أو

= ولكن المقريزي يذكر قبة قطعة واحدة من الرخام الأبيض بديعة الصنع وقد يكون المقصود بهذا كله شيئاً واحداً .

(١) حسن المحاضرة للسيوطي صفحة ٥٥ .

كما قال كاتب آخر : « وكان من السهل أن يعمل الناس قبل الظهر في محاجر المرمر إذ يكون المرمر كأنه العجين في لينه ولكنه يصير بعد الظهر صلباً يتعذر اقتلاعه » .

وهذه القصص تظهر دهشة العرب مما رأوا من الأبنية التي صارت ملكاً لهم . وإنه لمن المؤلم أن يقرأ الإنسان أخبار تخريبها وهدمها ، ولكن العدل يقضي علينا أن نذكر أن أكثر ذلك التخريب كان من فعل الزلازل ، فما أتى القرن الحادي عشر حتى كانت المدينة كلها أطلالاً خربة . ولكن العجب أن يذكر كتاب ذلك العصر أن الأعمدة كانت لا تزال قائمة[1] ، ويقولون إن عدتها كانت خمسمائة ، وقد رآها الإدريسي بعد مائة عام من ذلك الوقت ، وقال في وصف ذلك إن العمود الأكبر كان حوله قضاء فيه ستة عشر عموداً عند كل من جانبيه الضيقين وسبعة وستون عموداً عند كل من طرفيه العريضين[2] . وقال بنيامين (التودلي)[3] وقد زار المدينة في عام ١١٦٠ إنه رأى بناء عظيماً جميلاً فيه أعمدة من المرمر تفصل بين حجراته الكثيرة » . وقال إن ذلك كان في « مدرسة أرسطو » . وذلك مثل ما يقوله الكتاب المسلمون إذ يسمونه «قبة أرسطو» أو «بيت الحكمة» . غير أنه حدث في عام ١١٦٧ أن حاكماً جاهلاً للإسكندرية اسمه (قراجا) وكان من وزراء صلاح الدين أمر بهدم هذه الأعمدة وحمل أكثرها إلى البحر فألقاها فيه ليحول بين العدو وبين النزول إلى البر[4] .

---

(١) الدكتور Botti (Colonne Theodosienne) صفحة ١ و ٢ .

(٢) نفس الكتاب السابق صفحة ١٢

(٣) نفس الكتاب ولكن هذه الأعمدة كانت في الصفوف الخارجية وأما أعمدة المعبد فقد زالت أو كانت على الأقل قد هدمت في أيام تيودوسيوس .

(٤) خطط المقريزي الجزء الأول صفحة ١٥٩ ولكن عبد اللطيف يقول إنه رأى ٤٠٠ من الأعمدة الكبرى مكسرة وملقاة على الشاطىء وهو يقول إن (قراجا) قصد إلى أحد أمرين : إما أن يمنع أثر الموج في الشاطىء إذ كانت تحفر ما تحت أسوار المدينة ، وإما أن يدفع =

ومنذ ذلك الحين بقي عمود (دقلديانوس) وحده في مجده ، بقية مما كان في قلعة الإسكندرية[1] من الأبنية التي لم يكن لها مثيل .

ولنترك الآن معالجة مسألة المكتبة وما حل بها فسنجعل لذلك موضعاً آخر ولنمض إلى ذلك أثر آخر أو أثرين جديرين بالذكر . كان الملهى الذي ذكره العرب في غرب القلعة على ما يلوح لنا . وكان هناك من غير شك ميدان لسباق الخيل في خارج المدينة مما يلي الباب الشرقي . وقيل إن[2] ذلك الميدان كان يتسع لألف ألف من النظارة ، وكان بناؤه يجعل كل من فيه يرى ما يجري به سواء في ذلك من كان في أعلاه أو في أسفله . وكانوا يسمعون كل ما يقال بغير ازدحام أو مشقة . وأما دار التمثيل فقد كانت في موضع من حي (البروكيون) وكانت بناء عظيماً قائماً بنفسه .

ولكن المنارة كانت موضعاً لأعظم إعجاب العرب وأكبر دهشتهم . وقد كان ذلك البناء الضخم كما هو معروف قائماً في الشمال الشرقي من جزيرة (فاروس) . وكانت تلك الجزيرة متصلة ببر المدينة بطريق طويل قائم على عقود اسمه (الهبتاستاديوم) وكانت الجزيرة في وقت الفتح العربي يحيط بها مرسى السفن وفيها أبنية مختلفة كان أكبرها كنيستان : إحداهما (للقديسة صوفيا) ، والأخرى (للقديس فوستوس) وبينهما نُزُل للأغراب[3] . وكانت بتلك الجزيرة في أيام قيصر قرية كبيرة وكان أهلها قوماً لا خلاق لهم . وقد قال قيصر عن

سفن العدو ثم قال وعلى أي حال فقد كان هذا عبثاً سيئاً يشبه عبث الأطفال (صفحة ١١٣).

(١) وقد أفصح ياقوت عن الأثر الذي احدثه ذلك في نفسه بقوله إنه لما زار الاسكندرية طاف حول المدينة فلم يجد بها شيئاً يستحق الاعجاب أو يثير الدهشة إلا عموداً اسمه عمود السوارى بقرب الباب المسمى (باب الشجرة).

(٢) المقريزي الكتاب السالف صفحة ١٥٨

(٣) هذه التفاصيل مأخوذة من كتاب (Moschus) «مسارح الأرواح» الفصل ١٠٥ و ١٠٦

المنارة إنها قطعة عجيبة من البناء[1] ، ووصفها سترابو بأنها برج ذو بناء عجيب من الحجر الأبيض وله طبقات عدة[2] ، وقد كان بناؤها على يد (سوستراتوس الكنيدي) في أيام بطليموس فلادلفوس)، وكان القصد منها هداية السفن . وقد أصابها هدم من فعل البحر ومن أسباب أخرى ، ولكنها كانت ترمم كلما دعت الحال[3] إلى ترميمها ، فكانت في أيام فتح العرب صالحة لم يفسد منها شيء ، تلمع في النهار في ضوء الشمس وتضيء بنورها في الليل على البحر إلى بعد عدّة فراسخ من الإسكندرية . وكان شاطىء تلك الجهات ضحلاً لا مرفأ له ، وكانت السفن الآتية إلى الإسكندرية تعبر إليها بحراً فسيحاً لا معالم فيه من البر ، فكان من أكبر النعم أن يقام علم ظاهر في النهار والليل على مسافة ستين ميلاً أو سبعين .

وقد كتب كتاب العرب شيئاً كثيراً عن هذه المنارة فقال الإصطخري [4] إن المنارة قائمة على صخرة في البحر وبها أكثر من ثلثمائة غرفة لا يهتدي فيها الزائر إلا إذا هداه دليل . وقال ابن حوقل[5] : إنها مبنية من صخور منحوتة قد جمع بعضها إلى بعض وشدت بالرصاص ولا يشبهها شيء على وجه الأرض . وقد وصفها الإدريسي مثل ذلك الوصف[6] مع تفصيل أعظم فقال إن المنارة

---

(١) والفاروس برج شاهق العلو على الجزيرة مبنيٌّ بناء عظيماً واشتق اسمه من اسم الجزيرة (Bell. Civ. iii Sub, fin) .

(٢) (Geog, XVII. i 6) .

(٣) جاء ذكر مثل هذا الإصلاح في الديوان اليوناني (Epid 647) وقد ترجمنا تلك الأبيات من (Amaranth and Asphodel) كما يلي :

أنا صرح أغيث البحارة في اليم، أضيء عليهم بمصباحي الهادىء فأضيء الليل. كنت اهتز إذا عصفت العواصف المدوية، حتى تداركني أمون بحوله فأعاد قوتي .

فإذا ما جاز البحارة تلك الأمواج الثائرة رفعوا أيديهم إليه إذا ما صاروا على الأرض، كما يرفعونها للاله العظيم الذي يهز الأرض. .

(٤) (Bibl. Geo. Arab) الجزء الأول صفحة ٥١

(٥) الكتاب نفسه الجزء الثاني صفحة ٩٩

(٦) (Geographia Nubiensis) صفحة ٩٤ و ٩٥

لا يماثلها شيء في بلاد العالم في قوّة بنائها ونظامهـا فهي من أصلب الصخور صب بينها الرصاص المنصهر حتى أن حجارتها لا ينفصـل بعضها عن بعض . ويصل ماء البحر إليها من جهة الشمال ، وعلوها نحو ثلثمائة ذراع كل ذراع ثلاثة أشبـار فطولهـا مثل قـامة مـائة رجـل : منها سبعـون قامـة بين الأرض والطبقـة الوسطى ، وست وعشرون قامة بين الطبقة الوسطى والقمة وعلوّ المصباح الذي بها أربع قامات[1] . وهيئة بناء برج المنارة معروفة لا شك فيهـا ، فقـد كانت ذات طبقات أربع كل منها أضيق قطراً من الطبقة التي أسفلها . وكانت الطبقـة الأولى ممـا يلي الأرض مربعـة والتي تليها ذات ثمـانية أضـلاع وكانت الثـالثة مستديرة . وأما الطبقة العليا فكانت مصباحاً مكشوفاً ، وبها مواضع للنـار التي يهتدي بها ، ومرآة عجيبة . وكان في أعلى الطبقة الأولى المربعة طنف عريض عنـد قـاعـدة الـطبقـة الثـانيـة المثمنـة يشـرف على المـدينـة والبحـر ، وكـان بين الـطبقة المثمنـة والطبقـة الدائـرية التي فـوقها طنف آخـر أقل اتسـاعـاً من

---

(١) لسنا ندري ما هو القياس المقصود بالدقة ولكنا إذا قدرنا القامة بخمسة اقدام لا أكثر كان علو البرج خمسمائة قدم. وأكثـر الكتاب المسلمين يـذهبون إلى أن علوهـا ٣٠٠ ذراع ولسنا نخطىء إذا نحن جعلنـا ذلك ٥٠٠ قـدم انجليزي. ومن العجيب أن الإدريسي لا يفرق بين الطبقة الأولى والطبقة الثانية من البرج. ويقول اليعقـوبي إن علوها ١٧٥ ذراعاً ويقول المسعودي وكان في وقته إن علوه الآن (في القرن العاشر). ٢٣٠ ذراعـاً ولكنه كان فيما مضى ٤٠٠ ذراع ثم هدمتها الزلازل ومر الزمن. وقال القزويني إن الطبقتين الأولى والثانية كانتا متساويتين في العلو (ويقول إن كلا منهما كانت ٩٠ ذراعاً). فإذا كان الأمر كذلك فإن قياس الأدريسي يجعل علو كل من الطبقتين الأوليين ١٠٥ ذراع وعلو الثالثة ٧٨ ذراعاً و ١٢ ذراعاً للمصبـاح ويلوح لنا أن هـذا تقـديـر قـريب إلى الأذهـان. وأمـا المقـريزي فـإنه يـذكر قيـاسـاً آخـر وهـو ١٢١ ذراعاً للطبقـة المـربعـة و ٨١ ١/٢ ذراعـاً للمثمنة ٣١ ١/٢ ذراعاً للمستديرة. ويقـول ابن الفقيه إن جمـاعة ذكـروا أن الأذرع كانت أذرعاً سلطانية فكانت ٣٠٠ ذراع منها تساوي ٤٥٠ من أذرع اليد وقال عبد اللطيف إنه قرأ نسخة مخطوطة من كتاب أحد أهل الأسفار فوجد به أن علو الطبقات هو ١٢١ و ٨١ ١/٢ و ٣١ ١/٢ ويزيد عليها ١٠ أذرع للمصباح (أو المسجد الذي فوق القمة). ويقول (Holm) في كتابه (Hist. of Greece) ترجمة (F. Clarke) (الجزء الرابع صفحة ٣٠٤) إن علوه ٦٥٠ قدماً ولكن هذا بعيد عن التصديق لأسباب فنية في علم الحيل.

الأوّل[1] ولكنه يشبهه. وكان الصعود إليها على سلم يغطيه سقف من الحجارة[2] يصل بين جدرانها. وكان تحت السلم غرف عدّة. ويضيق ما بين السلم من الفراغ بعد الطبقة الثانية حتى يتضاءل الفضاء الذي بداخل المنارة فلا تبقى إلا فرجة صغيرة كالبئر في وسطه. وكان الضوء يصل إليها من نوافذ في جدارها كله من أعلاه إلى أسفله[3].

وقد عجب العرب من عدد غرف المنارة ومن تداخلها فقال المقريزي: ويقال إن كل من دخل المنارة اختبل وضل الطريق مما بها من الغرف العدّة والطبقات والمماشي. وقيل إن المغاربة عندما جاءوا إلى الإسكندرية في خلافة المقتدر دخل جماعة منهم إلى المنارة على ظهور الخيل فضلوا طريقهم حتى جاءوا إلى شق في كرسي الزجاج الذي على هيئة السرطان[4] وهو الذي يقوم

---

(1) المسعودي في (Bibl,Geog,Arabe) الجزء الثامن صفحة ٤٦ وكذا سواه من الكتاب.

(2) ياقوت الجزء الأول صفحة ٢٥٦ وما بعدها.

(3) ليس من الواضح أكانت هناك درجات أم طريق منحدر يصعد عليه إلى البرج فبعض الكتاب يذكر درجات. وأما المسعودي فيقول إنه كان يصعد إليه من طريق منحدر لادرج له. وقال غيره إن الخيل كانت تصعد بأحمالها إلى كل غرفة وإنه لما يهم الإنسان أن يعرف كيف كان يصعد بالوقود إلى قمة البرج لإيقاد نار المصباح ولعله كان يرفع من الفتحة المتوسطة في البناء بواسطة بكرة.

(4) قد بينا أصل هذه القصة فيما سلف في صفحة ٣٩٤ وليس أوضح من ابن الفقيه في الدلالة على ما حدث من الخلط بين المنارة والمسلتين فانه بعد أن قال (Bibl, Geog, Arabe الجزء الخامس صفحة ٧٠) ان منارة الاسكندرية قائمة على سرطان من الزجاج في البحر قال في الصفحة التي بعدها إن منارة الإسكندرية كان لها عمودان قائمان على صورتين: إحداهما من النحاس، والأخرى من الزجاج، والصورة من النحاس على هيئة العقرب، والتي من الزجاج على صورة السرطان والمرصد بجوارهما ويسمى المنارة. وقد روى السيوطي عن غيره من الكتاب عبارة تفيد أن المنارة كانت قائمة على عقود من الزجاج قائمة فوق سرطان من النحاس. ويفسر ياقوت سبب عمل الأساس من الزجاج بقصة خرافية هي أن الاسكندر كذا) عندما أراد بناء المنارة ألقى في البحر بحجارة وآجر وصخر محبب وذهب وفضة ونحاس ورصاص وحديد وزجاج وسائر انواع المعادن لكي يجربها ثم أخرجها وفحصها فوجد أن الزجاج وحده لم ينقص ولم يفسد فاختاره للبناء.

عليه البناء ، فوقع كثير منهم فيه وهلكوا[1] . ولكن قيلت في المرآة قصص أعجب من هذا وقد أجمع كتاب العرب على أنها كانت في ذاتها بصرف النظر عن المنارة التي كانت هي قائمة عليها ، إحدى عجائب العالم . فقيل قد كان في مدينة (راقوتي) قبة مذهبة على أعمدة من الشبه ، وكان فوقها منارة في أعلاها مرآة من معدن مركب يبلغ قطرها خمسة أشبار[2] . وكانت تلك المرآة تتخذ لإحراق سفن العدوّ . وقد قلدت هذه المرآة في مدينة الاسكندر فأقيم مثلها على رأس المنارة ، ولكنها كانت تستخدم في رؤية العدوّ من بعد « إذا أقبل من بلاد الروم » . وقد دخلت المبالغة على وصفها بعد قليل فرويَ عن عبد الله بن عمرو أنه قال «ومن عجائب بلاد العالم المرآة التي على منارة الإسكندرية وهي تكشف ما يجري في القسطنطينية[3] » ولكن المسعودي يصفها بأنها « مرآة عظيمة من الحجر الشفاف يمكن أن ترى فيها السفن الآتية من بلاد الروم وهي بعيدة عن مدى البصر » وقال كاتب آخر مثل هذا المعنى ولكنه يذكر أن هذه المرآة كانت من « زجاج مدبر » أي محكم الصنعة[4] . وقال كاتب ثالث إنها كانت من « الحديد الصيني » أو الصلب الثقيل[5] . وقد أجمع الكل على أنها كانت تظهر السفن وهي أبعد من مدى البصر فكان الإنسان إذا جلس تحتها رأى كل شيء من مكانه إلى القسطنطينية .

---

(١) المقريزي. ويبدأ وصف المنارة في الجزء الأول صفحة ١٥٥ من الخطط.

(٢) ينقل المقريزي هذا عن ابن وصيف شاه في كتابه (تاريخ مصر) ويتفق معه المرتضى إذ قال إنهم بنوا برجاً صغيراً في وسط المدينة على أعمدة من النحاس المذهب وجعلوا عليه مرآة متخذة من مواد مختلفة طولها خمسة أشبار في مثلها وكان علو البرج مائة ذراع وكانت المرآة تستعمل لاحراق العدو وكذلك فان المنارة لم تبن إلا لإقامة مرآة كانت فوقها (تاريخ مصر صفحة ١٠٢).

(٣) ابن الفقيه في (Bible Geog. Arab) الجزء الخامس صفحة ٧١.

(٤) هذا هو اللفظ الذي استعمله المقريزي «الزجاج المدبر».

(٥) عن السيوطي وهو يقول إن عرض المرآة كان سبعة أذرع وإنها كانت تظهر السفن الآتية من بلاد أوربا وإنها كانت تستعمل لإحراق العدو. وقال إنهم كانوا يديرون المرآة نحو الشمس وهي مائلة للغروب فتنعكس عليها الأشعة وتحرق سفن العدو.

وأما الغرض الـذي من أجله أقيمت المرآة فمختلف فيـه ، فهل لـم تكن تتخذ إلا لتنعكس عليها أشعة الشمس في النهار وضـوء النار في الليـل لهدايـة السفن ؟ وهل كانت مرآة مما اعتاد النّاس اتخاذها أم كان لها سطح يختلف عن ذلك له قدرة على كسر الضوء ، فلذلك كانت حقيقة تتخـذ لإحراق السفن إذا ما سطعت عليها أشعة الشمس القوية في مصر ؟ والجواب على هذا موكول إلى العلماء ولكن من أعجب الأمور أن يذكر مؤرّخو العرب في القرن العاشر للميلاد من وصف هـذه المـرآة مـا يمكن أن نعـدّه تنبؤاً بـاستعمـال المنـظار المقـرّب (التلسكوب). وإنه من العجيب كذلك أن يجمـع كل هؤلاء الكتـاب على أنها كانت من مادة شفافة ، فيقول بعضهم من الزجاج المدبـر ، ويقول البعض من حجر شفاف . فإن هذا القول وصف لعدسة ضوئية وليس لمرآة . أليس إذن من الممكن أن تكون مدرسـة الإسكندريـة العظمى التي فـاقت في علوم الريـاضة والحيل قد كشفت سر العدسة الضوئية وصنعتها ، ثم نسي أمـر هذا الســر بعد تخريب المنارة ؟

وإنه من الثابت أنّ المنارة كانت تتخذ علماً للإشارة، كما كانت تستخدم لهداية السفن، ولكن ليس من الواضح عندنا أكانت النار توقد بهـا في الليل والنهـار، فإن الإدريسي إنما يذكر النّار بالليل «وسحابة من الدخان في النهار». ولكن جاء في وصف آخر للمنارة أن الديادبة كانوا يقيمون بها على استعداد لإبقاء النيران بالليل[1]. ولكن من سوء الحظ أنا لا نجد دليلاً على ما جرت به العادة في أول الأمر لأن المنارة لحقها كثير من الهدم والتخريب في مدّة القرن الأول بعد الفتح العربي . ولذلك التهديم قصة ، وذلـك أنه في خـلافة الـوليد بن عبـد الملك في القرن الشـامن

(١) ذكر (Aroulfus) حوالي سنة ٦٧٠ ميلادية هذا « البرج الشاهق العلو » فقال « إنه كـان يخدم فيه قوم يوقدون المشاعل وقطع الخشب التي تجمع لذلك الغرض لكي تهـدي السفن إلى البر وتدلها على مدخل المضيق » ثم قال « وكان حول الجزيرة كذلك عروق كبيرة الحجم قد وضعت لتحمي الأساس من الانهيار من جراء فعل ماء البحر » .Pal) Pil. Text Soc) الجزء الثالث صفحة ٥٠ .

للميلاد ، رأى الروم فعل المنارة وضايقهم من أمرها أنها كانت مرقباً يساعد المسلمين على ردّ غارات البحر ويحميهم من المباغتة ، فعوّلوا على الاحتيال في تخريبها . فذهب رجل من خواص[1] ملك الروم إلى الخليفة يحمل الهدايا النفيسة ، وتظاهر بأن الملك قد وجد عليه موجدة عظيمة وسعى في قتله ؛ وأنه جاء راغباً في الإسلام ، فصدّقه الخليفة ورحب بإسلامه وقرّبه وتنصح الرجل إلى الخليفة في دفائن استخرجت من بلاد الشام ، فشرهت نفسه إلى الأموال فمال إلى تصديق ما وصفه ذلك الرومي الداهية من كنوز عظيمة من الذهب والجوهر كانت من قبل لملوك مصر القديمة وقال إنها مدفونة في آزاج ومخادع تحت المنارة . فأرسل الخليفة جماعة من جنده ليستخرجوا ذلك فهدموا نصف المنارة وأزالوا المرآة ، وتم ذلك قبل أن يفطن أحد إلى المكيدة . فضج الناس وعزموا على منع ذلك الهدم وبعثوا إلى الخليفة بخبرها ، فنذر الخائن بالأمر فهرب في الليل إلى بلاده ، وكانت حيلته قد تمت وهدم من المنارة نصفها أو على الأقل ثلثها ، وبلغ الخائن ما أراد إذ هدم المرآة السحرية . وعرف العرب أنهم خدعوا بعد أن انقضى الأمر ، « وبنوا مرآة من الآجر ولكنهم لم يستطيعوا أن يعيدوها إلى علوها السابق ، فلما وضعوا المرآة عليها لم تفد شيئاً[2] .

وليست ثمت سبب يدعو إلى الشك في جوهر هذه القصة ، وليس من العجب أن يتعذر إصلاح ما تلف من المنارة . فلا شك أنها كانت من آيات البناء إذ بقيت قائمة مدة قرون وهي شاهقة العلو ناهدة في أطباق الفضاء . وما كان البناءون في مدة حكم العرب ليبلغوا ما بلغه سلفهم في عهد البطالسة . ولم يرد في كتاب المسعودي ذكر لسعي العرب في إعادة بنائها بل يفهم من قوله أنهم لم يفعلوا شيئاً في سبيل ذلك ، ولكن لعله مخطىء . ولا نعرف بعد ذلك إلا قليلاً

(١) جاء في رواية أخرى أنه كان بعض قسوس النصارى وأنه جاء بكتاب قديم فيه سر الكنز الدفين .

(٢) السيوطي الكتاب السابق صفحة ٥٣ ، ولكن جمهور كتاب العرب يذهبون إلى أن المرآة تحطمت وهذا هو الأقرب .

من أخبار المنارة فقد ورد أن أحمد بن طولون[1] جعل على قمتها قبة من الخشب ، حوالي سنة ٨٧٥ للميلاد . وفي ذلك ما يدل على أن هذا البناء لم يكن يعدّ منارة على سابق عهده بل صار مرقباً لا يستخدم لغير ذلك . ولكن هذه القبة لم تبق مدّة طويلة ولما أن أزالها الريح أقيم في موضعها مسجد في مدة الملك الكامل . وقد حدث بعد مدّة ابن طولون ببضع سنين أن تهدّمت إحدى قوائمها من جهة الغرب مما يلي البحر فبناها خمارويه[2]. وفي القرن الذي بعد ذلك لعشر من رمضان لعام ٣٤٤ للهجرة (وذلك يوافق الثامن والعشرين من ديسمبر سنة ٩٥٥) للميلاد تهدّم نحو ثلاثين ذراعاً من قمتها في زلازل شديدة أحس بها الناس في كل بلاد مصر والشام وشمال أفريقيا ، وكانت لها هزات عنيفة بقيت تتوالى إلى نحو نصف ساعة[3] ، وفي عام ١١٨٢ ذكر ابن جبير[4] أنه رأى مسجداً آخر على رأسها ويقول ذلك الكاتب إن علوها كان نيفاً ومائة وخمسين ذراعاً وفي ذلك دلالة على مقدار نقصان البناء عما كان عليه في أول عهده . وبعد ذلك الوقت بنحو أربعين عاماً كتب ياقوت وصفاً للمنارة ورسم لها رسماً مربعاً « كالحصن» له طبقة ثانية قصيرة من فوقها قبة صغيرة . واستطرد من ذكر ذلك إلى أن قال : إن أخبار عظم تلك المنارة وما ورد من تعظيم شأنها لم تكن إلا « أكاذيب وأضاليل ». ولقد كان حكمه ذلك وليد التسرع ، فالظاهر أنه لم يفطن إلى ما أحدثه الدهر فيها من التغير . ولقد جاء في قوله « وبحثت عن موضع المرآة فلم أجد له أثراً ». وكيف يرجو أن يراها على مثل ذلك الطلل المتهدّم المشوّه وهو كل ما كان باقياً في وقت زيارته[5] . ولكن ما حدث بها من التلف بعد ذلك كان أعظم وأبلغ فقد وصفها كاتب عربي في أيام قلاوون بأنها

---

(١) عن مؤلف « مباهج الفكر » الذي نقل عنه السيوطي .

(٢) المسعودي .

(٣) قال المسعودي إن ذلك حدث عندما كان في الفسطاط .

(٤) نقله المقريزي .

(٥) يمكن أن تقرأ وصف ياقوت للمنارة في كتاب (Wustenfeld) (Geographisches Worterbuch) الجزء الأول صفحة ٢٨٦ وما بعدها .

« طلل بال »[1] ، مع أن السلطان (بيبرس) كان قد رممها قبل ذلك وأصلح منها . وقد سعى من جاء بعد ذلك في إصلاحها غير أنه يلوح لنا أن الزلزال الذي وقع في عام ١٣٧٥ دمر معظمها فلم تبقَ منها إلا الطبقة السفلى من البرج[٢] .

ولئن ذهبت منارة (الفاروس) وتطاول على زوالها أمد الدهر فقد بقيت منها هيئتها وجمال منظرها ، وما كانت مستعملة من أجله ، وذلك أن منائر المساجد المصرية إنما رسمت على رسمها[٣] ونسجت على منوالها وقد سميت باسمها . وإن منائر القاهرة وإن اختلفت أشكالها وتباينت رسومها لا تزال الكثرة منها على رسم منارة (سوستراتوس) لا فرق فيما بينها ، فهي برج قاعدته عند الأرض مربعة الشكل ثم تصير بعد ذلك مثمنة الأضلاع وتدق في حجمها ، ثم تدق بعد ذلك ويستدير شكلها ، ثم يعلوها عند القمة مصباح .

إن تاريخ آثار الإسكندرية لم يكتبه أحد بعد ، وإن من أراد كتابته لا بد له من بحث كثير لا يتيسر اليوم في كثير من المواضع ، وهو بحث لا غنى عنه في إثبات ما يراد إثباته. على أن وصفنا الذي نصفه الآن على ما فيه من نقص قد

---

(١) عن ابن فضل الله وقد نقله عنه السيوطي .

(٢) لا يكاد يوجد شك في أن قلعة فاروس (الفنار) التي تهدمت عند رمي القنابل على الإسكندرية هي في موضع المنارة القديمة ويظهر أن بعض أجزائها قديمة ، ولكن يلوح أن علماء الآثار القديمة لم يفحصوا هذا الموضع فحصاً جدياً ليعرفوا رسم ما يستحق الرسم وحفظه ، ويزعم المستر (Kay) الكاتب الأمريكي أنه قد كشف آثار الأساس الأصلي تحت جدران الحصن الموجود الذي بناه قايتباي (حوالي سنة ١٤٨٠) (The American Architect And Building News) الجزء الحادي عشر صفحة ١٠١ ـ ٢ الصادرة في ٢٦ أغسطس سنة ١٨٨٢ ، ولكن سواء يجعلون الموضع في شرق الحصن في مكان يغطيه البحر اليوم .

(٣) قد عالجنا هذه النظرية في الـ (Athenaeum) ٢٠ نوفمبر سنة ١٨٨٠ ولا نزال على رأينا في ذلك ، أما من حيث الاسم فلفظ المنارة لا يستخدم الآن للمئذنة ولكنه كان يستخدم في الأصل لذلك الغرض كما أخبرني الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية .

يفيده في بيان ما وقعت عليه أنظار العرب من تلك الآثار عند أول دخولهم في المدينة .

ولم يكن مظهر العاصمة من خارجها بأقل أثراً أو أحقر منظراً فكانت الأسوار في شمال المدينة تساير الشاطىء في إنحنائه كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، وكانت الأسوار في جنوبها تتبع الترعة حتى تدخل إلى المدينة وتجري فيها ، وكان كل ذلك بناء متيناً بارع الصناعة تنهض فيه بروج وحصون ، فتجعل له هيئة منوّعة ظلت يعجب بحسنها السفار الذين كانوا يرونها في السنين الغابرة من أيام الفتح حتى العصور الوسطى[1] .

---

(١) يخطىء جل الرسوم التي تمثل الإسكندرية القديمة ، إذ تجعل فضاء عظيماً بين الأسوار والترعة وهذا الخطأ قد دل عليه الدليل القاطع : أولاً بشهادة حنا النقيوسي في وصف القتال بين (نيقتاس) و (بونوسوس) وقد أوردنا ذلك في الأبواب الأولى من كتابنا هذا . وثانياً بأن (أركولفوس) قد ذكر ذلك الأمر ذكراً صريحاً إذ يقول : « وتحيط بالمدينة دائرة عظيمة من الأسوار تحصنها البروج الكثيرة المقامة على شاطىء النهر ومنحنى ساحل البحر » (الكتاب المذكور صفحة ٥٢) ثم قال في موضع آخر « ويحيط بها من الجنوب مصبات نهر النيل ويحف بها من الشمال البحر ، وعلى هذا فهي من كلا الجانبين يحيط بها الماء » (نفس الكتاب صفحة ٤٩) ولا شك أننا عالمون أن المدينة قد ضاقت رقعتها وضاقت بضيقها دائرة أسوارها ، فلم تكن الأسوار التي تحيط بها في العصور الوسطى هي التي كانت تحيط بها في أول أيامها (أنظر كتاب H, de Vaujany « Recherches sur les anciens Monuments situés sur le Grand Port d'Alexandrie » صفحة ٧٤ و ٨٤ (الإسكندرية ١٨٨٨) ولكن الشكل العام لتلك الأسوار كان في أغلب الظن لا يزال على عهده وقد كان لها بغير شك أثر عظيم في نفوس السفار حتى بعد الفتح بسبعة قرون أو ثمانية ففي سنة ١٣٥٠ كتب (Ludolph Von Suchem) يقول « والإسكندرية اليوم أول مدينة بحرية في مصر ومن أعظم مدائن السلطان فهي من جانب على نهر النيل نهر جنة الفردوس إذ يصب في البحر وهي من الجانب الآخر على البحر وهذه المدينة الجميلة منيعة تحيط بها الأسوار العالية والصروح الباسقة التي يخالها الرائي أمنع من أن ينالها نائل . . . ولا تزال بها إلى اليوم كنيسة عظيمة بديعة البناء لم ينقص منها شيء وقد حلتها النقوش المختلفة من الفسيفساء والرخام والحق أن الإسكندرية لا يزال بها كنائس أخرى كثيرة فيها أجساد من القديسين «Description of the Holy Land» . tr, by Au- =

. . . .

= (brey Stewart (صفحة ٥٤ ـ ٤٦ لندن ١٨٩٥) وكذلك يذكر (Breydenbach) حوالي سنة ١٤٨٦ أنه رأى « مدينة الإسكندرية العظيمة يحيط بها البحر الأعظم من جانب والحدائق اليانعة من الجانب الآخر » . ثم قال بعد ذلك إن كثيرين من زملائه السفار صعدوا على السور الخارجي ورأوا دائرة الحصون والخنادق ثم وافقوا على رأيه « وأنهم لم يروا مدينة أبدع منها ولا أحصن لما بها من الآطام والأسوار العالية والبروج الشاهقة » ولكنهم لم يروا في داخلها سوى الخراب والدمار اللهم إلا كنائس قليلة (Descriptio Terrae Sanctae (صفحة ١٠٢ ويمكن أن ترى رسماً للإسكندرية القديمة في دار الكتب المصرية بالقاهرة وتاريخها سنة ١٦٠٠ وهي تمثل دائرة تامة من الأسوار وتكون الأسوار في بعض المواضع مزدوجة ولكنه رسم غير دقيق بغير مقياس ولا تناسب وخير منه رسم (D'Anville) عند صفحة ٥٢ من كتابه (Memoires sur L'egypte) وبه رسم الأسوار القديمة والجديدة معاً وتجد رسماً تقريبياً في كتاب Janssonius وهو « Theatrum Urbium » الجزء الرابع (Ams, n, d,) وتجد في كتاب Wheite « Aegyptiaea » (1801 Oxon) رسماً وطائفة عظيمة من الأخبار وكذلك في كتاب (Porthey) «Alexandrinisches Museum » (برلين سنة ١٨٣٨) وأكثر دوائر المعارف تورد بعض الرسوم كما يفعل كتاب Tozer « Selections from Strabo » وكل هذه الرسوم صغيرة وأكثرها يسلم بأمور ليست من المسلم بها وأما الرسم الذي في كتاب Matter « Ecole d'Alexandrie » فإنه أكبر قليلاً ولكنه غير دقيق وناقص في التفاصيل وقد أورد كذلك (Neroutsos Bey) في كتابه (L'ancienne Alex,) رسماً على مقياس أكبر ولعله خير الرسوم على أنه في بعض المواضع يظهر كأنه لا يفرق بين الأسوار البيزنطية والأسوار العربية ولا شك أنه مخطىء في جعل كنيسة القديس مرقص والترابيليس في جنوب القيصريون ولكنه أحسن في تصوير الموانىء التي على الترعة ونجد في المتحف الحديث بالإسكندرية رسماً للمدينة قديماً وحديثاً على مقياس كبير جداً ولا شك أن البحوث القائمة في الوقت الحالي ستكشف بعد قليل عن رسم المدينة القديم ولكن انخفاض الأرض في كل مساحة الإسكندرية القديمة وإغارة البحر عليها يجعلان إعادة الرسم من أشق الأمور أنظر مقال الدكتور (Hogarth) عن أبحاثه الحفرية في (Eg. Eplor. Fund Report) سنة ١٨٩٤ ـ ١٨٩٥ .


Bibliotheca Alexandrina
12240015